رواية

وَطَنْ



مجموعة تكوين المتحدة
للطباعة والنشر و التوزيع

جدة - حي مشرفة - شارع التضامن العربي
info@tkween.net.sa
tkween.net.sa
00966557772038









طبع في مطبعة تكوين الرقمية
+966559270870

رواية

وَطَرْ

محمود عبد اللطيف الحسين

النسخة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

إهداء

إلى كل نيفين طحنتها رُحى الأيام، قدمت قلبها على طبق من الأحلام، فانكسر الطبق، وأُريق الحلُمُ..

هنا..

أسير في شوارع دمشق.. .. أنصت إلى ياسمينها المتشح بلون الموت.. أسمع من تشققات أرصفتها أنينُ ناي حزين ينسابُ رقراقًا في روحي؟؟ دمشق يا توأم روحي، لمْ لمَ تعودي تضحكين؟؟ لمَ يغلف الخوف والوجع وجوه هؤلاء الذين تحتضنينهم.

أكمل طريقي ماشيًا على آلامها.. موجعًا بخطواتي أحجار أزقتها.. أصلُ إلى بيتٍ عتيق من بيوتها في شارع ابن عساكر.. أنظر إلى شُبّاكٍ في الدور الأول.. حمامةُ وضعت عُشَها فوق أصيص آسٍ، شتلةُ آسٍ كانت تسقيها فتاة وجهها كوجهِ القمر وهي تنظر باسمة إليَّ، تنظرُني وابتسامة كشعاع نور تتقد من عينيها، أصيص زرع مات آسهُ وذبل، أصيص زرع انكسرت ساق نبتته قبل خمسة عشر عامًا. انهمرت عيناي.. انحنت رقبتي حزينة، وسرت بين أزقتك الملكومة..

***

هناك..

دنانيرُ ذهب.. بل بقع نور هاربة من براثن شجرة سروٍ ضخمة.. تسللت هويناً هويناً حتى وقعت على خدِّ فتاة نحيلة تجلس على كرسي إسمنتي... تهُفُّ نِسمةٌ حزينة فيهتز شعرها الغجري الأسود مع كل هبةِ خريف.. .. تتساقط أجنة الشجرة ميتةً بجانبها فتغطي الأرض بأوراقٍ يبست واصفر لونها كمريض مسلول سقط طريحاً على فراشه في ذلك الفصل البائس، رماديٌ كرسيها كلون الكآبة التي سطت على كل الأشياء.. اسوَّدت جفناها وكأن قطعة من الليل هربت من السماء، ولجأت إليهما.. تأنُّ أظافرها تحت قضم أسنانها.. لا تشيحُ بنظرها عن بوابة الجامعة على يمناها.. تبحث في وجوه الداخلين عن شخص.. تدير عينيها في ملامح البشر وترسم على شفتيها إزدراءً حاقداً كلما رأت شاباً يضحك.. شاردة عن كل التحايا.. غافلةً عن كل ما يحدث حولها إلا عن البوابة البيضاء.

نارٌ تشتعل بداخلها وتحرقُ أعوادَ أعصابها.. يتناوب الحزن والغضب على قسمات وجهها.. سقمُ الانتظار أيضًا يعتريها.. تقوم.. تقعد.. تقوم.. تقعد.. الدقائق تصير خطوطاً طولية بين حاجبيها.. كلما مرت دقيقة زادت خطاً جديداً.. تنتابها نوبة صراخٍ

بداخلها.. تريد أن تمزق سكونها.. دقات قلبها متسارعة.. أنفاسها تضطرب داخل رئتيها، أين هو؟ أين هو؟؟؟

ساعةٌ قضتها تنهض لتسقط على الكرسي المتعب، اتسعت عيناها حين رأته يجرُّ جسده داخلاً، نحيل بشعر أجعد رمُد لونه، ذقنه مبعثرة كتبعثر أحلامها.. عينه اليمنى منتفخة بزرقةٍ مؤلمة.. قميصه الأصفر متسخ بترابٍ ودم.. أصفر كلون وجهه، بنطال جنزه الأزرق تهلهل فوق ساقيه الدقيقتين كما تتهلهلُ عيناه ووجنتاه، صورة اكتملت بها ألوان البؤس والحزن.. شحب وجهه هو الآخر.. تشابه الاثنان في ملامحهما وأوراق الخريف التي تنهال فوق رأسيهما تقول لهما: إن كل شيء سيموت كما أموت أنا.. كل شيء سيسقط مثلي في هاوية الألم.

ما إن دخل حتى وجّهَ نظره صوبها.. كيف وهذا الكرسي الذي تجلس عليه كان لهما فقط وليس لأحد غيرهما.. التقت عيناه بعينيها لتسرد كلماتٍ لا يفهمها أحدٌ سواهما، كقصيدة رثاء يحفظها لأمٍ ثكلى، تفرس في وجهها قبل أن يتوجه إليها، أرخى رأسه ونظر إلى حذائه.. يمد قدما ويؤخر أخرى.. انقباضُ قلبه يجره ليعود من حيث أتى ووميضُ أمل خافت لا يكاد يضيء شيئًا يدفعه للأمام..

يبحلق في الحذاء.. يستجديه أن يتوقف.. أن يبتلعه.. أن يخفيه من وجوده البائس قبل أن يصل إليها وينتهي كل شيء.. وصل.. جلس بجانبها ورفع رأسه المثقل بالتعب.. نظر إليها بابتسامة مرهقة، لا يزال على الأقل قادراً على الابتسام.

اقترب.. أراد أن يلقي التحية.. لم يستطع، وكأن حبلاً غليظاً أحاط فمه.. سرت بينهما لغة الصمت، لغةٌ حبرها الألم وأوراقها الأنين، أمسك بيديها الناعمتين وضغط عليهما بقوة، وهي تنظر إلى عينيه بغضب متعب.. الدموع تموج بداخل عينيها كقطرات ماء تتكاثف على جسد غيمةٍ حزينة.

يحدقان بعيني بعضهما.. تاه الكلام على شفتيهما.. سقطت دمعة مشتعلة على خدها، يزداد لهبها ليحرق كل ما بداخلها ويعمي دخانه عينيه وعينيها.

ترك يدها برفق وانحنى دافناً وجهه المتعب داخل يديه المرتجفتين وبكى، يتردد صدى صرخاته بداخل قلبه ورئتيه وكل خلاياه، اهتز جسده وصمتُ صخبَ دموعه ينتفُ كيانه.

بكى حتى ابتلتْ يديه وانسابت منهمرةً قطرات دموعه من بين أصابعه.. بكى وهو يسمع صوت نشيج فتاته فانتحب رغماً عنه،

هل مات لهما أحد؟ أم مات بداخلهما؟.. شلالٌ من الحزن ينهمر فوقهما بعد أن لوّثَ اليأس نهراً، كانا ينهلان منه الأمل.. قتلت إشارتها برأسها بصيص النور الصغير الذي كان يضيء بداخله، ومات هذا الطفل قبل أن يولد بين يديها.

تمالك بقاياه، مسح وجهه وشعثَ ذقنه بيديه.. رفع رأسه.. نظر إليها بعينين تقطران أسى، نظر إلى عينيها طويلاً ودموع ساخنة رسمت خطين لا ينقطعان على خديها، قبَّلَ يمناها.. قبل يسراها.. مسح برفق على شعرها الذي بعثرته هبات السقوط.. قبّلَ رأسها ونهض.. عدل قميصه المتعب على جسده البالي.. أخرج من جيبه منديلاً وضعه بحرص في يدها ثم أخرج علبة صغيرة ووضعها في الأخرى، نظرت إلى يديها ثم نظرت إليه مستجديةً كلمة منه، لاحت ابتسامة يشوبها القهر على شفتيه ثم تركها ومشى.

قطّعَ الحزنُ أحرفها.. أرجفَ الهمُّ كلماتها، كنَفَسٍ أخير يخرج من الجسد:

– لوين رايح؟

تنسكب الدموع من عينيه.. تحرقه وجنتاه.. فرك صدغيه بإصبعيه علَّها تقتل وجعه..

- خلَصْ الحكي.

استدار ليكمل طريقه:

- أنا لسا بدي أحكي، بدي حل؟

اتسعتْ عيناه، لم يكن قد سمع صوتها يرتفع قبل ذلك.. كان يتندر بضعف صوتها.. برقة كلامها.. الألم يعطينا قوة غريبة علينا.. يغير طباعنا.. يمحو شخصياتنا ويستبدلها بأخرى قاسية وشائكة.. يأكله الندم.. يمزقه خذلانه لها.. خذلان الدنيا له. تسبّه.. تأمره أن يعود.. أن يكلمها.. تلعنه وتبكي.. تصرخ بوجهه.. يجثمُ الألمُ على ظهره.. يغادرها.

ركضت فتاتان كانتا تمشيان قريباً منها إليها، احتضنتها إحداهما وأمسكت الأخرى بيديها وهما ينظران إليه.. الكرهُ يتقافز من عينيهما كنمرٍ جائع يطارد فريسته.. اهتزَّ جسدُها.. ترتجف بعنف.. علا نحيبها كأم ثكلى تمسك أشلاءً ملطخة بالألم.

***

مستودع مقفل...

مفاتيحه ضائعة...

أبوابه موصدة...

جدرانه مسلحة...

تغفو بداخله أياماً

أشهراً..

سنيناً

عمراً بائساً حدَّ الوجع

هنا..

نتقافز على أنغام صاخبة.. كروح متمردة سكنت أجسادنا جميعًا في وقت واحد.. فتاة داكنة ماجنة الحركات تضع عدسات لاصقة أحالت لون عينيها الأسود إلى لون عشب ربيعي.. تناغم غريب بين لون بشرتها وحدقتيها.. اقتربتْ مني وألصقت جسدها الغني بجسدي، تنظر إلى عيني وجسدي الراقص بعينين شهوانيتين.. تتمايل معي.. رقصتها فاحشة تفضح رغبتها.. تعضُّ على شفتيها، وتلصق مؤخرتها الضخمة بجسدي.. نتوئاتها الطرية تهتز مع كل نغمة وأغنية، أُديرُها.. أُمسكها بكلتا يدي من خصرها الجائع وأتمايلُ معها، يمان.. صديقي اللعين هو الآخر يرقص مع فتاة تتدلى خصلات شعرها الذهبي المصبوغ على ظهرها المرمري.. غمزتُ له بشقاوة مشيراً إلى ما تحتضنه يداي فضحك وعض هو أيضًا شفته السفلى، سيجارته تتدلى من فمه ويسقط رمادها على الأرض، عيناه نصف مغلقتان كمن لثم الوجدُ رأسه.. أسكر العرقُ المحلي فمه؛ فخرجت ضحكاته من شفتي قلبه.

لفافتا حشيش قتلت نصف وعينا وهيّجت النصف الآخر على الجنون، يتساقط الوقت من بين أيدينا كقطيع أغنام يتهاوى تباعًا

من حافة جبل شاهق.. لا نعلم كم قضينا هناك نتلوّى بين يديّ فتاةَ وفتاة... أوشكنا على السقوط في غياهب الفقد.. لم نغادر المقهى إلا بعد أن أغلقوا أبوابه في وجوهنا، وقد تأبط كل منا بيد فتاة إحداهن كانت قهويّة البشرة تلك.. حاولت أن أضع مفتاح سيارتي في مكانه لكن القفل كان يتوارى عني ويضحك، انحنى رفاقي الثلاثة يدلونني على خرم المفتاح: يمين، لا لا يسار يسار، نضحك بهستيريا.. يمر بجانبنا من يقهقه معنا، ويمر آخرون يرمقوننا بنظرات قرف وشزر.. لا نأبه لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، استقلينا سيارة أجرة بعد أن فقدنا الأمل بعقولنا..، ما إن صعدتها حتى تشبثتُ بمقبض اليد العلوي وقرفصتُ قدماي على صدري؛ وكأني أنحدر نحو هاوية خطيرة، يضحك السائق ورفاقي الثلاثة.. وصلنا إلى حي الروضة النائم حيث يقع منزلي، تتماها فلله بواجهات حجرية متشابهة عن يمينه وشماله، قطعت سيارة الأجرة الحديقة الصغيرة في منتصفه، مررنا من أمام بيتي وأنا أنظر إليه ببله، وحين صار خلفنا أمرتُ السائق فجأة أن يتوقف فأصدرت كفراته صوت صرير وهي تحتك بالإسفلت، أندفع جسدي للأمام بعنف وتكوم يمان فوق الفتاتين ونحن نضحك، صعدتُ الدرج الداخلي إلى الأعلى.. قبلتُ شفاه صورة فتاة صغيرة علقتها على جدار الدرج ودغدغتُ غزالاً يقفز

بمرح في الصورة الثانية وسط بلاهة عين رفيقتي التي اختفيتُ معها في غرفتي، لمحت يمان بنصف عين يترنح مع صاحبته عند باب غرفة الضيوف.

هذا أنا.. أعيش حياتي بصخب... أسرف في كل شيء كما يقول لي يمان كل يوم، أركض في الحياة أريد أن أسبقها قبل أن تسبقني، أترك كل شيء يجري مجراه.. الصدف هي سيدة الموقف وليس أنا، أو أن حياتي خُطِّطت بهذه الطريقة حيث تصبح عشوائيتي هي من تقودني، تسيرُ بي أحداث حياتي حيث تشاء ومثلما تشاء، لا أكاد أعود من عملي حتى أدخل إلى الحمام، أتطهر من ما علق بجسدي من جراثيم عملي وبقايا عهري، أسد رمقي بأي قطعة (ناجيتز) أخرجها من ثلاجتي أو مثلثُ بيتزا قديمة أو لا شيء أبداً حسب ما تشاء أن تطعمني مبردتي.. أأكلُ على عجل لأخرجَ مرةً أخرى..

في عملي الخاص خارج المستشفى وضعت لنفسي قانوناً صارماً ألا أعالج أكثر من مريضين أو ثلاثة لأترك وقتاً لنفسي وحتى لا أصير وحشاً يركض أبداً فوق فرائسه.. أزورُ مرضاي في منازلهم، وأحصل منهم على ما يوازي راتبي الشهري ويزيد عليه

أحيانـاً.. صـار عنـدي ثـروة صغيـرة تعينني علـى مصاريـف هـذه الفيـلا التـي أسكنها وهـذا الشـبق الـذي يسـتنزفني، أخـرج باحثـاً عـن أي فتاة أفـرغ بهـا شـهوتي، أي فتـاة.. أنقدهـا مـا أخذتـه مـن مريضـي.. يـأتي الرزق مـن حيـث لا نحتسـب.. تقتـات فتيـاتي علـى أوجـاع مرضـاي.. ويعلـمُ الله علـى مـا يقتـات هـؤلاء.. قـرأت مـرة أن جميـع النسـاء يتشـابهن إذا انطفـأ النـور.. نصبتُ خيمتـي في الصحـراء وفي الواحـات وفي الغابـات وآمنـت بصحـة هـذه المقولـة.. كنـت كبـدوي يرتحـل خلـف المـاء والـكلأ.. أغـرس وتـدي حيثمـا اتفقـت لـي أسـباب رغبتـي، حمـراء كانـت أم شـقراء.. لا فـرق عنـدي.. جميعهـن يسـتعبدنني ويحتللـن قلبـي احتـلالاً لليلـة واحـدة.. بعدهـا يثـور قلبـي ويُجْلـي المحتـل لأستدعي في اليـوم التالـي محتـلاً آخـر يستوطنني، هنـاك شـهوة أخـرى تتملكنـي.. يسـميني يمـان أبـو التناقـض مـن ضمـن مسـمياته الأخـرى لـي.. أحـب أن أقـرأ، أن ألتهـم الكتـب.. أضيـع بيـن سـطورها.. أمـارس معهـا شـبقا كشـبق الجنـس الـذي يسـتهويني.. تغمـرني رعشـة الجمـاع حيـن تلتقـي أفـكاري بأسـطرها.. أغـوص في أعمـاق عقـل كُتّابِهـا، أسـيرُ مـع دوستوفيسـكي في شـوارع بطرسـبورغ، وأجلـس مـع حاشـية بنـي الأحمـر في غرناطـة بعـد أن تمـد لـي رضـوى عاشـور يدهـا ونطيـر سـوياً في شـوارع الأندلـس، أجـد نفسـي في كل روايـة.. أنـا بطلهـا.. أنـا

شريرها.. أنا العديد من شخصياتها وحين أضيع بي يتجلى فرويد أمامي.. أتناول غليونه من يده لأحشيه بقطعة من الحشيش الأفغاني التي يحضرها صديقي سعيد لي، أطير في سماء هذا الرجل المتعب كحمامة فارقت عشها البالي؛ ليدخلني في ثقب أسود داخل نفوسنا الهشة. أقرأ بكل شيء وعن أي شيء، أملءُ هذا الوعاء المتعب بأي كلمة أصادفها أمامي حتى صرت لا ألوي على شيء، لا وجهة لي ولا معالم لشخصيتي، اقتنع بالشيء ونقيضه، أُدافع عن شيء ما اليوم ثم تراني العنةُ غداً.. هذه المخلوقات المتحركة ذات الجلد الطري الذي يغلفها تملأ عليَّ وقتي.. تنتشلني من براثن الملل الذي لا أعرفه.. حياتي أصلاً ممتلئة لا ملل فيها..

هناك إطار يغل عقولنا، يرسم طريقة تفكيرنا ويُسيِّر أدمغتنا، نحن مبرمجون شئنا أم أبينا، هناك جهاز صغير في عقولنا يدعى دماغًا تتشكل تعرجاته.. منحنياته.. بسلوك عوائلنا ومجتمعنا ويستقبل ذبذبات من كانوا حولنا، يتقمصها لتصبح جزءا مِنّا، أبوينا أيضًا تشكلوا من قبل أبويهم؛ لذا لن أستغرب إن كان بعقلي تشوهات تشبه عاهات عقل جدي السابع.. شهواتنا المكبوتة تسيطر على أدمغتنا، قطعة الحلوى التي رأيناها عند دكان البقال وسال لمنظرها لعابنا لها سطوة على سلوكنا وتصرفاتنا، تناقض

حياتنا وتعدد شخصيات من كان يملك بيده عقالنا،(فلقةً) أدمت أقدامنا، وقبلةً لامست بحنوٍّ جباهنا.. كلها ترسم خطوط شخصياتنا، تؤثر موروثاتنا برؤيتنا للحياة وتفاعلنا معها.. وأنا مختبرٌ كيميائي لكل ما مرَّ بي.. تموجُ نفسي بأخلاطها. أنا هو تاريخي.. تاريخي هو أنا.



طفل معلق بشجرة عنب...

يقطف منها الحصرم..

يزردهُ حامضًا..

ليعتاد علقم الحياة...

***

هناك..

أنــا... ولــدت هنــا.. في هــذه الــدار.. أو هــذه الغرفــة، ســمها مــا شــئت.. في فجــر يــوم بــارد مــن شــباط ســقط رأســي في الزاويــة.. حملنــي أبــي.. رفــعَ الأذان في أذني اليمنــى وأقــام الصــلاة بأختهــا.. ثــم تركني أمتصُّ حلمـة أمي الجائعـة وذهـب ليصلي، وبعـد ذلـك ليقـوم بتدريـس أبنـاء وزيـر سـابق عـاد بعـد تقاعـده إلـى قريتـه – قريتنـا، زادت الأفـواه فمـا جديـد ليطعمـه، فـم كبيـر هـذه المـرة، دائمًـا مـا كانـت تقـول لـي أمـي: ولـدتَ بحجـم (بطيخـة كبيـرة) ضخامتـي المبكـرة أرهقـت ثديـا أمـي وهدلتاهمـا وأقضـت مضجـع أبـي المؤمـن بـأنّ كل مولـود يـأتي رزقـه معـه لكـن جـاء مولـوده وهـو يصـارع سـنينه الأربعيـن، أي رزق هـذا الـذي يـأتي لطفـل شـاخ ربُّـهْ.

كــبرتُ هنــا في هــذه الجنــة التــي لا أوعــدُ بهــا، قصــر منيــف يبعــدُ عــن غرفتنــا الصغيــرة أمتــاراً معــدودة، مــن هنــا بــدأ تناقضــي الــذي يــردحُ بــه يمــان ويعيــرني بــه.. قصــرٌ يحــاذي بيــت طيــن بائــس.. قســوة أبــي ورحمــة أمــي.. حتــى عصافيــر الحسّــون لا تقــتربُ منــا وتصــدحُ نجواهــا عنــد بــاب الفيــلا المُســيجُ بالبنفســج وشــقائق النعمــان.. حتــى صراصيــر الليــل تعــرفُ مكانهــا وراء جدارنــا الطينــي وتبتعــد عــن

المـروج المحيطـة بوزيرنـا.. يحيـط بغرفتنـا الصغيـرة وبالقصـر سـورٌ واحـد، مـنَّ الوزيـر علينـا بقُـنْ الدجـاج هـذا، كل أهـل القريـة يملكـون بيوتـًا تتفـاوت رغـم الفقـر أحجامهـا وأشـكالها إلا أبـي لا دار لـه.. هـو الغريـب الـذي لا وطـن لـه.. لا عنـوان لـه ولا عنـوان لنـا.. أقطفُ حـبَّ أمـي ودلالهـا كمـا أقطـف التيـن خلسـةً مـن أشـجار وزيرنـا، وأشـتاك بغضـب أبـي وقسـوته المصطنعـة مثلمـا تجـرح يـدي أزهـار الجـوري في حديقـة وزيرنـا حيـن أشـجذِّبُها، فقـراء كنـا لا نملـك مـن الدنيـا إلا مـا يبقينـا أحيـاءً أنـا وأخـوتي الثلاثـة. لكـن تعجـنُ لنـا أمـي كل يـوم حبهـا.. نحتسـي الأمـان مـن أحضانهـا.. تشـبِعُنا بنظـرات الحـب مـن عينيهـا.

هكـذا انقضـت سـبع سـنين عجـافٍ مـن عمـري.. حينهـا أدخلنـي والـدي في مدرسـة القريـة المجـاورة؛ وليطمئـن أكثـر صـار يأخـذني لأدرس مـع سـهى ابنـة الوزيـر المدللـة التـي كانـت تكـبرني بعاميـن

- اوعى تمد ايدك ع شي.

تـتردد هـذه الكلمـات بوجـل في أذني حيـن كنـت أقـف بجانـب والـدي أمـام البـاب.. تفتـح لنـا الخادمـة وتقـفُ سـهى وراءهـا بملابسـها الهاربـة مـن المدينـة.. تباغتتنـي بجمـال عينيهـا عـن قـرب لأول مـرة...

أنسى الوصية سريعًا.. أمد عينيَّ أتأمل اخضرار العشب في عينيها.. ولونُ الصيف في بشرتها..

كل شيء في بيت الوزير ينير عيني الصغيرتين، انفتح باب قصر الوزير على عالم جديد كان يرتعُ فيه خيالي، طاولة الاجتماعات الضخمة في منتصف الغرفة التي أذاكر بها دروسي مع سهى، السجاد التركي الفاخر الذي كان يفترش الأرضية الخشبية بهدوء، سهى بتنانيرها القصيرة المتناقضة مع كل ما في قريتنا ولا يشبه قصرها إلا أوقات سعادتنا، صفاء بشرتها الشاذ عن اللون الباهت الذي أراه في وجوه فتيات القرية المثقلات بهموم فقرهن، الورود التي تُغتالَ كل يوم لتُدفنَ في أصيص زجاجي أمامي، حتى الفطائر الصغيرة التي ترصها الخادمة بيننا والتي لم أرَ مثلها في حياتي، حتى اللوحات الضخمة المعلقة على الجدران وصورة الوزير المرعبة التي تتوسطها، والتي تشبهُ شخبطاتٍ رسمناها أنا وأخوتي على جدران دارنا الإسمنتية، كل ذلك كان جديداً وغريبًا، قضيت طفولتي القصيرة أتأمل القصر من الخارج.. أتخيل شكل غرفه وممراته.. كنت أتنقل بينها مرتديًا منامة الوزير الحمراء الحريرية التي يخرج بها أحيانًا يترنح في الحديقة، أأمر الخدم فينحنوا ويطيعوا.. أجلس في ركن أنيق في شرفة منزله الأمامية التي يطل

بها على بيتنا وجنائنه، وأضع غليونـاً ذهبيـاً في فمـي.. أقـرأُ جريـدة الصباح وأرتشفُ الشاي من فنجان مزخرف تهاجر منه طيور زرقاء صغيرة؛ وكأنها تبحثُ عن وطن يعيد لها كرامةً سُلبت منها.. تطير بي قصص أمي فوق القصر ثم أنسابُ كروح متلصصة إلى حجراته، تحثني على الدراسة والاجتهاد حتى أستطيع في يوم ما أن أقتني واحداً مثله وآأخذها معي.. أن أنتشلها من شقاء حالها وفقر معيشتها.

امتلكت ذلك القصر يا أمي لكني فقدتك، كسرت أضلعي برحيلك عني وغيابك، أم بغيابي؟ صار الهواء يدخل مشوهاً إلى صدري بعد أن تركتني، رحيلي كمخاض طفل لن يولد.. كنور شمس لم يسطع بل حجبته غيوم البؤس والكدر.

درسي مع سهى كان ينتهي بسرعةِ برق، لا أعلم الآن أكان الوقت يمر سريعاً فعلاً، أم أن كل لحظةٍ ممتعةٍ تمرُّ كومض النور مهما طال أمدها، أتلكّكُ بالخروج.. أتابع سهى بنظراتي كما تتابعني برسم ابتسامة شقية على شفتيها.. أمشي متعثراً خلف والدي حتى نصل إلى المسجد.. أسمع الأذان بصوت شيخ هرم تمزق صوته ونشز.. يا إلهي كم كنتُ أكره صوته.. صوت الأذان هنا.. كان دافئاً.. ناعماً.. شجياً.. وصوتُ الشيخ بارداً.. خشناً.. مزعجاً..

وكلا الأذانين لا يطرقان باب قلبي.. تمرُّ عربة الحراثة بهدير مزعج من الخارج.. صوتها الهادر كان أحبُّ الي من صوت الشيخ أبو عبدو.. كبرت قدماي سريعاً.. (الفلقة) التي كانت تتلقفها كل يوم من عصا هذا الرجل ضخمتها. كنت أعود إلى البيت أمشي على إسفنجتين منفوختين وشحمتا أذني تئنانِ من قرص أصابعه. جميعُ أقراني حفظوا أجزاءً من القرآن على يديه إلا أنا، كنتُ أشمئز منه.. من رائحة كريهة في فمه حين يجعلني أجلسُ أمامه وعصا خيزران رفيع ومؤلم في يده..

حين أعود إلى البيت أُبعثر ما بداخل حقيبة أخي أحمد الممزقة، والتي صارت لي بعد أن اشترى له أبي حقيبة جديدة، أُخرج منها قطع الكاكاو والحلوى التي كنت أسرقها، أو كانت سهى تعطيني إياها خلسة حين يغفل أبي عنا، أشير لحمزة إلى كنزي فتتسع عيناه فرحاً ثم أشير له بالهدوء حتى لا ينتبه لنا أحمد، سمعتُ أبي مرة يتحدث في مضافة القرية عن (هادم اللذات) ولم يطرأ على بالي أحدٌ غير أحمد ليكون مناسباً لهذه التسميه فكنيناهُ بها، كان أصغر مني حجماً لكن لديه سطوة الأخ الأكبر التي منحه وسامها والدي دون قيد أو شرط.. كوالٍ ظالم وضع على رقاب رعيته أشرّ عسسه، لم أستطع مقاومة ضربه بعنف حين مزق أحد كتبي التي استعرتها

مـن سـهى.. يكـبرني أحمـد بعاميـن.. كان نحيـلاً منـذ طفولتـه.. كنـتُ حيـن أعيِّـرهُ بضعفـه يقـول كيـف لا أكـون نحيـلاً، ولدينـا في البيـت ثـورٌ يـأكل طعامنـا.. كان كل مـا ضربتـهُ يشـتكيني إلـى والـدي، وكان يتقصـد اسـتفزازي فأضربـه؛ فيبرحنـي أبـي بلسـعات عقالـه.

تحـت أي سـماء أنـت اليـوم يـا أحمـد وفـوق أي أرض مـن هـذه الكـرة التـي اسـتدارت واسـتدارت ثـم ألقـت كل واحـد منـا في حنيـة مـن حناياهـا وتحـت نجمـة بعيـدة بعيـدة عـن أختهـا؟ مـاذا فعلـت بـك الأيـام؟ أأراك يومـاً؟ أم أننـا سـماء وأرض؟ شـهابٌ وحبـة رمـل؟

حمـزة الـذي يصغـرني بعشـرة أشـهر فقـط كان قرينـي، نلتصـقُ ببعضنـا وكل ألعابنـا معـاً، نكـوِّر جواربـاً ونصنـعُ منهـا كـرة صغيـرة نتلقفهـا، أو نضـعُ أحجـاراً فـوق بعضهـا ونتبـارى بمـن يسـقطها بحصـاة صغيـرة مـن بعيـد.. بسـببه حرمـت مبكـراً مـن ثـدي أمـي التـي أرضعتنـي شـهراً واحـداً ثـم حملـت بـه لتتقاذفنـي بعـد ذلـك حلمـات المرضعـات مـن قريتنـا، كنـت حيـن أخبـره بذلـك يحمـد الله ويقـول: بغيـر حليـب أمـي وصـرت كبغـل جارتنـا أم سـليمان فكيـف إن أرضعتـك.. أمـا علـي فيصغـرني بأربـع سـنين.. نلعـب معـه أو نلعـب بـه حسـب ظـروف شـقاوتي ومرحـي.

***

تتساقط أوراقنا كل يوم..

نتعرى من شبابنا قبل أن نرمي علينا رداء كهولتنا..

تبدو سوءة السنين على وجوهنا..

نخصف عليها من ورق الحياة؛ لنداريها فلا تستر منا شيئـًا..

تتساقط أوراقنا كل يوم..

***

هنا..

استيقظت من نومي فجأة كعادتي، قفزت وكأني أُراوغُ شيئًا ما كان يتأهب للجثوم على صدري، أقوم من فراشي؛ وكأني لم أكن أغط في نوم عميق قبل ثواني، أكرهُ كثيرًا من عاداتي التي لا سلطة لي عليها، جلستُ على طرف السرير أفرك وجهي، وأمسد لحيتي السوداء بكلتا يدي.. عبثت يدي في الظلام تحت موضع أقدامي.. التقطتُ منشفتي.. لففتها على خصري ونهضت عاريًا نصفي الآخر، سرتُ ببطء متتبعًا خيط النور الضعيف القادم من باب الشرفة الزجاجي، فتحته بهدوء فلفح صدري هواء أيلول الساخن، ينفث أيلول جدة زفيره وكأنه يتنفس بغضب.. كثور أعماه اللون الأحمر فثار واستشاط، أيلول الشرق غاضبٌ دائمًا، زفراته كقبضة قوية تدك أنفاسنا، تثير بداخلنا حزنًا يشبهها، أيلول حزين، يشبه مصارعًا من مصارعي السومو الذين نهاب أحجامهم الكبيرة وزفرات هواءٍ حار تتصاعد من أنوفهم الفطساء كزفرات أيلول تمامًا، وفي نفس الوقت ينتابنا حزنُ خفي نراه في أعينهم كمطر أيلول الذي لا يُجدي شيئًا إلا بتبليل ثيابنا.

على أحد الكرسيين البلاستكيين في الشرفة جلست.. قرّبتُ الطاولة البيضاء بقدمي، أشعلتُ سيجارة من علبة الدخان الرطبة

التـي تركتهـا هنـا في الليلـة السـابقة ونفخـت دخانهـا في الفضـاء.. جالـت عينـاي تتأمـلان الحديقـة التي زرعـت أشـجارها المورقـة بيـدي وغرسـتها بأرضـي حيـن كانـت فسـائل ضعيفـة... فتحـتُ كاميـرا هاتفـي الأماميـة ونظـرت إلـى وجهـي الـذي تغيـر هـو الآخـر، وكبـر كمـا كبـرت هـذه الفسـائل.. لمسـتُ خطوطـًا تنـام علـى طـرف عينـي، وأخـرى تعـترض جبينـي.. اخضـرت شـجراتي وأينعـت.. خصبـةٌ هـي نباتـاتي بينمـا تختبـئ علـى اسـتحياء شـعرات بيضـاء بيـن لفيـف شـعر رأسـي، وتحـت سـواد لحيتـي.

أنهيـتُ سـيجارتي.. حشـرت بقاياهـا في منفضـة أمامـي.. حملـت الكوبيـن الفارغيـن مـن الطاولـة ومسـحتُ بإصبعـي أحمـر شـفاه قبّـلَ طـرف إحداهمـا.. دخلـت غرفتـي أتحسّـسُ طريقـي في الظـلام.. أمشـي كلـصٍّ خائـف علـى أطـراف أصابعـي إلـى ركـن قهـوة صغيـر بطرفهـا البعيـد، فتحـتُ علبـة قهـوة وضعتهـا علـى أحـد رفوفـه لتتصاعـد منهـا رائحـة صحـوي ورائحـة ذكريـاتي، استنشـقتها بعُمـق حتـى دغدغـت خلايـا مخـي النصـف نائمـة فتفتحـت علـى اتسـاعها، كلُّ شـيء صـار يعبـث بذاكـرتي، روائـح القهـوة وعبـق الياسـمين.. فيـروز الصبـاح وأم كلثـوم الليـل.. شـفقٌ وغسـق، حتـى صراصيـر الليـل التـي تسـكن بيـن الأحـراش في كل مـكان بالدنيـا، هنـا وفي قريتـي أو في حديقـة ملـك

وكأنها تنفخُ في بوقِ صريرها إعلان انتصارها على قلة حيلتنا وضعف قوتنا، كل حواسي تكالبت على حاضري.. كل ألواني اختفت ورسمت لذاكرتي صوراً بقلم الرصاص لتصبح حياتي بالأبيض والأسود فقط، رائحة القهوة التي استنشقها تدخلني في ثقب ماضٍ رمادي، أقلب قهوتي على لهيب البوتوجاز ونار أخرى تتقلب فوقها خيالاتي.. تفور فتنسكبُ منها ذكرياتي.

استغلت القهوة شرودي وفارَتْ ففحّتِ النار تحتها وخمدت وما خمدت نيران لواعج نفسي، أفرغتها في فنجان دمشقي قديم فتح بابا لصورةٍ قديمة أخرى من صور آهاتي لتتسلل بهدوء إلى قلبي.. شعرت بانقباضة وصَبٍ أوجعت صدري.

الذكريات مرة أخرى تحاصرني.. تستعبد عقلي وفكري، تتمادى بالظهور في كل وقت وألم، تنهش بحلوها ومرها خلايا مخي ببطء وتربض هناك؛ لتسيطر على كياني وتمسك دفة سفينة مزاجي.. أبتسم أحياناً دون سبب وأضحك كبهلول فقد عقله، ثم تملأ وجهي في اللحظة التالية بقايا حزن، أضحك ثم ينحني رأسي نحو الأرض لتغلفني سحابة كدر لا تُمطِرُ فوق صحراء روحي إلا ألماً تعاهدَ أرضي الجرداء... تموج مشاعري كطوفان نوح ثم تعود وتهدأ بعد أن يغيض الهم وتُقلع آهاتي، صارت الذكرى تسرق

وقتي لكنني حتى اللحظة لا أعرف السبب، ما الذي هيجها؟ ما الذي بعثها بعد موتها.. خمسة عشر عاماً مرت على هذه الصور التي تتتابع في ذهني الآن كفيلم سينمائي قديم.. ما الذي أخرجها وأنا الذي طويت عليها دفاتر نسياني وأقفلت عليها كل مستودعاتي؟ أتساءل؟؟ لمَ تختلس وقتي لحظة بلحظة، دقيقة بدقيقة.. ألماً بألم حتى أصبحت توخزني، تؤرقني.. تنتشلني من واقعي وترميني في غياهب الماضي العتيق، حملتُ فنجان القهوة وأنا أسير مرة أخرى على رؤوس أصابعي، مررتُ بجانب السرير ونظرتُ بلا أي معنى إلى الفتاة النائمة ملئ جفنيها على فراشي.. أكملتُ طريقي إلى شرفتي مرة أخرى، أضرمتُ ناري برأسَ سيجارة أخرى وفتحتُ قفل هاتفي، دخلت على موقع الخرائط، كتبتُ: دمشق البرامكة في خانة البحث، طار المؤشر في سماء جدة وهبط في لحظات شمالاً.. ضغطت أيقونة صغيرة كُتِبَ عليها تجوّلْ هنا لأسير في شوارع البرامكة.. أدخل حارة فأجدها مسدودة ثم أخرج منها لأدخل حارة أخرى.. أقف تحت عمائر فارهة بقرب أشجار ريحان صغيرة ذبلت أوراقها.. أكمل طريقي.. أصلُ إلى عمارة قديمة في واجهتها ملحمة وبقالة ومكوجي.. أضم أصبعيَّ ثم أُحلّقُ بهما على شاشة هاتفي.. أنقر نقرتين على باب العمارة الرمادي لكن تطبيق الخرائط لا يفتح لي.. يدفعني إلى الوراء؛ حيث أقف

كلمـا اقتربـت وكأن يـداً مـا تطـردني.. أرفـع نظـري إلـى الـدور الثـاني لكـن لا شـيء يظهـر إلا نافـذة مغلقـة وعليهـا روشـان خشـبي يحميهـا مـن الشـمس، التففـت حـول المنـزل لكـن التطبيـق يعانـدني ويعيـدني إلـى مـكاني مـرة أخـرى.. اسـتنجد النـاس الذيـن يسـيرون فـلا أجـد إلا أجسـاداً وجوههـا قـد محيـت.. صورهـم مخيفـة.. يسـيطرُ خـوفٌ صغير علـى قلبي مـن ملامحهـم الممسـوحة لكنني في ذات الوقـت أتمنـى أن أكـون أحدهـم، أن أسـير بينهـم مطمـوس العيـن والأنـف والفـم، أن أسـير هنـاك حتـى لـو مُسـخت كل أعضائـي، حتـى إن كان ثمـنُ ذلـك أن تُشَـل يـدي وقدمـي وأفقـدُ كل أشـيائي، أتذكَّـر كلمـا تجولـتُ مـع قوقـل في حـارتي القديمـة وأنـا أرى هـذه الأجسـاد الميتـة مسلسـلاً قديمـًا اسـمه « نـدم » يسـير بطـل المسلسـل الثـري في شـوارع قديمـة، يقـوده رجـل اسـتأجره ليـرى بـه الطريـق بعـد أن عميـت عينـاه، ينـادي بيـن النـاس والنـدم والحسـرة تنضـح مـن صوتـه: اصفعنـي وخـذ دينـاراً، وأنـا أقـول لهـؤلاء: اصفعنـي وخـذ حيـاتي، اصفعنـي وخـذ وجهـي وكيـاني لكـن ابـدل مكانـك بمـكاني، عـدتُ إلـى خانـة البحـث وكتبـت فيهـا دمشـق ابـن عسـاكر فقفـز المؤشـر مـن مكانـه قفـزة صغيـرة وهبـط في شـارع فرعـي، نقـرتُ علـى نجمـة صفـراء وضعتهـا هنـاك فانتقلـت فـوراً أمـام بـاب بيـت دمشـقي قديـم؛ فانسـابت عينـي دون أن آمرهـا وتمـردت علـى كيـاني.

****

أزعجني قـرعُ الجـرس المسـتمر ونقـر أصابـع علـى بـاب بيتـي، آذت أشـعة الشـمس التـي مـلأت الغرفـة عينـي.. أجاهـد كـي أفتحهمـا بصعوبـة، نهضـت ألعـنَ همجيـةَ يمـان.. قبـل أن أغـادر غرفتـي لمحـت علـى الطاولـة منديـلاً.

- استمتعت كثيرًا، بانتظار اتصالك مرة أخرى.

رسـمت (الآنسـة) التـي كانـت نائمـة بجانبـي قبلـة بشـفتيها وكتبـت رقـم هاتفهـا تحتهـا، كـورت المنديـل وألقيتـهُ في سـلة القمامـة بجانبـي.. لملمـتُ ملابسـي المبعثـرة علـى أرض الغرفـة ولبسـتها ويمـان البغيـض يوجـع بإصبعـه المتيـن مفتـاح جرسـي، نزلـت الـدرج الدائـري.. قبلـتُ الفتـاة التـي كانـت تنتظـرني داخـل إطارهـا ودغدغـتُ بطـن غزالـي.. رفعـت إصبعـي الأوسـط قبـل أن أفتـح لـه البـاب، وأدرت لـه ظهـري حتـى قبـل أن أرى وجهـه.. تسـللت إلـى أنفـي رائحـة القهـوة التـي يحملهـا بيديـه، وإلـى أذني صـوت صلافـة ضحكاتـه.

سـريعـًا رشـقتُ جسـدي بمـاء سـاخن، وعـدتُ إلـى الصالـة لا أرتـدي إلا منشـفتي ويتقاطـر المـاء مـن شـعري وشـعر صـدري، اختطفـت مـن يـده فنجـان القهـوة:

- متى راح تترك العادة العفنة هاذي؟
- لما تعطيني مفتاح البيت اتركها.
- عندك مفتاح البوابة.
- وأنتظرك بغرفة السايق؟؟

رفعتُ له إصبعي الوسطى مرة أخرى وأنا أرتشف من فنجان القهوة، يمان الذي تشابه اسمه باسمي يكاد يكون صديقي الوحيد منذ أن وطئت قدماي هذه المدينة، تمتلئ حياتي بصاحبي اللدود هذا، نعمل في مستشفى واحد ونتدرب في صالة رياضية واحدة وفي أغلب سهراتي يرافقني وأرافقه.. نمارس الحياة معًا واللعب معًا والفجور معا، ولا أدري لِمَ أستجب كثيرًا لإلحاحه علي كي نقطع شوارع المدينة حتى نجد ملهى أو مقهى لنُكرر به عاداتنا، نشربُ القهوة، نعجب بفتاتين ولاحقًا تهتز أسرتنا بهما، رغم ذلك إلا أني أشعرُ أن الحياة مختنقة هنا.. ضجرة.. رتيبة حتى في ملذاتها.. لذا أهرب إليه ويهرب إلي، وكم كنتُ أسعد إذا تركني لأختلي ببعض كتبي، حين يراني أقرأ يضحك ويهز رأسهُ بسخرية مني، يقول المثقفون لا ينتهكون ما أنتهكه، أن كل ما أقرأه وكأنه يصُبُّ في شبقي وعهري، رآني مرة أغوص في كتاب فقال ضاحكًا: كتاب أسرارُ كنان في نكاح سلمى وأفنان، عرفتهُ منذ أن دخلت أول

مرة على مركز العلاج الطبيعي في المستشفى، وجدته يقف بجانب الباب يحمل ابتسامة دافئة أذابت وحشة الغربة التي كانت تُقشْعِرُ بدني، لم يكن أصلعاً يومها وكان يتندرُ بخشونة شعري، يقول لم يرَ قبلي شامياً أجعد.. صار اليوم يحسدني حين انحسر شعره عن مقدمة رأسه ثم منتصفه حتى صار يضطر إلى حلاقة ما بقي. رغم أنه يكبرني بسنوات إلا أنني وجدته ووجدني، ما يزعجني بيمان أنه صريح جداً.. بائن جدا.. كالشمس في وضح النهار ويريدني أن أكون مضيئاً مثله، لكنني لا أتخلى عن ظُلمتي، مافي جعبتي غير قابل للنشر، مستودع حياتي السابقة مغلق ومن غير إشعار لاحق، أكتم فيه خزيي وعاري الذي أخفيته سنين طويلة، يناديني يمان fucking frack كلما اصطدم بصلابة جدراني.

- متى ناوي تخلص إجازتك وترجع عالشغل؟
- داهمني بسؤاله وانتشلني من أفكاري.. نظرت إليه بشرود نائمٍ غادر للتو أحد أحلامه، أعاد سؤاله مرة أخرى حين رأى بلاهة في وجهي.
- فيكم الخير يمان لسا أنا مطول.
- حرام عليك.. كل المرضى يسألو عنك.. عم إسماعيل

ما يرضى يعالجو أحد غيرك، وكمان غير المرضى لينا صدّعت راسي.

انقبض صدري حين نطق باسمها، غمز بخبثٍ عنى به أن يشعل توتُّري ويراه ونجح في ذلك، أشعلتُ سيجارة أخرى ونفختُ دخانها في وجهه متقصداً، أسبوع آخر وسأعود لأراها كل يوم أمامي، تنظر إليّ بعينين حالمتين أو مشفقتين كلما التقت عينانا، قبل أشهر جاءت لتوقظ بداخلي إحساس قديم ظننت أنه مات، لم أعتد على الهرب إلا من ذكرياتي، لم أعتد أن أرى فتاةً أتلعثمُ أمامها، في كل مرةٍ أراها يهتز شيء ما بداخلي، فقط لينا استطاعت أن توقظ مارداً حزيناً ينامُ بي ليعيث خراباً في صدري، ماردٌ أزرق خرج من سباته وفرد يديه يبعثر أشيائي ويسطو على خيالاتي.. أحالت جرأتي خوفاً ومجوني حياء؛ فعدت بين يديها كطفل صغير يقف أمام أستاذة المدرسة التي يحبها وتتورد خداه أمام سطوة جمالها.

أمسكتُ هاتفي بعد أن غادر يمان غيرَ مأسوفٍ عليه، فتحت رسائلها التي لم أجرؤ على الرد عليها بيد متوترة.. لماذا تخيفني هذه الفتاة الصغيرة.. هذه المرأة مثلها مثل كل النساء، جبروت رغم ضعفها.. رغم دقة جسمها... قوتها في دفء عينيها.. في عذوبة مبسمها.. في بحة صوتها.

- حبيت أطمن عنك.. إن شا الله تكون بخير.
- كيفك كنان.. المرضى مشتاقيلك.
- كل يوم يجي احد يسأل عنك، متى ناوي ترجع؟

مشاعري مبعثرة، أفرح برسائلها التي يتخللها شوق فاضح إلي أم أحزن؟؟ لا أدري، ذكرياتي تشتعل، جذوة من نار قديمة تحت رماد عواطفي المحترقة أوقدت مشاعر ميتة بداخلي، نار خمدت قبل خمسة عشر عاماً، ناراً كادت فيما مضى أن تحرقني وتنثر رمادي في مهب الرياح لولا أن استطعت بمعجزة أن أطفئها، سكبت عليها دموعاً من خزان روحي، انطفأت النار، وخرجت منتصراً من معركتي معها، لكنني خرجت خاوياً بلا روح، حتى المنتصرون في المعارك منهزمون، تتساقط أشلاؤهم وهم يلوحون بعلامة النصر لبقاياهم. نصر كالعلقم بطعم هزيمة سحقتني.

أغلقت هاتفي.. هززت رأسي بعنف، وأسقطت لينا التي تعربشت في خلاياي.

****

هناك..

في فجر أحد أيام كانون استيقظتُ فزعًا، كنت حينها أوشكُ على إنهاء سنتي العاشرة من عمري وأستقبل التي تليها ولا يختلف حال بؤسها عن أختها، وجدتُ سروالي مبللاً فهرعتُ الهثُ إلى الحمام لأواري هذه المصيبة التي حلّتْ بي، لن يرحمني أخوتي إن عرفوا أني بلتُ على نفسي.. أحمد بالذات سيهزأ بي إلى آخر يومٍ في حياتي، وسيذيع خبري في كل أرجاء قريتنا وربما القرى التي تجاورنا، كانت السماء ترعد وتهزُّ سقف بيتنا المهترئ؛ وكأنه ورقة كتاب قديم وكنت أهتز وأنتفض برداً وخوفًا.. خلعتُ ملابسي وأنا أسترق النظر من ثقب باب الحمام إلى الخارج مخافة أن يكون أحدهم قد انتبه إلى فراشي، لاحظتُ أن ملابسي ليست مبللة تمامًا، رائحة الشيء الذي كنت أظنه بولاً مختلفة! قربت سروالي من أنفي أكثر.. شممتُ شيئًا غريبًا لا أعرف بم أصفه؟ كنت أرتجف برداً وأنا أسكب الماء المتجمد على جسدي، لاحظت ولأول مرة أني مختلف جداً، كنت لا أزال طفلاً صغيراً يلهو ولم أصدق أني كبرت بسرعة هكذا.. أن طفولتي اختطفت من قِبَلِ فحولتي قبل أن أعيشها، لا زالت أعباثها تراودني.. لا زلت أحتاج إلى حضن أمي.. إلى دميتي القماشية التي تصنعها لي من خيوط ملابسنا المهترئة،

والتي لم تعد تنفع إلا خرَقاً.. إلى أن انزلقَ على طبطاب أرضية بيتنا مع إخوتي حين نظفها بالماء والصابون لكن كل ذلك تبخر في الهواء بعد أن بلغت، ولا أعرف كيف علم أبي بأمري مع أني كنت حريصاً على إخفاء هذه الكارثة التي كانت حينها تشعرني بأني ارتكبتُ جريمة كبرى، صار يرمقني بنظراته الحارقة كلما رآني ألعب مع إخوتي.. في يوم حار كنا نلعبُ (الغميضة).. كنتُ عارياً إلا من شورت قصير، أغمض عيني وأسندُ رأسي على جدار بيتنا وأعُد تصاعدياً من الواحد، بينما كان إخوتي يختبئون بين زهور عباد الشمس وخلف شجرات التين.. حين وصلتُ بالعد إلى الرقم سبعة فوجئتُ بوالدي بجانبي يرَفَعُ ذراعي، ويبادلُ نظره بين وجهي وبين أحراش تسللت لتغزو إبطي بينما حيائي كاد أن يقتلني.. ذبتُ بين يديه خجلاً لكنه لم يُنزِل يدي حتى صار لون وجهي يُشبه لون الجوري الذي انكفأ على غصنه بجانبي، يلومني أبي على انغماسي بطفولتي بعد أن خطّ الشعر قلمهُ فوقَ شفاهي وتحت ذراعي، وأنا أريد أن ألعب.. أن أمسك قرص الشمس الذي يتوارى خلف أشجار الزيتون وأضعه بقبضتي، أن أتدلّى من أرجوحةٍ معلقةٍ بقوس القمر وأمرجح عليها أحلامي، لكن منذ ذلك اليوم صرتُ أتجنب اللعب بوجوده.. غدراً اغتيلت سنين طفولتي، جريمة بدأها جسدي وأجهزَ عليّ بها أبي.

ازددتُ حينهـا تعلقــاً بأمـي.. بالنبـع الـذي اغـترف منـه الحـب والعاطفـة.. هـي مهـدي الـذي اسـتلقي عليـه.. هـي طفولتـي مهمـا كبَـرَتْ وأنـا طفلهـا مهمـا كبِـرْتْ. يدهـا التـي تسـقط علـى شـعر رأسـي الأجعـد. قُبَلَهـا التـي تـروي ظمـأي.. حضنهـا الـذي ألقـي عليـه رأسـي المحـروم.

حيـن رأيـتُ في سـني المبكـرة هـذه صرامـة أبـي، قسـوة مختارنـا علـي وعبـثُ أحمـد بشـخصيتي ازددتُ تعلقـا بالنسـاء، كل النسـاء أرقُّ علـى جسـدي وعلـى عاطفتـي وكيـاني.

ألعـب أيضًـا مـع سـهى لكـن لعبـاً مـن نـوع آخـر.. كل رجـل يحتـاج إلـى امرأتيـن في حياتـه، واحـدة ليصغـر معهـا وأخـرى ليكـبر، سـهى اللذيـذة كقطعـة حلـوى جـاد بهـا القـدر علـى رجولتـي المبكـرة، كعربـون صلـح دافـئ وهبتـهُ لـي سـنيني تعويضـاً عن أيـام لعبـي الضائـع، جـدار القصـر الخلفـي كان يتواطـئ معنـا ويخبئنـا وراءه، تمـوجُ يـدي علـى أنحـاء جسـدها الممتلـئ الـذي تفجـر مبكـراً هـو الآخـر، تقضـي السـاعات وطرهـا بمتابعـة مغازلتنـا، تنضـح رجولتـي بمـاء الرغبـة المكبوتـة في قريـة اتشـحت مـلـلاً، دقـات قلبينـا المتسـارعة خوفـاً وإثـارة

معـاً، قبلاتنا السـاخنة قليلة الخبرة ولعابنا الـذي ينضح من شفاهنا، تكورها الملتهب، نضوجي الصاخب، وليلٌ يغطينا بلحاف الظلام.

كبرنا معـاً يواسي أحدنا الآخر، تُنْصِبُ أمامي سداً منيعـاً إذا بلغ السيل الزبى لتمنع عرضها من مجتمع لا يرحم. تلمسني بشهوة صارخة.. وتلصق شفتاها على جسدي ورجولتي ثم تنتفض وتتركني أسيراً لرغبة متوحشة.

حانت سنة التخرج من الثانوية، البكالوريا كما يسمونها أهم سنة في عمرنا الدراسي، أهل القرية كلهم وكأنهم مقبلونَ على حرب ضروس، سنة الأحلام لهؤلاء الذين أهلكهم الجوع والعوز، ينصبون أحلامهم على ظهور أبنائهم، يأملون أن يتخرجوا بمجموع يؤهلهم لدراسة الطب أو الهندسة أو أي تخصص يستطيعون خلاله حلبهُم فيما بعد كما يعصرون ضراع أبقارهم، في قريتنا يتناثر الأطفال في الشوارع، تبيض المرأة هنا كل عام رغم شح لحمها، قرأتُ ذات كتاب أنه كلما زادت ثقافة مجتمع ما كلما قل عدد أبنائه.. المعادلات هنا مقلوبة.. يريدون أبناء يتعلمون ويعملون وينفقون، المنطق يتأوه في زاوية الجهل والتخلف. كل ما ابتعدت القرية عن المدينة، كل مازاد شحها، وكل مازاد شحها زاد إصرار أهلها على تعليم أبنائها.

نجحت رغم إهمالي، لم يبدُ على وجه أبي أي ردة فرح حين قبلتُ يده ووضعت بين يديه شهادتي لكنَّ زغاريد أمي لم تتوقف رغم انخفاض صوتها، أخفقت سهى هذا العام أيضًا ولا صوت لزغاريد قصرهم.. تداري أم أحمد صوتها كلما زغردت، حتى الفرح تجبرنا ظروفنا على كتمانه، على هدهدته وترويضه، على خنقه وربما قتله.

ارتسمت أمام عيني صورة الجامعة التي سأغادر إليها.. مدرجاتها وحدائقها.. ساحاتها الواسعة.. طلبتها الذين يتناثرون على سلالمها.. صورة المدينة التي أحلم بها، لا عالم لي غير هذه القرية والقرية المجاورة التي بها مدرستي وأنا الآن على شفا مدينة كتلك التي أقرأ عنها.. مدينة بها بشر من كل الألوان ليس كقريتي التي صبغت جميع ساكنيها بلونٍ واحد وشكل واحد حتى كدنا أن نكون كدمى صُنعت بمصنعٍ واحد.. في المدينة حدائق ومروج وعمارات متطاولة على بعضها.. وأسواق ومطاعم وصالات رياضة، في المدينة تاريخ ومتاحف وعبقٌ من الماضي ليس كقريتنا التي لا تاريخ لها ولا جغرافيا، كقطعة حشائش منسية وقعت سهواً على الخارطة، وضّبتُ شراع سفينتي.. حان وقت الإبحار خارج قريتي، شهادتي مطرقة حطمت كل الأغلال التي كانت تقيد رحيلي لكن أي رحيل؟؟

لا مال يكفي لإرسالي إلى دمشق.. صدمني قرار والدي ببقائي في قريتنا، جارنا أبو صلاح يحتاج إلى صبي يعمل معه في ورشته وأبي يريدني أن أؤجل دراستي عاماً إذا لم يكن أكثر حسب ظروف بؤسنا، كان ذلك أولَ حُزنٍ حقيقي يزورُ قلبي ليكون حزني الخاص الذي لا يعني أحداً غيري، أمي.. أحمد.. حمزة وحتى علي.. دون أن ينبسوا بحرف ينظرون إلي كما ينظرون إلى رجلٍ حكم عليه بالأعمال الشاقة بعد أن كان يهيئ نفسه للهرب خارج أسوار الضجر، أمي الوحيدة التي كانت تبكي وتحاول مداراة دموعها، بعد أيام من بكاءٍ صامت بدأت تخرج فيض مشاعرها المكبوتة على قرار أبي، صارت تتذمرُ علينا لتجمعنا على الطعام.. تتذمرُ حين تتسخُ ملابسنا وهي التي لم تكن تبدي ضيقاً على أي شيء نفعله.. تتذمرُ حين يعلو صوت لعبنا وحين نتقاتل أنا وأحمد تجرنا بعنف بعيداً عن بعضنا ثم تبكي بعد ذلك كله، كلما وقع بصري عليها أراها تنظرني بعيون محترقة ثم تزيحُ عينها عني إذا انتبهتُ لها.. أذهبُ إلى ورشة أبو صلاح في الصباح وأعود بعد مغيب الشمس متسخ الروح والقلب والجسد، تفوح من ثيابي رائحة شحوم السيارات وعرقي، ومن روحي رائحة خيبتي وألمي، تستقبلني أمي عند باب غرفتنا بنظرة أسى تملأ عينيها وتداري دمعة وقعت على خدها

بطرف وشاحها، تنزعُ عني قميصي نزعـاً يكاد يشقّه.. تزيل بيدها شحوماً وهموماً علقت على بؤس وجهي، وتضع أمامي فتاتاً من ما بقي من عشاء أبي وأخوتي.. تتظاهر أنها تأكل معي بمرارة أشعرُ بها في حلقي.. بعد أن تنام ألتقي بسهى لأشكو لها بثي وحزني.. تعانقني وتخبرني أن ذلك قد يكون خيراً لي، وأنها ستسافر معي العام القادم إلى دمشق حين تتخرج ثم تهمس بأذني أننا سنسكن في البيت الذي يملكونه في دمشق سوياً.

بعد مرور شهرٍ على قرار منعي من السفر استيقظت فجراً أنا وأخوتي على صوت صراخ نسمعه لأول مرة.. صوت امرأة تولول.. لم أميز صوتها لغرابته.. أمي هذا الكيان الآتي من رحم الهدوء تصرخ... انتفضت أمي لأول مرة في حياتها، أنا وأخوتي نتناوب على سرقة مشاهد من خرم بابنا، أمي تتحرك كمن لدغته أفعى وأبي يرمقها بنظرات قاسية ولا يتكلم، يرتدي ملابسه ليخرج إلى الصلاة بصمت مقلق.. تتحدث عن علاماتي التي قد تدخلني أفضل التخصصات في الجامعة.. تشير بيديها بعصبية وقهر ويتناثر بصاقها من فمها كلما تكلمت بعبارة شجب وتنديد بقرار أبي.. ما هو هذا الكيان الذي يتلبس جسد أمي؟.. أمي التي لم أرها تضع في يوم عينيها بعيني أبي.. يتطاير الزبد من شدقيها أمامه اليوم..

أصابتني قشعريرة خلخلت عظام جسدي.. تخيلت أن يقوم من مكانه ويصفعها أو يمسك عقاله ويلسع به جسدها كما يفعلُ معنا لكنه اكتفى بتوجيه سهام عينيه إليها.

الأم هي سور منيع متصدع، سور كأسوار مدينة قديمة، قوي رغم قدمه، عنيد أمام الغزاة رغم ضعفه، هي وطن يلوذ به أبناؤها، هي حديقة محروسة تتنزه بوجهها.. أصيبت أم أحد أقراني بالسرطان.. رأيت أبي وكل رجالات القرية قلقون عليها.. قلقون على أبنائها.. شُغِلَتْ عقولهم بها وبالذراري الذين يرتجون شفاءها.. في مضافة القرية أسمعهم يتحدثون عنها.. يجمع لها المختار مالا لا أدري سيصل إليها أم سينام نصفه في خزينته، يشارك بالعطاء أبي.. سألته: لم نقلق كثيرًا على شخص لا يضرنا ولا ينفعنا.. لم نحمل ألمـًا فوق آلامنا؟ ونعطي رغم حاجتنا؟.. نظر إليّ وفي عينه وميض دمعة لا تفارق مقلتها.. قال إن كل أم هي أم الناس جميعًا، إذا فقد أحدهم أمه فكأن الناس جميعًا فقدوا أمهاتهم، إذا اختفت أم من حياة طفل واحد تهتزُّ أركان قرية ومدينة وبلد، قرأت في عينيه ألمـًا وهو الذي ولد يتيمـًا في العراق، نطفة يتيمة قبل ولادته ورضيع وحيدٌ اختطف السلُّ أنفاس أمه قبل أن يكمل عامه الأول.. حمله عمه وجاء به إلى قريتنا مع بقية أبنائه، رباه سبعة رجال.. عمُّه وأبناؤه قبل أن

يعود أبناء عمه إلى العراق جميعًا، ويبقى أبي مع رجلٍ عاجز مات حين كان والدي في الثالثة عشر من عمره ليخوض غمار الحياة وحده.. عمل حمالاً ثم أجيراً ثم سائقاً ثم بائع ماء في بلد ترفد إلى بيوته أنهار دمشق كلها.. تزوج أمي التي ترملت من زوجها السابق بعد سنة من زواجها، وهي بعمر صغار الورد. مات زوجها بالحرب التي صفّقَ أهل القرية على خيبة انتصارهم بها.

لدهشتي رضخ أبي، أعلم بأنه استدان من كل من يعرف ليرتاح من إلحاحِ أمي وعصبيتها المفاجئة أو ليُريح نداءً خفياً في قعرِ ضميره، خلعتُ عنّي رداء صبي الميكانيكي الذي لم أعتده بعد.. تنفست روحي التي كادت أن تختنقَ بقرار أبي.. لملمت خرقي.. حلقت شعري وذقني لأول مرة لدى حلاق القرية الذي راح يؤلف قصصاً عن دمشق التي زارها مرة واحدة في حياته قبل عشرين سنة.. عن محل البوظة الشهير في سوق الحميدية.. عن الجامع الأموي ومقهى النوفرة في حارات الشام القديمة.. تفاجأتُ حين وجدتها لاحقاً كما وصف وكأن عينه كانت تجول هناك وهو يحدثني، دمشق القديمة تأبى ألا أن تكون كما هي، عصيّةٌ على يد من يريد أن يشوهها، تاريخها هو حاضرها وحاضرها هو مستقبلها، دمشق كقلب أمي لا يقدر غزو الفقر على تغييره ولا نهشات الألم على

تمزيق جماله، انقضت إجازة الصيف وحان وقت سفري، ألتفُّ بأمي وأخوتي أعانقهم ويعانقونني، أحمد يحذرني من فتيات دمشق وترمقه أمي بغضب.. ترقبني سهى من نافذتها باكية ثم صارت ترفض ملاقاتي، وتتجاهل نقرات الحجر على نافذتها، شمشمتني أمي، وهي تضع بيدي صرة صغيرة أودعتها طعاماً صنعته بيدها وأدعية تحومُ حولي.

وجدت أبي ينتظرني عند بوابة الفيلا مع الوزير.. في عينيه وعيني الوزير نظرة صرامة واحدة.. صرامة أبي تنضح بحب مستتر خلفها ليس كفراغ مقلة صاحبه، بجانبهم باص صغير أبيض سينقلني إلى عالمي الجديد أنا وثلاثة من أبناء القرية الذاهبين لإكمال دراستهم أيضًا، وسبعة رجال آخرين لديهم أعمال سريعة في العاصمة، سخرت من غباء السائق الذي فتح حقيبة السيارة حين رآني أحمل صرة صغيرة من ملابسي أستطيع أن أتوسدها في طريقي إلى دمشق. ما فتحه لأجلي ولا لأجل أبي، خجلتُ من رداءة ملابسي حين قارنتها بملابس أقراني، وفكرت كيف سيكون حالي بين شباب المدينة الزاهين بنضارة دمشقهم.

- بوس إيد عمك.

انحنيتُ مغرمـًا لأقبـل يـداً أكرهُهـا وتكرهنـي.. أوصـاني بصرامـة عسـكري بـأن لا أُضيـع تعـب أبـي بـي ثـم أخـرج يـده مـن جيبـه، ومـد يـده إلـي بمبلـغ مـن المـال، نظـرت إليـه بدهشـة.. احمـرت وجنتـاي..

- خود من عمك يا ابني.

نظـرتُ إلـى الفيـلا التـي يختبـئ بداخلهـا كوخنـا المسـكين.. يتـوارى خجـلاً خلـف شـجيراتها، صممـتُ بداخلـي أن أغيـر حالنـا وأنـا أرقـب وجـه أمـي التـي كانـت تلـوح لـي مـن بعيـد قبـل أن تنهـارُ علـى كتـف حمـزة حيـن تحركـت سـيارتي.

****

هنا..

لـم أسـتطع النـوم.. خـلال شـهري إجـازتي كنـت أنـام قريـر العيـن ترافقني فتـاة مـا بـوح سـريري، لكـن ليس هـذه الليلـة.. أردتُ أن أكـون جاهـزاً لعملـي ففـارق النـوم مضجعـي، نهضـت مـن فراشـي حيـن سـمعت أذان الفجـر.

لا ادري لـم اهتممـت أكثـر مـن العـادة بهندامـي.. أخرجـت أفضـل مـا في خزانتي بعـد أن اغتسـلت.. أضعـتُ وقتـاً طويـلاً لأختـار مـا ألبس وكأننـي فتـاة سـتذهب لملاقـاة حبيبهـا.. قبلـت شـفتا فتـاتي الصغيـرة المعلقـة علـى جـدار الـدرج بشـغف.. ودغدغـتُ بطـن غزالـي الـذي يقفـز بمـرح، في مواقـف المستشـفى لمحتهـا، وهـي تنـزل مـن سـيارة أخيهـا تحمـل بحـرص (لابكوتهـا) الأبيـض، كمـلاك هبـط مـن السـماء بلونهـا الخمـري المسـكر.. أشـحتُ ببصـري عنهـا حيـن أشـارت لـي تحيينـي، خشـيت عليهـا مـن ألسـنة زملائـي الذيـن التفـوا حولـي يمازحوننـي، تمردغنـي عاطفتـي نحوهـا.. تنضـح في داخلـي سـديماً أنزلـق بـه نحـو هاويتـي.. أحاربهـا أحاربهـا فتنتصـر علـي.. لا أقـوى علـى تجاهـل مـا أكنـه لهـا.. أنـا الـذي نـذرت ألا أقـع في شـركِ أحـد، هـا

أنـا أقـع في شـركِ عينيهـا.. أخشـى علـى نفسـي منهـا.. بـل أخشـى عليهـا منــي.. لا أدري.

ارتسـمت علـى شـفتيها ابتسـامة كضـوء الشـمس.. وجدتهـا تقـف عنـد مكتـب الاسـتقبال تحتضـن ملفـاً طبيـاً كبيـراً أخفـى كل جذعهـا، تمنيـت أن أكـون هـذا الملـف اللئيـم، انسـدلت لفائـف شـعرها البنـي مـن حجابهـا الأبيـض.. غطـت خصلاتهـا جبينهـا البلـوري الصغيـر وعانقـت رمـش عينهـا الأيسـر، جسـدها النحيـل يلتـف حولـي.. عينهـا الناعسـة تفتـك بـي.. كان واضحـاً أنهـا تقـف هنـاك منـذ أن وصلـت في انتظـار قدومـي، ناولتنـي كـوب قهـوة كان علـى طاولـة الاسـتقبال.

يااا أهلاً وسهلاً، الحمد لله على سلامتك، من طول الغيبات...

صوتهـا مبحـوح.. كأنـه خريـر مـاء نبـع أمـازوني.. كتغريـد بلبـلٍ ينـادي برقـة علـى أنثـاه.. كنـور قمـر يتهـادى علـى سـطح قلبـي.. (يـا) التـي أطالتهـا خرجـت متحشـرجة قبـل أن يتـدارك باقـي ترحيبهـا لملمـة بحتهـا، احتسـيتُ رشـفة مـن كـوب القهـوة وأنـا أتابـع بعينـي شـفتيها.. ارتفعـت دقـات قلبـي.. لمعانهـا يعمـي.. ابتسـامتها شـقاء.. تقوسـها سـهام تقتلنـي.

نهـرتُ عـن لواعجهـا نفسـي.. أخـذتُ منهـا دفتـر المواعيـد بعصبيـة

ظاهرة.. تتضاربُ مشاعري وتتناقض واستميت حتى أظهر وقاراً كاذبـًا فيخونني ارتجاف يدي.. قلبت صفحات الدفتر وأنا لا أعي ما به ثم أعدته لها.. ابتسمتُ برزانة كاذبة.. سألتها عن العمل وعن المرضى وعن يمان وعن كل شيء خطر برأسي.. ضحكت بنغمةٍ أسكرتني.. قالت بقي أن تسألني عن أمي وأخوتي.. ضحكتُ والخجلُ يقطر مني.. أخبرتني أن عم إسماعيل عرف بقدومي، وأنها وجدته ينتظر عند باب العيادة.

أردت أن أتخلص من حرجي وضعفي ولا شيء يقضي على هواجسي مثل الضحك، أغلقتُ الدفتر ووضعته على طاولة الاستقبال، شمرت أكمام قميصي وأنا أنظر إليها نظرة متوحشة مضحكة.. قلت بنبرة شريرة مصطنعة:

- يلله نروح نسلخ هادي الضحية.

اهتز جسمها النحيل.. اصطنعت تشمير أكمامها هي الأخرى.. ضحكت وتبعتني.

العم إسماعيل مريضي منذ سنة.. في أول لقاء كان يجلس على كرسيّ مدولب يدفعه ابنه عبد الرحمن.. يعلو وجهه سقمًا ووجعًا.. .. مددتُ يدي حينها لأسلم عليه فمدَّ لي اليسرى،

رفضتُ أن آخذها وأصررتُ أن يسلم علي بيمناه.. صرخ بي.. ألا ترى أنها مشلولة.. قلت له (وإن يكن).. غضب وصرخ بولده ليخرجه، وهو يلعن ويتذمر.. بعد يومين عادوا مرة أخرى.. ابتسمت له حين دخل فرمقني بنظرةِ غضبٍ ورضا في وقت واحد.. مددت يدي فرفع يمناه بأختها وسلم علي بأصابع مغلقة.. كان أجمل مرضاي وأحلاهم.. يدخل مقطباً.. يراني فيبستم.. قصير وزاده احدداب ظهره قُصْراً.. قبل أشهر قلت له إني لن أستقبله في الزيارة القادمة إلا إذا جاءني ماشياً ولو بعكاز يسندُه.. خرج جميع من في القسم حين سمعوا صوتي وأنا أهتف.. الله الله على جمالك يا عم إسماعيل.. صفقوا له وفرحوا بمشيته المتهادية.. كاد أن يقع من فرط انفعاله وأخذته عبرة لم يستطع مداراتها.

لمّحَ لي كثيرًا عن ابنته التي بلغت مبلغ النساء.. وأنا أصرحُ في المقابل أني لست مستعداً للزواج.. لم ينفُر مني حين كنت أحدثه متقصداً عن علاقاتي.. يدعو لي الله أن يهديني.. يقول لي أنت أحلى من أن تكون عاصياً يا كنان.. ذات جلسة علاج وأنا أجلس بجانبه كنت أمرّن أصابع يده التي جعدتها سنينه الستين ولوتها جلطة هربت لتستقر في دماغه.. أتحدّثُ عن كتاب وجدني أقرأه وسألني عنه حين دخل.. قاطع حديثي بمسحة من يسراه على رأسي.. قال مقاطعاً استطرادي: ماذا فعلت بك الدنيا يا ولدي؟؟

تسمرت عيناي.. جمُدتْ يدي.. فارق اللون وجنتي ثم بكيت.. احتضنني بنصف جسد وبكى معي.. كلما قال كلمة نضحت دموعي.. لا تحزن يا ولدي.. أبكي.. لا تبكي يا ولدي.. أنشُجْ.. الله يبرد قلبك يابني، رأيت فيه أبـاً.. ووجد بي ولداً.. يبكي لبكاءٍ لا يعرف له سبباً فقط ليحمل نصف ألمي..

هؤلاء الستينيون لديهم سر لا أعرف ما هو، يخترقون بأبصارهم مكامن معتمة في نفسي، أُحبهم رغم تجهمُ وجوههم، رغم قسوةٍ غزت ملامحهُم كما يشقق ماء البحر صخور شطآنه، مثل أبي، مثل عم إسماعيل بمشيته المنجلية المقوسة وقلبهُ المتعب بثقل السنين.

انقضى اليوم كله وأنا أعمل، شارفت الشمس أن تغوص في بحر جدة حين انتهيت من آخر مريض في العيادة، لينا كانت تساعدني إلا حينما تناديها الطبيبة المشرفة على قسم النساء، خرجت من غرفة العلاج الأخيرة منهكاً لأجدها أمامي لوحدها.. تنكب على كتاب لها خلف طاولة الاستقبال.. تعضّ شفتها السفلى حين تفكر فتتركُ أثراً موجعاً على قلبي.. اندهشتُ لوجودها.. ساعات العمل انتهت قبل وقت طويل..

انتبهتْ لي أُبحلقُ بها.. ابتسمتْ تلك الابتسامة التي تصيبني ببرودة في ظهري، تسمرتُ في مكاني أنظر إليها دون وعي، هناك شبه مستحيل بينها وبين تلك اليمامة التي تعشعش في ذاكرتي، طولها الذي يبلغ تحت كتفي، وجهها الصغير الناضج كتفاحة شهية.. وجنتاها، ضحكتها، اتساع عينها، عضةُ شفتها الحارقة حتى ترحيبها بكلمة (مرحبَ) التي اغتيلت ألفها وأصبحت فتحة فقط، كأن إحداهن انشقت من الأخرى.. توردت وجنتاها فصارت كأنها مرمر أسباني، أخبرتني بخجل أنها بقيت تنتظرني حتى تسألني عن تقنيات علاجية أطبقها لم تجدها في الكتب، وأنا ساهم في عينيها عن كلماتها، كرجلٍ يرى الشمس لأول مرة.. انتفضتُ حين تكلمت.. ذاكرتي تأرجحني بين ماض قديم هدّ أركاني وبين حاضر يوتر خلاياي. حتى نغمات صوتها أثارت عواصف قلبي.

لم أستطع أن أجيبها.. لم أستطع أن أتكلم.. هربت الأحرف مني.. ضاق صدري وانعقد لساني، حملقتُ بها ودموعي تكاد تفر من محجري.. هرب الخجل من خديها وسكَنَ على قسماتها قلقاً وخوفاً.. أرخت رأسها وهي تخرج من أمامي.. حانت منها التفاتة إلى الخلف؛ فرأتني أُقاتلُ بؤسي وذهولي ثم اختفت خلف أحزاني.

****

هناك..

انقضت سنتي الأولى في الجامعة.. كان كل شيء يسير وفق خطتي التي وضعتها في رأسي... بالمال الذي أعطاني إياه أبي، والذي قبّلتُ لأجله يد الوزير استأجرتُ غرفة صغيرة في حي كفرسوسة لثلاثة أشهر وفيما تبقى لي من أجرتي لدى أبو صلاح الميكانيكي دبرت أمر طعامي لشهر واحد فقط ثم نفد كل ما كان معي، أجبرتني ظروفي إلى ترتيب وقتي لأعتمد على نفسي، بعد ذلك مررت بشهرين أستجدي اللقمة، أنام جائعًا.. أستيقظ جائعًا وأذهبُ إلى كليتي جائعًا، أهربُ من كافتيريا الجامعة حتى لا يسيلُ لعابي أمام روائح الشطائر الشهية المنبعثة من هناك، أرغمتُ نفسي يومًا على أكل خبزٍ تعفَّنت أطرافه وتلونت بلونٍ أخضر بعد أن أطفأت النور حتى لا تعافهُ نفسي.. لو كان الفقر رجلاً لقتلته.. بل لسلخته حيًا، هذا الرجل الذي يصنع البؤس في كل مكان على هذه الأرض.. رجل قوي يجعلك تنسى رجولتك.. مروءتك.. قيمك، تبيع نفسك للشيطان إن وعدك بالخلاص من فاقتك، اضطررتُ يومًا إلى سرقة خبزة تمر صغيرة من رجلٍ مسكين يبسُطُ على الرصيف بعد أن دغدغت رائحته أنفي حين تلوّت أمعائي الفارغة بداخلي، الفقرُ يهدم مجتمعاتنا ويلوثها، تنسلخُ منا قيمنا وتقسو

بـه قلوبنـا، مـررت لاحقـاً مـن أمـام دور الدعـارة.. وجـدتُ فتيـات كالـورد يقفـون علـى قارعـة الطريـق يبعـن أرواحهـن قبـل أجسـادهن المتعبـة.. يتصنعـن الإثـارة كمـا يتصنعـن مضـغ العلكـة بيـن أسـنانهن.. رأفـت بحالهـن وفي نفـس الوقت،قلـتُ لنفسـي لـمَ لا أسـتطيع أن أبيـعَ نصـف جسـدي مثلهـن ليقتـات النصـفُ الآخـر، تمنيـت لـو أملـك مـا استطيع ان انتشـلهن بـه مـن تلـك الهـوة التي رماهـن بهـا العـوز. قبـل أن أعمـل نـادلاً كنـت أتوسـل بائعـي عربـات الخضـار في حيِّنـا كـي أعمـل صبيـاً لديهـم لكنهـم كانـوا يرفضـون خدمـاتي، يقولـون لدينـا مصائـب تكفـي وهـم يشـيرون إلـى إجرائهـم الصغـار الذيـن ينهكونهـم.. كانـوا ينهرونـني بعكـس بائعـي الكتـب.. بائعـي الكتـب المرصوصـة علـى الأرصفـة كذلـك رفضـوني لكـن بابتسـامة عطـف تعلـو علـى أحزانهـم.. مـا رأيـت رفيقـاً للكتـب إلا كان سـهلاً حتـى برفضـه.. مؤنسـاً حتى بسكوته.

عملـت نـادلاً في أحـد مطاعـم الربـوة.. بعـد أن فقـدت الأمـل في دفـع عربـات الطعـام والـذرة المسـلوقة التـي تنتشـر حـول بيتـي.. كنـت حيـن أمـر بجانبهـا أُغطـي أنفـي حتـى أمنـع حواسـي مـن مـا لا قـدرة لـي علـى شـرائه ولا أضطـرُ إلـى سـرقته.. أكـواز الـذرة المسـلوقة رفاهيـةٌ بالنسـبة لـي.. الكـرز والمشـمش الـذي يرتـص علـى عربـات الفاكهـة لا يـراودني

حتى في أحلامي.. نزلت إلى موقف الباصات تحت جسر الرئيس.. خطوط طويلة من الميكروباصات الصغيرة.. رائحة الغبار والديزل والعرق.. طفل قذر يبيع عِلْكًا وآخر يحمل مناديل جيب صغيرة ويدور بها على الراكبين.. رجلٌ يشحذ وامرأة مسنة تحمل حفيدتها وتتسول بها.. شرطي مرور يجبي من كل باص عشاءه وعشاءُ أبنائه، ومع ذلك لا يظهر بحال أفضل من حال الشحاذين، وكلهم مشتركون ببؤس كتبه عليهم قدرُ الوطن، مغتربين كنا حتى ونحنُ في قعر دارنا، حتى الركاب يسيرون في الشام مطأطئي الرؤوس؛ وكأن حجراً صلداً يجثمُ فوق هاماتهم.. وقفتُ أمام خطوط الباصات الطويلة لا أعرف وجهتي.. تركتُ الأمر كعادتي للحظ كي يقودني، أغمضتُ عيني ودرت حول نفسي مرتين كما كنت أفعل حين ألعب مع حمزة وأحمد وأنا أؤشر أمامي.. وقعت يدي على باص الربوة فركبته.. استغربت كثيرًا حين قبلني صاحب أول مطعم أدخله.. نادى المسؤول عن النُدُل وأعطاني بنطالاً عوديًا وقميصًا أبيض، وقال غداً ستبدأ.. وافقَ أيضًا على أن يجعلني في المناوبة الليلية دون أن يعترض على شيء، كل ما طلبته شيئًا أدار نصف مسبحتهُ في يده وهزَّ رأسه موافقًا، إلى يومي هذا لا أعلم سر ذلك اليسر الخفي الذي يتم به توظيفي في كل وقت وحين.. كأن الجوع

عقد اتفاقـاً مـع البـؤس ألا يصيبني كلاهمـا في وقـت واحـد. دمشـق كريمـة رغـم ألمهـا، سـعيدة رغـم شـوكة تنخزُ خاصرتهـا.

كنـت أخـرجُ مـن الجامعـة بعـد الظهيـرة.. أركـضُ إلـى موقـف الميكروبـاص الـذي ينقلنـي إلـى مواقـف جسـر الرئيـس ثـم أركـب واحـداً آخر يرميني على بعـد كيلو مـن مطعمي لأركض مـن جديـد، أحمـل علـى ظهـري حقيبـة بهـا كتبـي وملابـس المطعـم.. وأحمـل فـوق قلبي تعبـاً يضنيني، أعمـلُ حتـى أكِـد.. أسـتقبل الزبائـن وأضـع الأطعمـة أمامهـم وأغسـل الصحـون إذا اقتضـى الأمـر ذلـك، وكل ذلـك يجـب أن أفعلـه وأنـا أبتسـم وينطـق وجهـي بِشْـراً رغـم أنـف تعبـي وإرهاقـي الـذي حُـرّمَ علينـا نحـن معشـر النُـدُل أن نُظْهـرُه.

عـدتُ يومـاً إلـى المنـزل منهـكاً، سـكاكينٌ تنهـش أسـفل ظهـري وتدميـه وجعـاً بعـد أن غسـلتُ مـا يقـارب مئتـي صحـن مـع ملاعقهـا وخمـر كؤوسـها، وضعـتُ مفتاحـي في ثقـب البـاب.. اسـتدار لكـن البـاب لـم يفتـح، حاولـت دفعـه ظنـاً منـي أنـه عالـق بشـيء مـا يعيقـه لكنـه لـم يسـتجب، هنـاك مزلاج صغير في الداخـل يسـتحيل أن يكـون مغلقـاً علـى مصراعـه إلا إن كان أحـد مـا قـد أقفلـه، بعـد ثـوانٍ سـمعت صـوت خطـوات قويـة تقتـرب ثـم فتـح لـي البـاب شـابٌ طويـل أبيـض،

أسمع من ورائه صوت قهقهةِ شبابٍ آخرين، بحلقتُ بعينه الزرقاء وهو ينظر لي شرزاً من أعلى إلى أسفل: أنت كنان. ؟ أجبته بهزة من رأسي وأنا لا أكاد أستطيع أن أبتلع الموقف، أخبرني بأنه ابن صاحب البيت وأنه سيخرجني لأنني لم أدفع مبلغ الإيجار، حاولتُ أن أخبرهُ أنه قد يكون التبس عليه الأمر وأنني دفعتُ مقدماً لشهرين قادمين وليس شهراً واحداً لكنه أسكتني قبل أن أنهي كلامي وأمرني أن أدخل لألملم صرة خرقي المتهالكة كما قال.. دخلت وقلت له بأدب أجبرتُ نفسي عليه رغم غيظي أن عليه أن يخرج، وأن هذا البيت لي طالما أنني دفعت إيجاره وعليه أن يتفاهم مع أبيه، ضحك وهو ينظر إلى رفاقه فأجابوا ضحكته بقهقهات سامجة ثم وقفوا وقفة رجل واحد، ثلاثة شباب يرتدون لباساً عسكرياً عرفت أنهم مجندون بالتجنيد الإجباري من منظر ملابسهم ورؤوسهم المحلوقة قَصْراً، كنتُ دائمًا أراهم يهرولون صفين متجاورين في شوارع دمشق يتقدمهم ضابط دنيء.. يصرخُ في وجوههم ويصفع بيدهُ من يشاء منهم على قفاه أو على مؤخرته إمعاناً في تذليلهم.. يشتمهم بأوصاف كان يقشعر لها بدني ويركلهم ببسطاره العسكري على ظهورهم.. كنتُ أشعر تجاههم بشفقة وحزن... رَمَلَاً يا ابن ال قـ---، نزِّل عينك يا أخو الشـ----، ينال

من أعز المخلوقات لديهم.. أمهاتهم وأخواتهم.. وهم لا يملكون إلا السمع والطاعة والخذلان.. حين التفوا حولي تخيلتهم، وهم مذلولون مهانون تحت بصقات ضابطهم فابتسمت رغماً عني.. استفز ضحكي هذا الشقي الذي كانوا ينادونه (بهاء).. أمرني بصرامة مرة أخرى أن ألملم عفني وأخرج قال: يلا يا بابا اسمع الكلام ثم ربتَ بعنف على رقبتي، أزلت يده بعنف مقابل فهجم الثلاثة علي وما أبصرت النور إلا وأنا مقلوب رأساً على وجع بكل ما تعنيه الكلمة من ألم.

استفقتُ على وجعي وأنا في أسفل الدرج، رأسي على عتبته الأخيرة وقدماي تصرخان على بضع درجات فوقها.. ملابسي مبعثرة حولي.. خيطُ دمٍ ينزُّ من أسفل أذني وآخر من نقرة رأسي وثالث من جانب شفتي، أحسست بشيء يتحرك داخل فمي فلفظت سنًّا متكوراً حول كتلة دم، نهضت وأضلاعي تصرخُ بجزع أمٍّ ثكلى وظهري يرتج، لملمت عفني وحقيبتي الجلدية الصغيرة، نظرتُ إلى الأعلى بشزر.. هممت أن أصعد، ارتقيتُ أول درجة لكن صرخة ألمٍ تفجرت من فمي، كُسرت قدمي فتخليتُ عن فكرة صعودي سريعاً وغادرتُ والدموع تتساقط من عيني قهراً وغضباً.. خرجت من باب العمارة لا أعلم إلى أين أذهب..

جسـدي يئـن، خطـواتٌ قليلـة ثـم توقفـت وجلسـت علـى الأرض، خلعـت حذائـي وأنـا أصـرخ.. انتفخـت قدمـي اليمنـى حتـى غـدت كقربـة زرقـاء صغيـرة.. أخرجـت مـن حقيبتـي قميصـاً لففتـه عليهـا بشـدة رغـم أننـي كنـت أتقطـع ألمـاً ثـم تحاملـت عليهـا وقمـت، كان بيتـي في حـي كفرسوسـة قـرب جامـع الرفاعـي؛ لـذا ذهبـت إلـى المسـجد علّـي أنـام حتـى موعـد صـلاة الفجـر فوجدتـه مغلقـاً.. جلسـت في فنائـه المـزروع الصغيـر ألتقـط أنفاسـي قبـل أن يجـيء حـارس الجامـع ويطـردني ويقفـل بـاب السـور، اسـتجديتهُ بضعفـي حتـى أننـي حللـتُ قميصـي عـن كاحلـي وأريتـه ازرقـاق رجلـي فلـم يأبـه لتوسـلاتي.. سـرت متألمـاً، كل مـا دهسـتُ الأرض بقدمـي أصرخ، حتـى وصلـت إلـى جسـر الرئيـس ونزلـت درجاتـه المؤديـة إلـى موقـف الباصـات أقفـز علـى قدمٍ واحـدة، قطعـت الطريـق الـذي يسـتغرق منـي عـادة عشـر دقائـق بسـاعة كاملـة أتلـوى حـد البكـاء الـذي ينفـر مـن عينـي بغيـر إرادتي، أسـفل الجسـر منطقـة خضـراء واسـعة ولا يوجـد بهـا أحـدٌ يطـردني، رائحـة (المـازوت) تغمـر أشـجارها التـي اسـتندتُ علـى جـذع إحداهـا، أخرجـت قميصـي الوحيـد الآخـر ومددتـه تحتـي وفككـت ربطـة حذائـي الـذي قيدتـه بحقيبتـي ثـم توسـدته، بحثـتُ عـن حجـر مسـطحٍ أضـع فوقـه قدمـي المكسـورة حتـى وجدتـه.. حمـدت الله

كثيرًا أننا في يونيو وهبات نسيم خفيفة تربت على وجهي.. نظرت إلى النجوم التي تناثرت في سماء صافية.. ابتسمت لي وحيتني ثم ربتت على كتفي. قالت لي بحنان كعطف أمي أن أطمئن.. أنني سوف أذكر هذه اللحظة لاحقًا وأضحك عليها.. ابتسمت من أعماق قلبي رغم أنين عظامي فسكنت، أغمضت عيني ورحتُ في سنة من نوم لكن غرابًا حقيراً نعق بعنف فوق رأسي فجفلت.. أدرت رأسي على جنبي فتأوهت، أخرجت جوز جواربي وسددت به أذني لكن الغراب اللئيم زاد من حدة صوته، لقفته بحجر فطار ثم عاد مُعانداً ليرافق مضجعي إلى الصباح.

شبع العام الدراسي الأول مني.. رحل بعد ان ابتلع نصف وزني، لم أكن أجد الوقت كي آكل هذا إذا وجدتُ طعامًا يُقيمُ صُلبي، عملت حتى يوم إجازتي لأحصل على (الأوفر تايم) وحتى أستطيع أن أسُدْ رمقي بوجبة المطعم.. بعد أن طردني (بهاء) استأجرتُ سريراً بغرفة تحوي ستُّ سُرُرٍ في أحدِ بيوت الشباب، دور سكن صغيرة للمشردين من أمثالي، رائحة الفراش تصيبني بالغثيان، غسلتُ بياضه من بقع فضلاتٍ جفّت عليه زمنًا وتساءلت كيف كان ينامُ عليها من كان قبلي، نجحت (شحطًا) لكن المهم أني انتقلت إلى السنة الثانية، الرسوب يعني سنة أخرى من العذاب، من الدراسة

والعمل، من البُعد عن أمي التي فارقتها سنة دراسية كاملة، رغم قرب قريتنا من دمشق إلا أني لم أكن أستطيع زيارتهم، كان أصدقائي من القرى المجاورة يعودون إلى ذويهم كل نهاية أسبوع لكن أجرة المواصلات البسيطة عزيزة علي.. مائة ليرة تعني.. طعام أربعة أيام... إيجار السرير لخمسة أيام وعمل ثلاثة أيام ونصف.

لطمت أمي على صدرها حين رأتني كهيكل عظمي يتحرك، تقوس ظهري كشيخٍ هرم وظهرت عظام قفصي الصدري كما غارت وجنتاي تحت عظام خدي؛ وكأنني كنت في مجاعة أفريقية، لم يعد يتندر حمزة على ضخامتي رغم عرض مناكبي. أرادت أمي أن تحشيني بالطعام كما تحشو الوسادة بالقطن لكن نفسي رغبت عن كل ما يدخل جوفي وعافته، أبي لا أكاد أراه، يغيب عن البيت دون سبب ويتحاشى النظر إلي أو الكلام معي وكأنه إن صدق حدسي يلوم نفسه على ما آلت إليه فجوات خداي، مرت أشهر الإجازة سريعًا، كبُرتْ سهى أيضًا بسرعة وصارت شهيةً جداً، التقيت بها مرة واحدة عند بوابة القصر؛ فأشاحت وجهها عني بقرف، علقت هذه الفتاة بذاكرتي كبدايات كل شيء التي لا تنسى، أذكر حتى اليوم أنها أول من أشعرتني برجولتي.. أول من التهبت شفتاي فوق شفتيها.. أول من فقدت معه عُذريتي، تتشبث

هـذه البدايـات في أدمغتنـا رغـم ريـاح السـنين... تـترآى لنـا في كل شـفة نلمسـها.. في كل أنثـى نعشـقها.. في كل دبـوس شـعر نزيلـه مـن عتمـة الليـل الطويـل.

أشـهرُ الصيـف كانـت ثقيلـة علـى قلبـي رغـم ارتيـاح جسـدي.. اعتـدتُ على دمشـق وأحببتهـا.. صـار فراقـي عنهـا صعبـاً رغـم شـظف عيشـي بهـا، متناقـضٌ كعـادتي أَحِـنُّ إلـى الشـيء وضـده، أنـام وحيـداً في دمشـق وأسـتيقظ في منتصـف الليـل أبكـي شـوقاً لأمـي فـإذا ارتميـتُ بحضنهـا وألقـتْ علـيَّ مودتهـا أعـود فأشـتاق إلـى بيتـي الدمشـقي ووحـدتي، أُجـبر نفسـي علـى النـوم في قريتنـا أمـا في دمشـق؛ فأعـود مـن عملـي لأنكـب علـى فراشـي كمخمـور دارت الـكأس في رأسـه وخدرتـه.

دمشـق أيتهـا المدينـة السـاكنة في روحـي.. يـا ياسـمينة فاحـت ريحها في كيـاني.. يـا أيتهـا الفيحـاء التـي ملكـت أشـواقي، شـكلت شـخصيتي.. وعذبـت ذاكرتي.

دمشـق.. يـا مدينـة تعبـي.. ويـا مدينـة راحتـي.. يـا مدينـة المحاريـب والكنائـس.. يـا مدينـة المواخيـر والمراقـص.. دمشـق يـا حسـنائي.. يـا مدينـة الحـب والظـلام.. يـا مدينـة البـؤس والأحـلام.

عـاد أحمـد أيضًـا مـن حلـب يرفـل بصحـة وينضـحُ وجهـه بِشْـراً.. يقـرأ بتفاخرٍ مقرف على مسامع أبي علامـات المـواد التي نجح بها في كلية الهندسـة.. يذهـب إلـى ورشـة عـم صـلاح ويتفلسـف علـى رأسـه بمعلومـات يعرفهـا الميكانيكـي المخضـرم حتـى قبـل أن يولـد أحمـد، يرمـق الرجـل أحمـد بنصـف عيـن، ويهتـز شـاربه الكـث فـوق شـفته التـي أوقـن أنهـا تخفـي ابتسـامة سـاخرة مـن أخـي، كنـت أتفاجـأ حيـن أجـد أبـي يسـتمع إليـه وينظـر لـه بعيـن إعجـاب وإكبـار؛ وكأنـه حـاز جائـزة نوبـل في الهندسـة.. في مضافـة قريتنـا يُجْلِسُـهُ بجانبـه حيـن يأمـرني بصـب القهـوة المـرة علـى ضيـوف المضافـة.. المهنـدس أحمـد فعـل كـذا.. المهنـدس أحمـد يقـول كـذا.. والمهنـدس أحمـد يرمقنـي مـن عرشـه التافـه بنظـرات مقيتـة أكرههـا.. يمـد لـي فنجانـه ويأمـرني بعينـه أن أصُـبْ لـه.. في المـرة الثالثـة حيـن نـاداني ذهبـت وأنـا أداري ابتسـامة خبيثـة تلـوح علـى شـفاهي... أخـذت فنجانـه وسـكبت فيـه القهـوة السـوداء.. تظاهـرت باختـلال تـوازن يـدي وأنـا أعطيـه لـه فانسـكب الفنجـان الحـار علـى موضـع فرجـه.. رمقنـي أبـي بنظـرات مؤلمـة.. فـرك المختـار البغيـظ كعادتـهِ أذني يصطنعُ أنـه يحبنـي ويريـد مصلحتـي ويخفـي بداخلـه كرهـاً متصاعـداً لـي.. سـبقنا أحمـد إلـى البيـت يـواري في الطريـق سـوءته.. كان عقـاب أبـي لـي هـذه المـرة جميـلاً.. جذلـتُ

بقسوة نظراته في طريق عودتنا إلى البيت.. كنت خائفاً من العقاب القادم لكن سعيداً رغم ذلك بصنيعتي.. تلذذتُ بكل شحطة عقال على ظهري؛ وكأنه كان يدلّكُ لي عضلاتي، لأول مرة أشعر بقيمة أن أعاقب على أمر اقترفته سذاجتي الكاذبة.. كنت أضحك بداخلي بينما كان يتلوى جسدي.. لم يستطع أحمد إخفاء حنقه مني رغم تشفيه بوجعي.. بنفس الليلة تعاركنا فوق فراشنا بعد أن أحضرت بنطاله المبلول من سلة الغسيل ورشقته بماء لأزيد من سخريتي منه.. قام ليضربني وتحشرجَ صوته مستغيثاً حين وضعتُ عنقهُ تحت ركبتي.. دخل أبي وأكمل مهمته على جسدي، ولولا تجمع أنصاري لما تركني.. صرخات حمزة.. بكاء علي.. ولولات أمي.. وتعبه.

وصلت إلى دمشق هذه المرة مشتاقاً، لم أعد أتذمر من تسارع أيامي فيها، لم أعد أشارك زملائي النُدُل الآخرين بالتذمر من صاحب المطعم الذي أعملُ به ولا من صلافة بعض زبائننا وسوء أخلاقهم، تعودت بل عودت نفسي على واقعي الجديد وتأقلمت معه، أصبحت أنظم وقتي بين الجامعة والعمل وقررت أن لا أحضر الدروس النظرية التي أستطيع قراءتها من الكتاب، وأوفر وقتها لما هو أهم منها.

في السنة الثانية سارت أيامي بسلاسة جميلة، عملي في المطعم كان يكفي متطلباتي ويزيد عليها خاصة بعد أن زاد لي صاحب المطعم مرتبي، أبدلتُ ملابسي المهترئة بأخرى جديدة غيّرت شكلي تماما وصرتُ أشعر بسعادة وطمأنينة لدمشقي ودراستي وعملي، عملت في قريتنا خلال الصيف بالورشة واستطعت أن أجمع مبلغًا جيداً من المال كان كافيًا لأن أستأجر شقة صغيرة لعام كامل.. صغيرة نسبةً لهذا القصر الذي أرفلُ به اليوم بينما كانت في تلك الأيام منتجعي.

هذا العام صار لدي الكثير من الأصحاب الذين أجالسهم في قاعة المحاضرات أو في الكافتيريا أو في الساحة الواسعة وكان الكثير منهم يأتون نحوي حين يرونني ويجلسون الي قليلا قبل أن ينصرفوا إلى محاضراتهم.. اكتشفت فجأة أنني خفيف الظل يضحك من حولي على ظرافتي وطُرَفي.. كنان جديد أتعرف عليه؛ وكأننا في كل مرحلة من مراحل نمونا وتطورنا يولد بنا شخص قادم من وراء ذواتنا.. أصبحت أنعم بأصدقاء جُدد لحياة جديدة لم أعتدها بعد.. الفلوس تغير النفوس.. هكذا يقولون.. والحقيقة أن الراحة والتعب هما الذين يُغيرانِ على ذواتنا ويبدلان شخصياتنا.. صار لدي لأول مرة صديقات، صديقات فقط وليس صاحبات

لفراشـي، تعلمـت أن العلاقـة بيـن الذكـر والأنثـى لا تتعلـق بالجنس فقـط أو الأحضـان والقبـلات خلـف أسـوار البيـوت.

أجـده كل يـوم جالسـاً في المقهـى حيـن أصـل.. يجلـس قريبـاً مـن البـاب.. أبتسـم فيبتسـم.. أسـلم فيـرد بترحيـبِ مـن يعرفنـي، ينادينـي باسـمي فأناديـه بيـا صديقـي ويـا عزيـزي لأننـي لا أعـرفُ اسـمه، يدعـوني مجاملـة لفنجـان قهـوة معـه فأشـكرهُ وأمضـي.

ذات صبـاح جئـت رائقـاً.. تصـدح فيـروز في المقهـى بأغنيـة سـيد الهـوى قمـري.. أخـذت مـن البائـع فنجـان قهـوة فـارغ وضعتـه علـى صينيـة صغيـرة، وحيـن وصلـت عنـد الشـاب اصطنعـت تعثـري.. وقـع الفنجـان عليـه وهـبَّ واقفـاً وذعـر لسـعة القهـوة السـاخنة يكتنـف وجهـه.. ضحكنـا أنـا وصبـي القهـوة وحسـام وفتاتـان كانتـا تراقبانني.. هكـذا تكللـت صداقتنـا أنـا وحسـام، ينادينـي يـا كنـان يـا كنـان ويكثـر مـن ندائـي بيـن كل جملـة وجملـة وكأنـه يخشـى مـن أن أهـرب مـن براثـن كلماتـه، يقتحمنـي بندائـه لـي ويغلغـل كلماتـه بداخلـي، كان يـدرس في كليـة الأشـعة ونحضـر أحيانـاً دروس التشـريح والمـواد النظريـة معـاً، صرنـا نلتقـي يوميـاً في المقهـى صباحـاً ونحتسـي قهوتنـا قبـل أن تـدق أجـراس محاضراتنـا.. عرّفنـي حسـام لاحقـاً علـى أقـرب

أصدقائه إليه.. سامر صديقه اللعوب الذي يدرس في كلية الآداب وكثيرًا ما يزورنا في كليتنا.. كلية الآداب التي يدرس بها سامر يرتعُ فيها أغلبُ فتيات دمشق لكنه يقول إن الرداء الأبيض لفتياتنا يجعل وجوههن أجمل وأجسادهن المختفية خلف أسرار الرداء أشهى.. كان سامر يعيش مع أسرته في الكويت.. أرسله أبوه ليكمل الجامعة في دمشق حين انتهى من الثانوية.. لديهم بيت واسع في حي الزاهرة وكان يدعونا للسهر لديه.. عرفتُ حينها أفلام الجنس التي كان يستأجرها سامر كل ليلة خميس.. في الشريط المستطيل الأسود رأيت لأول مرة في حياتي كيف يمارَسُ العهر.. كنتُ حين أعود إلى بيتي أنظر إلى عضوي وأخجل منه حين أضعه في منافسة مع هؤلاء الفحول الذين تتأرجحُ أعضاؤهم ساعة دون كلل أو ارتخاء.. مازادتني تلك الأفلام إلا شكّـًا بنفسي، لم أضاجع فتاة تقوم بمثل ما تقوم به بطلات هذه الأفلام، رأيت لاحقـًا وثائقيـًا يتحدث عن معاناتهن قبل التصوير وبعده وكيف كن يتقيئن قرفـًا أجبرتهن الحاجة على ابتلاعه، عن الأمراض التي تقتل تلك العافية الكاذبة التي نتصورها، عن خدع التصوير التي تهول أحجام الرجال وتقلب الخيال إلى حقيقة. عفتْ نفسي بعده عن مشاهدة هذه الأفلام.. صرتُ أتخيل أنني أشارك ببؤسهن وشقائهن.

الليل صار مؤنسي ورفيقي حتى صرتُ لا أنام منه إلا سويعات قليلة حتى لا يفوتني سحره وبوحه.. وجدتُ الليل أجمل وأنقى وأفصح من الصباح، كنت أستيقظ في منتصفه أو بعد منتصفه بقليل، أصنع فنجان قهوتي وأفتح أنغام مسجلي الصغير وأقرأ أي كتاب أخطفه من مكتبتي حتى يحين موعد خروجي إلى جامعتي. لم تتغير عادتي تلك منذ ذلك العام الذي غير كثيرًا من مسار حياتي.

دمشق تتناثر فيها الكتب المستعملة على الطرقات وتحت الجسور، تُباع بثمن يبخسها حق الورق الذي طبعت عليه، التقطتُ منها ما كون لدي مكتبة صغيرة، كتبت ذكرياتي على بعضها، خربشت مع حبيبتي على صفحاتها، سافرت بها، أبحرت معها وحين تركت دمشق أحرقتها ودخان نارها لا يزال يعبُّ في أنفي حتى لحظتي هذه... التقطت من أحد الأرصفة كتاباً لفتني عنوانه.. في خوارق اللا شعور تعرفت على أسرار قوتي.. أسرني علي الوردي وأثَّر بي.. صرت أشعر بأن لي طاقة لا أستغلها ولذلك لم تعد تستهويني سهرات الخميس لدى سامر التي كانت تنقضي في مشاهدة أفلام الجنس وتعليقات سامر السخيفة عنها، أسررت لحسام بما تحدثني به نفسي فصرنا أنا وهو نسهر في بيتي حتى إذا حان الصباح غادر وهو يحضر نفسه لمحاضرة أمه

التـي تنتظـره في بيتهـم.. أتناقـش مـع حسـام نظـرتي الجديـدة للحيـاة.. الوقـت الـذي يتسـاقط منـا لـدى سـامر دون أدنـى معنـى.. شـبابنا الـذي لـم نسـتغله بعـد.. رسـمنا خططـاً لمسـتقبلنا.. لا شـيء ممـا كتبتـه ذلـك اليـوم قـد تحقـق إلا اهتمامـي بجسـدي.. كان حسـام رياضيـاً يرفـل بجسـد ثـري.. تـرك النـادي الـذي يتمـرن بـه وصنـع مـن علـب الحليـب المعدنيـة أوزانـاً بعـد أن عبأهـا بالإسـمنت لنتمـرن بهـا في بيتـي.. علمنـي حسـام أن الغنـي كمـا كان هـو ليـس بالضـرورة أن يكـون حقيـراً كمـا كان وزيرنـا، وأن المسـيحي كمـا كان هـو ليـس بالضـرورة عـدواً كمـا كان يقـول لنـا أبـو عبـدو في دروس الجامـع.. لـم يكـن موضـوع الديـن مطروحـاً علـى طاولتنـا.. كان يحيـن موعـد الصـلاة فأقـوم إلـى صـلاتي وهـو جالـس.. حيـن أنتهـي يقـول: تقبـل الله ثـم نعـود إلـى مـا كُنّـا عليـه.. أنسـى صـلاتي أو أتناسـاها فيذكـرني بقـرب زوال وقتهـا، في دمشـق تلـك الأيـام لا فـرق بيـن ديـن وديـن، أو مذهـبٍ ومذهـب، جميعنـا سواسـية بمـا يقـع علينـا، جميعنـا معدمـون ومتعبـون، نسـيجنا الاجتماعـي توحّـد علـى الفقـر والحاجـة.

مـع تزايـد عضـلات جسـمي صـار جسـدي يحـن إلـى اللحـم.. في قريتنـا كنـت آأكل اللحـم بعـد عيـد الحـج وبعـد عيـد الحـج فقـط.. تطبـخ لنـا أمـي قـدراً كبيـراً تضـع بـه قطعـة لحـم واحـدة لا تـكاد تكفـي

طفلاً وتطمرها بكمية كبيرة من الخضار التي زرعناها خلف كوخنا الصغير ثم تكرر طبختها لشهرين أو ثلاثة حتى ينفد اللحم ونبقى ننتظره إلى السنة التالية.. علم سامر بأمر اجتماعنا في بيتي فجاء، صار يتمرّنُ معنا وبعد التمرين يحضر لحماً أو دجاجاً لنأكلُ معا وندفع سعرهُ معاً.. كان يأتيه من الكويت مصروفاً يكفي أربع أسر من قريتنا، وكنت أعمل ملئ يومي حتى أكف نفسي عناء المبيت تحت جسر الرئيس.

واليوم بقيتُ وحدي، لا سامر يغيظني ولا حسام يتابع بحب نصحي، أأكل ما أشتهي وحدي، وأسهر وحدي ويتقطع قلبي وحدي.

❊❊❊❊

وطرٌ ما فيه من عيبٍ سوى

إنه مر كلمح البصرِ

سدد السهم وسمى ورمى

ففؤادي نهبةُ المفترس

والذي أجرى دموعي عَنْدَما

عِندما أعرضت من غير سبب

ضع على صدريَ يمناك فما

أجدر الماءُ بإطفاءِ اللهب

لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي

***

هناك... لكنه هنا...

مقعدٌ أسمنتي يختبئ في زاوية قريبة من بوابة الكلية استأثرت به وحدي، تظلله شجرة سرو ضخمة، تحميني من حر آب ومن زمهرير كانون ومن عيون زملائي، أجلس عليه كل يوم أقرأ، أختلي بنفسي على جسده البارد حين أصل مبكراً.. أغفو عليه أحياناً بعد أن أُغطي عيني بكتابي. تذكرني هذه المقاعد الحجرية بأرضية دارنا في القرية وكيف كنا ننام عليها في الصيف بعد أن نرشها بالماء.. نلتحف سقف غرفة متشقق ونفترش أرضاً طبطابية باردة.. نضع تحت رؤوسنا مخدات نسجت أمي غطاءها وخاطت عليها كلمات بإبرتها المرتعشة.. تصبحون على خير أو نوم الهنا.

على رغم علاقاتي الجميلة التي تجمعني بزملائي وحارس الكلية وأساتذتي وحتى عميدنا كنتُ دائمًا ما أتوقُ إلى الاختلاء بنفسي وتخصيص الوقت لي أنا وحدي، بعد سنوات طفولتي ومراهقتي التي قضيتها في بيت مكون من غرفة ونصف وحمام صغير كان هو المكان الوحيد الذي أستمتع به بخصوصيتي إذا أقفلت الخرم الدائري في منتصفه بخرقة بالية. أجدُ هنا لنفسي فسحةً شاسعة أتلذذ بلقاء نفسي بها والتعرّف على جنباتها، بعد

طـول تفكيـر بنفسـي رأيتنـي بطـلاً عصاميـاً اسـتطاع رغـم التحديـات أن يكـون هنـا الآن تحـت شـجرة السـرو التـي تشـبهني بصبرهـا. أتأمـل نفسـي، جسـدي، ملابسـي وتحصيـل علمـي فأفتخـر بـي، أنـا الـذي صنعتنـي بعـد أن كـدت قـاب (مفتـاح عجـلٍ وإطـار عربـة).

هنـا تحـت شـجرتي هـذه قابلتهـا أول مـرة، جئـت مبكـراً كعـادتي فوجدتهـا تجلـس علـى كرسـيي وتقـرأ، تملكنـي غيـظ خفـي وأنـا أقـترب منهـا،.. انحنـى ظهرهـا الطويـل وأسـندت وجههـا بكفهـا ومرفقهـا علـى ركبتهـا.. حيـن اقتربـتُ منهـا رأيتهـا تعـضُّ علـى شـفتها السفلى.. وعلـى قلبي، سرى دبيبٌ مثل دبيب النمل في رقبتي انتقل إلـى ذراعـي فيـدي فقدمـاي.. يتدلـى شـعرها الغجـري فـوق وجههـا وتقلـب بيدهـا العاجيـة الصغيـرة صفحـات كتـاب لـم أتبيـن عنوانـه مـن موضعـي، حدثـتُ نفسـي قبـل أن أصـل إليهـا وأنـا أرى تجعيـدات شـعرها، تمنيـتُ أن أدفـن أنفـي بيـن جبـل خصلاتـه، أشـتمُّهُ فأنـامُ بـه إلـى الأبـد، لونهـا كلـون قمحـةٍ هنديـة لفحتهـا عيـن الشـمس فصـارت كحـواء حيـن هبطـت في دمشـق.. بعينهـا (شـحطةٌ) خفيفـة سُـحبت بيـد مبدعٍ عظيـم علـى طـرف صدغهـا، تلبسُ قميصـاً أزرق رفعـت أكمامـه لتنـام علـى مرفقهـا وبنطـالاً حليبيـاً يرسـم سـاقـاً كسـاقي ظبـي عربـي، رغـم افتتـاني بهـا شـعرتُ بالغيـظ منهـا مـن اقتحامهـا مـكاني، لا أحـد

يجلس هنا غيري، لا أحد... اقتربت منها وجلست بجانبها أنظُرُ بصفاقةٍ إليها، رفعت رأسها ونظرت نحوي باستغراب.. ابتسمت لها بغيظ استطعتُ كتمانه:

- ممكن اذا سمحتي تطلعي وراكي؟
- عفوا؟

صوتها مبحوح، في بداية سماعي له ظننتُ أنها مريضة أو تعاني من التهاب في حلقها لكنه كان هكذا، كحفيف ورقة لوزٍ ترقص في الفضاء، كتهادي موسيقى ناي من فم عاشق، أهملتُ إحساسي بجمالها، برونقها، بخرير الحُسْن الذي يتساقط من بين شفتيها.

- ممكن بس تشوفي شو مكتوب وراكي؟

اتسعت عيناها الواسعتان.. عيناها كليالِ الصيف الناعسة.. كلون عسل كشميري، أزاحت خصلات شعرها الغجري بيدها وهي تلتفت وأزاحت قلبي عن مكانه معها.

وضعت يدها على فمها وضحكت بعد أن قرأت اسمي منقوشاً على الكرسي تحت موضع ظهرها، لاحقاً صرتُ أقول لها كلما أشرقت الشمس من ثغرها لمَ تحجبي النور عن قلبي حين تضحكين؟ عرفتني على نفسها وهي تهتز ضحِكاً.. ما

أجمل اسمك يا نيفين، قلت لها فوراً: (أووه الجديدة)؛ فرفعت حاجبيها إعجاباً بثقافتي، جلسنا نتحدث عن كتابها الذي تقرأه.. علي الوردي مرة أخرى.. تقول نيفين إن الوردي تجنّى على الأدب الجاهلي في كتابه هذا وأنه إنما قلّد طه حسين في سعيه.. دافعتُ عنه.. عن أن موروثاتنا نحن وغيرنا ليس كما وصلتنا.. أن هناك من عبثَ بتاريخنا.. أنّ الدول والسياسة تلعبُ في كل ثقافاتنا، تركتني أغوص بحبي لكاتبي وأدفع عنه حتى إذا انتهيت من كلامي عارضتني، قالت لي إن الدكتور العراقي تلبسني وأن عليَّ أن أكون مستقلاً برأيي، أنه يجبُ ألا تؤثر كتبي ذاك التأثير على قناعاتي، أن لا يكون لتاريخي وقراءاتي ذلك الزخم الرهيب في تشكيلي، كيف يكون ذلك يا نيفين، كيف أتحرر من طوقٍ مني؟ لكن كانت حججها قوية كحججي.. افترقنا بسلام دون أن نتفق لكن اتفق عقلي وقلبي وعيناي على الإعجاب بها، بعد أن سرقنا وقت محاضراتنا الأولى صافحتني وهي تعض على شفتها.. قتلتني.

نيفين في اللغة الفارسية تعني الجديدة، وهي الجديدة القديمة التي لا تَعْتَقْ، صرت أناديها نيفو ونيفو في الإسبانية تعني المتجددة، كم مرةً ستتجددين في قلبي يا نيفو، كم زمناً ستسكنيني، كم روحاً من أرواحي ستبعثرين؟؟

تطـورت صداقتنـا سـريعـًا؛ وكأننـا كنـا ننتظـرُ أحدنـا الآخـر، نيفيـن أصبحـت ظلـي بـل أنـا مـن كنـت كخيالهـا.. حفـرتُ اسـمها علـى ظهـر الكرسـي بجانـب اسـمي فأصبـح كرسـي كنـان ونيفيـن.. نفـترق وقـت المحاضـرات ونخـرج مـن القاعـة إلـى كرسـينا، نتناقـش في كتـب لا علاقـة لهـا بدراسـتنا ونسـتذكر دروسـنا فقـط إن كان لـدى أحدنـا امتحـان، حضـرت معـي دروسـي وجلسـتُ معهـا في قاعـات محاضراتهـا، طبقـت علـى ذراعهـا ووجههـا ورقبتهـا عـدة تماريـن تعلمتهـا وفي درسٍ عملـي خافـت أن تضـع الإبـرة بيـد زملائهـا.. شـجعتها علـى أن تتمـرن علـى وريـدي.. فكنـت أول مـن وضعـت الإبـرة في ظهـر يـدي، وضعتهـا وهـي ترتجـف وأنـا أشـجعها حتى تتقـن درس سـحب الـدم، صـارت تتـدرب علـى أوردتي كل يـوم حتـى أنعـمُ بلمسـة يدهـا.. بتطويـق عضـدي بمطاطهـا.. كان أول دم تسـحبه هـو دمـي، وكان أول دم أريقـه هـو دمهـا..

آه لو تعلمين يا نيفين.. آه لو تعلمين..

صـارت تعـرف كل شـيء عـن العـلاج الطبيعـي وأجادلهـا أنـا أيضًـا في منهـج التخديـر، كنـا نسـتذكر دروسـنا سـويًا علـى كرسـينا أو في الحديقـة التي تجـاور مبنـى الكليـة، نصـل معًـا، نخـرج معًـا، نتعـرف

على أصدقاء جدد معًا ونأكل معًا، تحضر لي شطائر جبن من بيتها كل يوم فنجلس على كرسينا بعد أن أحضر كوبًا شاي من الكافتيريا، قلت لها مرة وأنا أقضم من شطيرتي أن تخبر أمها كي تغير الجبن بشيء آخر؛ لأنني مللت فخطفت الشطيرة من يدي بشقاوة وهي تؤنبني على عدم عرفاني بجميلها وتضحك، أمرتها وأنا ألوك اللقمة اليتيمة بفمي أن تعيد لي شطيرتي فأبت، حاولت أن أستخلص من يدها طعامي لكنها اعتصرت شطيرتي، تعاركنا وحاولت فتح قبضتها التي سال من أطرافها الجبن فصرت آكل من بين أصابعها وألعق من على يدها التي قمت بتثبيتها بقوة وهي تضحك، أرخت قبضتها فصرت أقبل يدها بهدوء وأنا محني الرأس وهي تحاول سحب يدها من بين براثن قبلي، فتحت يدها وتساقطت أشلاء شطيرتي من يدها وفتحت قلبها فتساقطت أشلائي بداخلها، توردت خداها حين التقت عينانا والحب ينضح منها ثم مسحتْ طرف فمي بمنديلها قبل أن تشغلَ نفسها بكتابها وتصمت.

السنة انتهت وحان وقت العودة إلى قريتي.. وجدتها تنتظرني في موقف الميكروباص وعيناها مليئة بالدموع، كنت قد ودعتها قبل يوم لكنها أبت إلا أودع دمشق إلا ويكون جمال وجهها آخر ما تراه عيني.. رق قلبي لها، سلمتُ عليها وقد غمرني حبها ثم اقتربت

أريد أن أحتضنها لكنها ابتعدت برفق وهي تصافح يدي وتضغط عليها بحب لا يخفى.. وعدتها أني سأعود حالما أجمعُ مبلغًا من المال يكفي لدفع إيجار شقتي، استجدتني أن أبقى في دمشق، وأبحث عن عمل حتى إنها عرضت علي أن تكلم والدها؛ ليجد لي وظيفةً مؤقتةً في الشركة التي يديرها، لكن ماذا أفعل بتوسلات أمي واستجداء حمزة ورغاء علي. تركت يدي بعد أن اعتصرتها برفق وهي تبكي قبل أن أصعد إلى باص القرية وتودعني تلويحاتها.

****

تتساقط أيامنا كأوراق الخريف...

تجرفها رياح الماضي إلى المغيب..

نغيب نحن ونتلاشى...

لكننا نولد من جديد...

حين تنفث فينا زفرة حب

هنا...

تسير بي الدنيا بغير هداوة، ترفعني إلى أعلى كما تعلو بي لعبة أفعوانية خطيرة في ملاهي الحياة وأنا أخاف جدًا من الهبوط القادم بلا محالة وأدري أن وقوعي محتم في النهاية لكنني لا أعلم متى سيكون، لم يسلم أي أحد مشى في الطريق الذي أسير عليه ونجى، أسندتُ يمان بقوة على إحدى ذراعي وأنا أجاهد كي أفتح باب شقتي، أغلقت الباب بقدمي وألقيت المفتاح أرضًا وأنا أحمل صديقي الذي تفوح من فمه رائحة الخمر ومن روحه رائحة التعب والهلاك، ألقيته بصعوبة على الأريكة في منتصف الصالة وجلست بجانبه الهث وأنا أحرر أزرار قميصي المتبقية بعد العراك، نظرت إلى وجهه المخدوش من كل مكان وإلى خيط الدم الذي سال من جبينه ورسم دمعة حمراء على صدغه، قمت بتنظيفه بعد أن هدأت أنفاسي المضطربة ثم اغتسلت وارتميت على السرير لكن أبى النوم أن يترفق بي ويزورني رغم ما بي من تعب.

إلى متى وإلى أين يا كنان؟ ما هذه الحياة التي تدور في أقبية المقاهي التي تشبه الكرخانات وتضيع في مشاجرات السكارى والمومسات، كدت اليوم أن أفقد حياتي بعد أن أخرج مخمورًا

سكينه الصغير وحاول زرعه في عنقي لولا أن وقف يمان في وجهه وتفادى ضربة الرجل في جبينه الأصلع والسبب عراكهما على بغي تحتضن كل يوم رجلاً مختلفاً.

لا أدري لماذا لا أتوقف عن لعقِ أصابع هذا الإدمان القميء الذي سكنني، رغم عدم راحتي كثيرًا في تلك الأماكن، كل ما أريده منها هو النساء والنساء فقط، أُجيل عيني بينهن وأقترع ثم ألتقط إحداهن وأقضي بها وطري كل ليلة وكفى، فكرت كثيرًا أن أتخذ لي محظية واحدة تعجبني، لكن لدي فوبيا اسمها فوبيا العلاقات الدائمة التي يقشعرُّ جلدي لها وترهبني.

قمت من سريري.. ارتديت ملابس العمل رغم أن أذان الفجر لم يرفع بعد، ذهبت إلى مقر عملي تلاحقني نظرات شباب الأمن الذين يعرفونني بريبة وقلق، ودخلت مكتبي الصغير أتصفح ملفات المرضى.

رفعت رأسي بعنف بعد أن أحسست بيد نيفين تمسح عليها، تدفقت القرعات بشدة على قلبي، نظرتُ إلى ساعتي وأنا أفرك عيني بعد أن اختفت بلحظة أربع ساعات من ساعة يدي التي أبحلق بها بدهشة وأبحلق بنيفين التي لم أستوعب وجودها بعد

ولا وجـودي، وضعـتُ إصبعـاي بطـرف عينـي حتـى انقشـع غبـار النـوم عنهـا وإذا بهـا لينـا التـي أمامـي، تنهـدت بصعوبـة ثـم زفـرت زفـرة محمومـة أخرجـت جزعـي مـن ثنايـاي، ابتعـدت عنـي لينـا وخرجـت بعـد أن رأت نظـرات الفـزع في عينـي ولمحـت يدهـا وهـي تمسـح دمعـة أو تداريهـا حتـى لا تفـر مـن مقلتهـا، تسـمرت علـى مكتبـي وأنـا أمـرر يـدي علـى شـعري حيـث كانـت تمسـح، شـممتُ يـدي بعفويـة ولا أدري أهـو عطرهـا الـذي في راحتـي أم رائحـة ذكريـاتي، خرجـت مـن مكتبـي بعـد أن غسـلت ألمـي وعدلـت قميـص عذابـاتي، وجدتهـا مـع أحـد المرضـى.. ترتسـم علـى شـفتيها ابتسـامة حزينـة وتلتمـع في عينهـا دمعـة انكسـار وخيبـة، حيـن رأتنـي أشـاحت بوجههـا عنـي إلـى الجهـة الأخـرى فقـادني شـيء مـا إليهـا، صـرت أسـاعد المريضـة المسـتلقية علـى السـرير معهـا وأسـند قدمهـا بيـدي ولينـا تثبـت حوضهـا، تقصـدت أن أضـع يـدي فـوق يدهـا فالتفتـت نحـوي بعيـن عتـب هـذه المـرة وعيـن فـرح لـم تسـتطع إخفاءهـا، توغلـت في عينيهـا، في سـاحة حربـي، أنـا الـذي استسـلمت بعـد معاركـي الخاسـرة قبـل ذلـك، أنـا الأسـير الـذي تقيـدت روحـه بأغـلال الماضـي وسلاسـله، أنـا المثخـن بجـراح دمشـق التائـب أبـداً عـن التوغـل في وغـى العيـون هـا أنـا أتوغـل في عيـن لينـا، أُقـدّمُ عينـا وأؤخـر أخـرى ثـم أغـرق ببحرهـا الهائـج دائمًـا.

سيطرت على نفسي سريعًا، تراجعت بحذر.. لبستُ درع اللامبالاة والانشغال، سحبت يدي بلطف وانتهت الحرب قبل أن تبدأ.

- شكلك ما نمت كويس.

قالت ذلك لي بعد أن انتهينا من مريضتنا وجلسنا على طاولة الاستقبال نرتب أوراقنا، ليتني أستطيع ترتيب مشاعري وطويها كما أطوي هذه الأوراق، ابتسمت لها بوجهٍ مرهق وهي تجلس بجانبي، أشتم رائحة عطرها أو جلدها الذي يحيي ذكريات دفنتها، أتصببُ ألمـًا وأنا أحاول السيطرة على أفكاري وذكرياتي وصورٌ قديمة بدأت تتزاحم أمامي، كل ما كنت بجانب لينا يستيقظ مارد توتري ويركبني.. وقفت، عببتُ نفسًا عميقًا ثم جلست وطاقتي تتسرب مني كما تتسرب الآهات من صنبور أحزاني.. وكأني كنت في سباق عدو لا ينتهي.

- كنان.

جاءني صوتها المخملي لينتزعني من هواجسي بعد أن كنت قاب دمعتين أو أدنى من بكائي الذي صار يعتريني، يا إلهي كم تذكرني عيناها اللامعتان بماضٍ يحفر قلبي ويصنع به فجوة

سـوداء، ارتميـت في أحضـان عيناهـا التـي تلونـت بخشـب الصنـدل العتيـق، وددت أن أحتضنهـا.. أن أرمـي رأسـي علـى صدرهـا وأبكـي ولا أبالـي إن مـتُّ بعـد بكائـي.. أن أشـتم بهـا عبـق دمشـق الغائـب عنـي. سـألتني وعيناهـا تبوحـان بشـفقةٍ عـن توتـري.

- كنان إنت كويس؟

يـا صوتهـا المبحـوح الـذي يرتجـف بداخـل حنجـرتي.. يـا هديلهـا الـذي يوتـرني.

لـو أني أعـرف مابـي لأجبـت.. بحثـت عـن أي إجابـة ترضينـي قبـل أن ترضيهـا وأنـا لا أعلـم حقـاً جـواب سـؤالها.

مـاذا جـرى لـي؟؟ حكايـة عمرهـا آلاف السـنين، كدمشـق التـي تتجـددُ أحزانهـا كلمـا هـفّ الياسـمين.

رغـمَ شـوقي لهـا، رغـم حاجتـي إليهـا، شـعرتُ بالحنـق منهـا أن تسـألني مـا جوابـه عندهـا وكأنهـا تحولـت إلـى لجنـة امتحـان قاسـية هدفهـا سـقوطي في دوامـة البـؤس، تضاربـت مشـاعري وتشـاجرت بداخـل صـدري دون أن تنتصـر رغبـة علـى أخـرى.

هممـتُ أن أجيبهـا بمـا يفتعـل في حنقـي وقهـري لـولا دخـول

يمـان بوجهـه المتـورم علينـا، وقـد وضـع قطعـة شـاش حمـراء علـى طـرف جبينـه، ابتعـدتُ عـن لينـا قليـلًا بغريـزتي ولا أعلـم لـم فعلـت ذلـك لكنهمـا لاحظـا توتـري، لفتـت إصابتـه انتبـاه لينـا عنـي وأشـغلها بالسـؤال عـن حالتـه، خرجـتُ معـه بعـد أن دعـاني لكـوب قهـوة وهـو يشـير لعلبـة السـجائر بيـده، يشـعر بـي يمـان حيـن احتاجـه فيـأتي قبـل أن أناديـه وينقـذني مـن عذابـاتي، صارحتـهُ بنقمتـي عليـه وعلـى سـلوكه بعـد أن يسـكر ويذهـب الخمـر حكمتـه وعقلـه، حلـف لـي كاذبـًا ككل نوبـة نـدم أنـه لـن يقـرب الخمـر ماحيـا أبـداً، شـرحتُ لـه ماحصـل حيـن كان غائبـًا بدوامـة سـكره، وهـو يرفـع حاجبـاه مسـتغربـًا كالعـادة جنـون عقلـه الآني.

****

هناك...

أحب أبي. رغم كل قسوته التي أثقل بها حياتي، رغم أذني التي أعتقدُ أنها كانت لتكون أصغر بكثير لولا فركه لها وقرصه لشحمتها.. أرى فيه مثالاً منذ صغري على الرجل الذي كادت له الدنيا بلؤم.. جميع من في قريتنا رغم بؤسهم وفقرهم إلا أنهم أفضل حالاً من أبي.. أبي الذي يعمل صباحاً في المدرسة ثم عصراً بتدريس أبناء الوزير بلا أجر تقريباً إلا ضمان بقاءنا في صومعتنا الصغيرة ثم مساء يساعد جارنا البقال أبو فهمي في حساباته المتواضعة مقابل كيلوات معدودة من ما يسد به رمقنا.

يأتي أبي ليلاً متعباً مثل أسد عبر صحراء قاحلة فلم يجد إلا أرنباً ضئيلاً يطعم به أشباله، لا يزيدني منه وجهه المرهق إلا رهبة وخوفاً وحباً، وعيتُ منذ كنت طفلاً الماً يموجُ بوجه أبي، يكتسحُ قسوته ولا يقوى على تغييرها، كانت أمي لا تسمح لأحد بأن يأكل شيئاً قبل قدومه؛ ولذا نبقى مستيقظين في انتظاره وما أن ينتهي العشاء حتى نتسلل كسناجب صغيرة خائفة إلى جحرنا بعد أن نقبل يده ورأسه.

كان يزعجني صوت قبقابه حين يقوم في منتصف الليل ليتوضأ.. وحين يجافي النوم عيني كنت أراقبه، وهو يجلس على كرسي

الخيـزران في الدكـة أمـام بيتنـا بعـد أن يحمـل فانوسـًا صغيـراً بيـده ويتأكـد مـن أننـا جميعًـا نتقلـب في أحلامنـا التـي لـن تتحقـق، كان بغيـر أشـهر الشـتاء ينـام علـى الدكـة نفسـها، يضطجـعُ علـى فراشـه البالـي وينـام ملـئ جفنيـه المثقلتيـن بالتعـب، كثيـرًا مـا كنـت أملـئ عيني بوجهه فقط حين يكون نائمـًا وكان أبي جميلاً، ينعكس نـور القمر على سحنته وينام بوجهٍ ينضح سلامـًا، قبل نومه كنت كثيرًا مـا أتسـلل علـى أصابعـي لأراه يمسـك بيـده مصحفـًا كل يـوم ويقـرأ بصوتـه الأجـش الخشـن لكـن بترتيـل يلامـس شـغاف قلبـي.

تسـاءلتُ كثيـرًا وأنـا صغيـر ولازالـت بعـض هـذه الأسـئلة تزدحـم في دماغـي حتـى بعـد أن كـبرت، لمـاذا لا يرحـم الله هـذا الشـيخ ويفتـح عليـه أبـواب السـماء وكنـوزُ الأرض، يقـول لنـا أبـو عبـدو أن مـن يتق الله يرزقـه ويفتـح لـه كل الأبـواب المغلقـة وأبـي سُـدت أمامـه كل النوافـذ بقفـل مـن رصـاص، هـذا الرجـل الـذي لـم أره في حيـاتي إلا سـاجداً أو قارئـًا للقـرآن وإن كان علـى غيـر تلـك الحـال فـلا يـترك مـن يـده تلـك السـبحة القرمزيـة ذات الأحجـار الكبيـرة تتلقـف أصابعـه حباتهـا الواحـدة تلـو الأخـرى ويلـوكُ بفمـه أذكاراً وأدعيـة لا أدري إن تحقـق مـراده بهـا أم ضاعـت في السـماوات؟؟ لمـاذا نعيـش في هـذا المـكان البائـس خلـف قصـر الوزيـر وقـد صرنـا جميعًـا أبـي ونحـن وربمـا

أبناءنا أملاكاً وخدماً كما تتبع هذه الغرفة الحقيرة التي تئوينا ذلك القصر المهيب؟؟ أين عدلُ الله حين وزع الأرزاق وأعطى ذلك الرجل الذي طالما رأيته مخموراً يترنح في أرجاء مزرعته وبيده قنينة داكنة يجرع منها الظلام.. وحرم هذا العبد الذي أينما يوجهه مولاه يسمع ويطيع، يفعل ما أمره به سيده دون جدال ويبتعدُ كطفلٍ خائف عن ما نهاه.

لا أدري أنظر الله بوجه أبي فرفضه أم أنه قرّر أن فقره أصلح لحاله أم خبئ له دعواته لزمن آخر وحياة أخرى.

آه كم أشتاق أيام أبي

ذلك الرجل الرهيب العصبي العصبي

إنما كان أبي قاسي الوجه

ويخفي نهر حب عذِبِ

صبره صبر نبي

قلبه قلب صبي

- كريم العراقي

***

هناك أيضًا..

إجازتي كانت ممتعة حقـًا في القرية هذه المرة، أحسست أني كنت بحاجة للهروب من ضوضاء المدينة وركضها المستمر بي، العمل في الورشة رغم صعوبته لم يزعجني، انشغالي بالجلوس لساعات تحت الشاحنات آنسني.. أقلب بيدي عوراتها وأنتزع أحشاءها.. ترك ذلك بداخلي حبـًا للتعب، صرتُ أبحث عما يجهدني من الأعمال وربما لأجل ذلك اخترت مهنة تحتاج إلى جهد جسدي كله، كنت أعود دائمًا إلى بيتنا ينضح مني إرهاقي فأتلقفُ دفء حضن أمي وطعامها وأستعيد طاقتي بعد أن أستحم، كنت حين أغتسل أغرفُ الماء بطاسةٍ صغيرة من وعاء خزفي مستطيل، في الشتاء كنا نغلي الماء على الحطب بوعاء معدني آخر ثم نصبه تباعـًا في (الجرن) المرمري، في بيتي الدمشقي هناك (دوش) معلق في حمامي وسخان يُدفئُ مائي بكبسة زر، أفتح الصنبور فينسكب منه الماء كمطرِ السماء، لم أعتد على البطر الذي يعيشهُ أبناء المدن حينها فاشتريتُ (جرنا) بلاستيكيـًا صغيراً وصرت أستحم بنفس طريقة بيتنا، صابون الغار الذي تصنعه أمي أيضًا له رائحة أشتمها على جسدي وأنا نائم وأشتم معها طمأنينة نُغير لاذ بأحضان عُشه؛

لـذا كنـتُ أحمـل عـدة ألـواح معـي حيـن أعـود تغنيني عـن صوابيـن دمشـق التـي لا روح فيهـا مثـل غـار أمـي رغـم رونـق روائحهـا.

أخـواي الأصغـر منـي حمـزة وعلـي يتعلقـان بـي وكأننـي قدمـت مـن كوكـب آخـر، ينظـران إلـي بدهشـة خاصـة بعـد أن اكتسـب وجهـي وجسـدي شـكلاً جديـداً وقـوة غريبـة عليهمـا، كانـا يأتيـان كل يـوم بعـد المدرسـة إلـى الورشـة يجلبـان لـي وجبـة الغـداء في علبـة معدنيـة صغيـرة ويسـألانني عـن الشـام ومبانيهـا وعلـى خجـل عـن فتياتهـا وقيانهـا، أخبرتهـم همسـاً عـن حـي المرجـة الـذي تقـف بـه الفتيـات الشـقراوات أمـام الفنـادق الصغيـرة هنـاك، عـن (عرصـات) دمشـق وكيـف يميـزون أنفسـهم دون خجـل بتلـك الملابـس فاقعـة اللـون حتـى يعرفهـم الذيـن يريـدون إفـراغ شـهواتهم نصـف سـاعة مـن الزمـن في فجـوات المومسـات ثـم يغـادرون.

حمـزة سيتخرج مـن (البكالوريـا) العـام المقبـل وسيصطدمُ حتمـًا بمـا لـم تـره عينـه في قريتنـا، لـذا مارسـتُ علـى فكـره دور الأخ الأكبـر والأعلـم حتـى لا ينزلـقُ بمـا سـقط بـه كثيـرًا مـن أقـراني، وباتـت تلـك النُـزُلُ سـكنـًا لهـم، متعبـون كانـوا، تهيـمُ أرواحهـم وتـرزحُ تحـت وطئة الشبق.

منـذ كان طفـلاً أذكـره ممتلئـاً بالأحـلام، بـهِ مشـاعر حـب غريبـة على من يعيش بقرية خاوية مثل قريتنا، يبتسم دائمًا، ويسلم بحب على كل مـن يلاقيـه، كان كل مـن يـرى أبـي حيـن أكـون معـه يسـأله عـن حمـزة وكأنـه لا ولـد غيـره لديـه؛ وكأنني لا أسيرُ بجانبـه.. في كل عـام يُفـرحُ قلـب أبـي وأمـي بعلامـات تامـة في جميـع مـواد دراسـته، احتفلـت بـه قريتنـا والقريـة المجـاورة لنـا حيـن جـاء الأول علـى كل طـلاب الصـف العاشـر وذبـح المختـار بقرتيـن وأجلـس حمـزة علـى كرسي الشرف في مضافتنا، رغم حبي لـه إلا أني كثيرًا مـا كنتُ أغـار منـه لذلـك فرحـت حيـن تميـزتُ عليـه بغربتـي وخـبراتي الجديـدة.. هـو الآخـر كان يحبنـي.. لـم يفـرح كثيـرًا بتمييزه عني أنـا الـذي أكـبره بعشـرة أشـهر فقـط.. كنـتُ أرى بعينيـه أحيانًـا نظـرة شـفقةٍ تجاهـي؛ وكأنـه كان يعلـم بالـذي سيصيبني.

لمحت ذات ليلة سهى وهي تدخل من بوابة المزرعة تمشي مع أمهـا، هفنـي الشـوق إلـى تلـك الأمسيات التي كنـا نختبـئ بهـا خلـف الجـدار، وتحركـت شـهوتي لهـا وهـي ترتـدي تنـورة قصيـرة تظهـرُ بيـاض سـاقيها بعـد أن بلغـت مبلـغ المراهقـات، نادتنـي أمهـا مسـلمة فاقتربـت منهمـا، أمطرتنـي بأسـئلتها عـن دمشـق ودراسـتي وعرّضـت بإنجازات أخي وكسلي وأنـا سـاهمٌ عـن ذلـك كلـه في وجـه ابنتهـا الـلا

مبالـي بـي وفي فخذيهـا اللتيـن غمـراني بامتلائهمـا، اختفـت الحبـوب الحمـراء الصغيـرة التي كانـت تتبعثر على وجههـا مثل حبوب اللقـاح ورسـم ضـوء الإنـارة الخافـت علـى وجههـا جمـالاً كجمـال نجمـات الأفـلام القديمـة التـي شـاهدتها في سـينمات دمشـق الرخيصـة.

سـلمتُ عليهـا بعـد أن انتهـت أسـئلة أمهـا الرتيبـة فأجابـت باقتضاب وهـي تـذم شـفتيها بقـرف: منيحـة، أحسسـتُ بعتـبٍ يختفـي وراءَ صلافتهـا التـي خلّفَهـا سـفري إلـى دمشـق، شـعرتُ أنهـا لا تـزالُ تكـن لـي مـا أكنـه لهـا، وربمـا تحركـت ذكرياتهـا بداخلهـا مثلـي فعزمـت على رؤيتها.

في مـا مضـى كنـا قـد اتفقنـا علـى طريقتيـن نسـتدعي بهـا بعضنـا بعـد أن ينـام الليـل، كانـت تخربـش بحجـر صغيـر علـى الجـدار الـذي ننـام خلفـه ثـم تركـض بخفـةِ أرنبـة؛ لتنتظـرني عنـد حائطنـا.. أمـا أنـا فكنـت ألقـي حجـراً صغيـراً علـى زجـاج نافذتهـا في الطابـق الأول، وأختبـئ خلـف شـجرة تيـن ضخمـة حتـى أرى سـطوع وجههـا فأخـرج من مخبئي.

خرجـت مـن غرفتـي بعـد أن نـام والـدي.. كانـت أنـوار بيـت الوزيـر جميعهـا مطفـأة إلا النـور الـذي كان دائمًـا مضـاءً في الشـرفة،

اطمئن قلبي وسرتُ بحذر حتى لا تستيقظ الحشائش تحت قدمي وتخبر النائمين عني، التففتُ خلف الفيلا وحملت حجرة صغيرة بطريقي، هممتُ بإلقائها قبل أن أرى سهى تقف خلف نافذتها وقد لبست قميصًا أسود شفافًا لا يكاد يستر شيئًا من جسدها الممتلئ الشهي وكأنها كانت تنتظرني، أشرتُ لها بيدي وأنا أبتسم، ردت لي الابتسامة ونظرت إلى داخل الغرفة ثم أشارت بيدها أن أنتظر قبل أن تتركني وتدخل، انتظرت عدة دقائق كانت كدهرٍ على قلبي الذي أخذ يقرع باب صدري بقوة، اشتقت إلى إحساس الخوف هذا الذي كان يعتريني حين أكون معها.

ما أجمل الخوف يا نيفين حين كنا نختبئ خلف أشجار السرو التي تنتشر في مدينتنا.. مدينةُ موتي التي كانت يومًا مدينة حياتي.. ما أجمل الفوضى التي كانت تموج بي حين تكونين بقربي.

بعد ذلك رأيت نور غرفتها يضاء ثم رأسًا غير الذي كنتُ أنتظره يطل من النافذة وأنا واقف تحتها، أحسستُ بأني عاريًا تماما من كل شيء إلا خزيي، شعرتُ بدمي يفارق جسدي كله ويهجم على وجهي حتى صار كرغيف خبز خرج لتوه من التنور، ازدادت دقاتُ قلبي وأمُّها تتمتم بكلمات لم أسمعها، ارتفاع ضجيج قلبي

وتوتر أنفاسي حال دون سماعي شيئًا قبل أن تدخل وتغلق النافذة بعنف.

اللعنة... لقد وقعتُ في الفخ...

في بكرة الصباح جاءت الخادمة إلى بيتنا، وما أن رأيتها وأنا الذي لم أنم طوال الليل حتى ارتجفت أوصالي وانتفض قلبي، قالت لأمي أن السيدة تريدها حتى تساعدها في لف ورق العنب وحشوه لكن عرف قلبي أنني مفضوح لا محالة.

ليت كان انتقام الدنيا مني مثل انتقام سهى السخيف هذا، كم أتمنى أن تجلدني أمي بعقال أبي ألف مرة كما فعلت ذلك اليوم على أن أقاسي وجعًا كسّرني، وألمًا يضنيني، وسياطًا تجلدُ روحي كل يوم وتدميها، تلتهمني الحياة بفاهها الكبير وتجلدني بسوطها الغليظ، سوط الندم والبؤس والشقاء السرمدي، سوط ذكرياتي التي ستبتلع بقاياي في يوم ما كما يبتلع قرش شرس فقمة ضئيلة تركها سربها خلفه؛ لأنها كانت أضعف من أن تلحق بهم، أنا الفقمة الضعيفة تلك لكنني أنا من ترك سربي بإرادتي وليس هم من عافوا وجودي.

مرت الضربات التي أذاقتني إياها أمي بسلام دون أن تخبر أحدًا بما حصل، حين كنا نتعشى في الليل قال علي لأخوتي أن

أمي ضربتني اليوم حتى بكيت، أرخيت رأسي وأنا أشعر بنظرات أبي تخترقني وضحكات أحمد وحمزة اللذان لم يصدقا أن أمي قد تؤذي أحدنا ولو حتى بكلمة منها، رأيتُ في وجه أبي وأنا أختلس النظر إليه نظرات غاضبة أو أنني كنت أتوهم ذلك لهول ما حصل لي، كانت تضربني أمي لأول مرة في حياتها ونظرات الأسى تملأ عينها الحانقة، وأنا متكور في زاوية الغرفة لا أقوم بعمل شيء إلا حماية وجهي من لسعات العقال الغادرة، سمحت لأمي أن تشفي غليلها بي وقاطعتُ سهى تمامًا بعد ذلك.. أقسم أني كنت ألمح في عينيها نظرات التشفي حين تخرج وتدخل من بوابة المزرعة، ترمقني بها سريعًا وأنا أتظاهر بلا مبالاتي، لكنني رغم ما حصل منها إلا أنني لا زلتُ أشتهي وصالها وتكويرات جسدها.

رأيتها ذات حلم وهي تحتِي عارية.. كنت أتلذذ بتقبيل شفاهها وجسِ نتوءات جسدها النافرة، حين مصصتُ لسانها شعرت بشيء غريب يدغدغُ حلقي، فتحت عيني المغلقة في الحلم لأجد لسانها مشقوقًا في المنتصف كلسان أفعى سامة وعيناها متقدتان بشرارة غضب فاستيقظت من نومي فزعًا يتصبب العرق من جبيني، وتتناقض مشاعري بين بغض شديد وشوق للقائها.

قبل ان تنتهي الإجازة بثلاثة أسابيع وجدتُ أمي توضب

أغراضـي وترتبهـا في حقيبتـي الصغيـرة، يجـب أن أغـادر خـلال يوميـن تقـول أمـي، قلـتُ لهـا إن أبـو صـلاح يحتـاج إلـيّ فـردت أنـه يسـتطيع تدبـر أمـوره بغيـري، حاولـت أن أسـألها عـن السـبب فرمقتنـي بسـهم عينهـا الـذي لـم يكـن يصيبنـي أبـداً قبـل حادثـة سـهى فأصابنـي اليـوم بيـن شـغافي وقلبـي، هـذا السـهم الـذي اعتـدتُ خروجـهُ مـن كنانـة أبـي يختِلُنـي اليـوم مـن حيـث لا أدري، ترقرقـت في عينـي دمعـة وأنـا الرجـل ذو الثمانيـة عشـر عامًـا فأغرقـتْ دمعتـي التـي لـم تسـقط عينـا أمي بالدمـوع، احتضنتهـا فتركـت نفسـها بيـن أحضـاني دون أن تطوقنـي بذراعيهـا لكننـي سـمعت نشـيجها، صـارت تنـدبُ بصـوت تهـدج ألمًـا وحسـرة ضيـاع تربيتهـا، أنهـا لـم تتوقـع أن يأتيهـا الخـزي مـن قِبَلـي، إن أبـي عـاش مرفـوع الـرأس رغـم فقـره وحاجتـه، أن فضيحـةً كهـذه لـو انتشـرت بيـن النـاس سـتقتل أبـي، أنهـا اسـتجدت امـرأة الوزيـر كـي تغفـر صنعـي وتكتمـه حتـى لا يتلـوث شـرف أبـي بصنيعتـي التـي لـم تكتمـل، شـرفُ أبـي الـذي لا يملـك غيـره، شـرفُ أبـي الـذي هـو الحيلـةُ ورأس المـال كمـا يـردد، حلفـتُ لهـا أني لـن أكـرر فعلتـي، أقسـمتُ وبكيـت وتوسـلت لتغفـر لـي خطيئتـي، سـامحتني لكنهـا رغـم ذلـك أصـرت علـى مغـادرتي.

****

عيناكِ

الدمع الأسود فوقهما يتساقط أنغام بنان

عيناكِ وتبغي وكحولي والكاسُ العاشر أعماني

ماذا أعطيكِ؟؟

أجيبيني؟؟

قلقي... الحادي.. غثياني؟؟

أنا ألفُ أحبكِ فابتعدي عني عن ناري ودخاني

فأنا إنسان مفقود

لا أعلم في الأرض مكاني

ضيعني دربي، ضيعني اسمي، ضيعني آهٍ عنواني

تاريخي مالي تاريخ

إني نسيان النسيان

إني مرساة لا ترسو

جرح بملامح إنسان

نزار

هنا..

في اليوم التالي جاءت لينا متأخرة على غير عادتها، ينضح وجهها تعبــًا ظهر بهالتين رماديتين تحت عينيها زادت من جمالها، بعض الكائنات حلوةٌ في كل أحوالها، شهيةٌ حتى في انغلاقاتها، في سعادتها تغدو مثل طير أخضر يرنو بنشيد صباحي على نافذة القلب، وفي سكونها وتعبها تصبح مثل فراشة ربيعية تتهادى ببطء لتقف ساكنة على جدار رمادي وتغري مصورًا محترفًا ليلتقط ظلها، مثل وردة بنفسج أغلقت أوراقها وانكفأت على نفسها ليلًا، مثل عنقود عنب يبس فصار زبيبًا حلوًا وهكذا كانت نيفين، أقصد... هكذا كانت لينا صباح اليوم.

كل القصائد أنتِ يا نيفين، كل الصور والألوان والزهور، كلها عندي نيفين، نيفين التي لم تحتل قلبي فقط وتحكمه، نيفين التي اكتسحت بكل ما أوتيت من رقة وعنفوان.. قوة وانكسار.. شغف وبطش كل خلية من خلاياي.

كانت مرهقة، أفلَ لونها.. تكاد تمشي كحلزون جائع، لا ترفع قدميها عن الأرض بل تزحف بهما، اعتذرت عن مساعدتي حين طلبت منها أن تصعد معي إلى غرف المرضى.. سكتُ والحيرة

تغلفني لكن ترقرق عيناها الدائم صباح اليوم وشحوب وجهها أقلقني، قررت أن أستمر بتجاهلي لها، قلبها الصغير لن يحتمل بؤسي لكن عليه أن يتحمل صلافتي هذه حتى يستطيع أن يتقيأني، هذه هي معادلة الإبعاد التي تبنيتُها طوال حياتي هنا كلما أحسست أن قلبي يدق تجاه فتاة ما، أو أن قلب فتاة ما يقرع صدرها بحبي.. نجحت هذه المعادلة دائمًا في وجه كل نسمة تنفثها مشاعري. وكل شهقة حب تحاولها رئتاي فأخفيها وأكتمها في ثنايا صدري حتى تختنق وتذوي وتموت.

وجدت لينا تقف أمام مكتب الاستقبال حين عدت، تحمل في يدها ملف مريض وتتجه إلى الغرفة الصغيرة التي ينتظر بها، ابتسمت لي ابتسامة باهتة من وراء تعبها حين رأتني:

- دخل عم إسماعيل، ارتاح انت أنا ح-

دارت عيناها في محجريهما قبل أن يقع الملف من يدها.. وسقطت على الأرض لولا أن التقفتها يداي سريعًا.

أرعبني اصفرار وجهها الشديد حتى صارت مثل ليمونة ناضجة فانعكس لونها على وجهي، هرعتُ أحملها سريعًا إلى غرفة الطوارئ وأنا أشعر بجزع يملأني، ركضت وكأن وحشًا

ضاريًا يلاحقني، تطاول الممر الضيق الذي يصل أقسام المستشفى ببعضها.. ندت مني صرخةً على رجلين يسدانه أأمرهما بالابتعاد وأنا أركض بأقصى خوفي من أن أصيب رأس لينا بأجساد المراجعين، وصلتُ أخيرًا إلى غرفة الطوارئ ولازال صراخي مستمرًا يستدعي المساعدة، هبت الدكتورة نادية مديرة الطوارئ من مكانها حين رأتني وأنا أضع لينا على أحد تلك الأسرة السوداء.. المتشحة ببياض الموتى.. قامت بفحص سريع ثم قامت بإعطاء بعض الأوامر سريعًا للممرضات وأنا أقف بجوار رأس لينا وأمسحه بكلتا يدي، حررت شعرها من وشاحها وصرت أرتب دون وعي شلال شعرها الكستنائي المتناثر على جبينها الأصفر، يتحركُ رأسها بين يدي وكأنه رأس طفلة صغيرة، تنظر الطبيبة نحوي وتكلمني وأنا لا أسمع ما تقول. ارتجفت بعنف عيني اليسرى ونفرت منها دمعة حين رأيت جفنا لينا يتحركان وحاجباها يقتربان من بعضهما بألم.

- اهي بتفتح عينيها الحمدلله.. بسيطة ان شاء الله.. لينا.. ازيك يا لينا؟

تركتُ لينا والطبيبة ورائي وخرجتُ من غرفة الطوارئ ببراكين تنفجر بداخلي بهدوء وأنا أرتجف وأتصبب عرقًا، تماسكتُ حتى

وصلتُ إلى مواقف السيارات، ركبت سيارتي وأنا أشعل سيجارتي بيد مرتجفة.. أغمضت عيني قليلًا ثم أجهشت بالبكاء.

استيقظت من نومي وصداع غليظ يكتنف رأسي، بقيت تحت لحافي أُغطي عيني بيدي بعد أن أزعجني الضوء الطفيف الذي يهرب من بين ستائر باب الشرفة، استطعت أن أنام بعد أن عدت من المستشفى وضوء النهار يملأ غرفتي والآن يزعجني بصيص ضوء هارب ويشاغب عيني، أي سخرية هذه؟ !، انتبهت انني لا زلت أرتدي ملابسي كاملة حتى رداء المستشفى الأبيض لم أخلعه عني فعلمت أني نمت منهكًا.

راودتني نفسي أن أتصل بلينا وأنا أعِدُ فنجان قهوتي، أمسكت هاتفي وبحثت عن اسمها فوجدته يشعُّ خلف الشاشة البيضاء.. ترددت.. أقفلت الشاشة وأعدت الهاتف إلى جيبي، بعد ثوانٍ قصيرة اخرجت الهاتف مرة أخرى وكأنه خائف من النوم في ظلام بنطالي.. اتصلت بيمان ثم أعدت الهاتف ثانيةً إلى جيبي قبل أن تصدر نغمة الاتصال الأولى.. زفرت بحنق على هذا الضياع الذي يأسرني.. الحيرة التي تتلبسني.

جلستُ على مقعد الشرفة بعد أن أدرتُ زر الراديو في غرفتي على قناة الأغاني، وبدأت أرتشف قهوتي وأمتصُّ سيجارتي.

تنتهي أغنية وتلحقها فورًا أخرى وجميعها أغان تثير الشجن.. تشابكت موجات الأثير مع موجات الحزن بداخلي في هذا الوقت من الليل وقد اقتربت الساعة على الواحدة صباحًا، كيف تستطيع كلمات أغنية ما، لا نعرف تاريخ كتابتها أن تهيج بركانًا من الأحاسيس في فوهة صدورنا، كيف يمكن للحن ينساب من آلة عازف أن يرسم نوتة مشاعرنا ثم يبعثر أوراقنا، ويلقيها في مهب الحيرةِ والتوهان.

توقفت أغنية تعيسة وقمتُ راكضًا حين تهادى فجأة صوت كاظم إلى أذني: انثري شعرك حولي انثريه؟

غيرت قناة الراديو إلى أخرى سريعًا حتى لا أسمع باقي الكلمات التي يحفظها قلبي وتنخرُ فيه كدودةٍ متوحشة، وضعتُ يدي على قلبي واستدركتُ أنفاسي كمن كان على حافة جبلٍ شاهق وأرادت ريحٌ أن تلقي به في وادٍ مظلم فتدارك نفسهُ قبل السقوط، صدح خالد الشيخ من موجة الأثير الأخرى بعينيها التي يتساقط الدمعُ الأسودُ فوقهما أنغام بنانِ، خطفتني ذكراي إلى دمشق حين

طفحت عينا نيفين ببحرٍ من العذاب.. تنساب الموسيقى الحزينة إلى أُذني فتبكي روحي.. تتشكل الكلمات وتتراص الأحرف فيتشكل بالنغمات وجهها أمامي.. كل الأغاني تتحدث عنها.. كل القصائد تصفُ جمالها.. كل أشعار الحب تصفُ لواعج نفسي التي لا أستطيع النطق بها.

زفراتي ساخنة تشتعلُ بها أنفاسي.. يموجُ لهيبٌ حارقٌ في صدري ويغمرني، دقات قلبي أعلنت العصيان؛ فهي تقرع كل يوم بعنف على جدار صدري، كأسير حرب ضاق بسجنه ذرعا، نيفين ولينا... لينا ونيفين.. التقيا في مصب شقائي كنهري دجلة والفرات يصبان الألم في خليج أحزاني، واحدة ذهبت بعد أن أخذت معها نصف قلبي، والأخرى تريد أن تسرق نصف ما بقي.

لكنني أخشى أن أعيش بربع قلب، كيف وقد قاسيت المر بنصف قلب كامل.

آهٍ يا نيفين، حتى بقلب مأساةِ الآخرين صرتُ أرى مأساتك أنتِ، مأساتك التي صنعتها بيدي المرتجفتين هاتين، حفرتها كوشمٍ سيئ الصنع على روحك الطاهرة؛ فوسمتها بوسم خذلاني لك، خذلاني لي.

رنَّ هاتفي، الساعة الرقمية به تجاوزت الثانية والنصف صباحًا، واسم لينا يضيء أمام عيني.

انتفضت، تبعثرت.. هل أرد عليها؟ أليس الوقت متأخرًا أن تتصل بي لتشكرني؟ أم يا تراها قد استيقظت من تعبها الآن وتريد أن تشاركني ألمـًا ووجدًا يستوطن كل وقت أحشائي؟؟

ترددت كثيرًا وأصبعي يتنقل بين علامتا الساعة الخضراء والحمراء، فحوى المكالمة بكل تأكيد سيتعب قلبي ويشغل تفكيري، لكن نقيض ذلك فإنني إن لم أستقبل مكالمتها فسأبقى متسائلًا إلى الغد عن ماذا كانت تريد أن تقول، كل الطرق تؤدي إلى بؤسي، ظللت أسمع نغمة الاتصال حتى انتهت.. تركت الهاتف بعد أن وضعته على وضعية السكون بجانبي، أنا الهارب من أقصى شمال بلاد العرب إلى جنوبها لن أتردد عن الهرب من عذاب مكالمة هاتفية بعد منتصف الليل.

الليل دائمًا ما يوقظ فينا مشاعرنا النائمة، يختطف من أنفاسنا زفرة يتغذى بها ويسلب من أرواحنا نفسـًا يمتصه منا كمصاص دماء عطش، حتى أغاني الليل تنقع أشجاننا بخمر عتيق فنسكرُ بأنغامها، وتترنح دموع أعيننا بشجوها. أغلب الليالي أقضيها وحدي وقليلًا

ما يسهر معي يمان وأنور وسعيد حين لا تكون برفقتي من تؤنس مضجعي..

أسكن هذا البيت بمفردي منذ ثماني سنوات، اشتريته قبل أن تتطاول باقي الفلل التي حوله في هذا الحي الهادئ البعيد قليلًا عن ضوضاء جدة لأختلي بي، لكن قررت المدينة أن تزحف نحوي شيئًا فشيئًا حتى أحاطتني، ما عدا سنة غربتي الأولى ظللتُ أعيش لوحدي مذ وطأت قدمي جدة قبل خمسة عشر خريفًا، وجد لي يمان شقة مفروشة على قدر دراهمي المعدودة يقطنُ بها طالبان جامعيان، أنور وسعيد هما ابنا عمومة أتيا من جنوب المملكة للدراسة في كلية الهندسة، مرحهما الجنوبي الجميل استفز حزني ووحدتي فتركت السكن معهما بعد سنة واحدة فقط، ولولا أنني قد دفعت إيجار عامٍ كامل لتركت البيت قبل ذلك، تنقلت بعد ذلك إلى بيتين آخرين حتى استطعت أن أجمع مبلغًا أدفع به قسط بيتي الذي أعيش به الآن.. لأبثه قصص أحزاني وآلامي. زرعت في فنائه أشجارًا تشبه تلك التي كنت أراها تزين دمشق.. مجنونتان تحتضن البوابة.. ليمونة أشتمُّ بوح أوراقها إذا مررتُ بجانبها.. ملّيسةً أقطف منها لشرابي.. تذكرت كيف جلبَ الداخل النخل

من الشام إلى الأندلس.. يبثها نجوى فراق أحبته.. يستأنسُ بغريبة مثله:

يانخلُ أنتِ غريبةٌ مثلي

في الغرب نائيةٌ عن الأصلِ

فأبكي وهل تبكي مكيّسةُ

عجماءُ لم تطبع على خيلِ

لو أنها تبكي إذاً لبكت

ماء الفراتِ ومنبت النخلِ

أجلتُ نظري بين أشجاري، تذكرتُ تلك الأيام التي كنتُ أنام بها تحت سروِ دمشق أتوسدُ بها نعلي، وابتسمت بحزن صار رفيقًا لقلبي.

شتاء قلبي لا يتأخر كل ليلة، حل بوقته تمامًا وحان موعد ارتجافَ قلبي، كهذه البرامج التي تبرمج على جهاز الراديو الصغير أمامي، عيناي تدوران في محجريهما حزنـًا على حالي، دفنت وجهي بين كفي ورحت أبكي حين أزفَ موعد طقس رثائي لنفسي.

دموعي أطهرُ ما أحظى به من داخلي.. أشعر دائمًا أنها غسول

لقذارة لواعج نفسي.. الدموع هي وضوء الخاطئين وشلال حنين للمتعبين. بكائي يغسلُ كثيرًا من لوثة لا زال يتوحّلُ بها قلبي

قرْعَتُ جرس يتيمة قاطعت تدفقَ أحزاني، حسبت أني أتوهم، مسحتُ وجهي ودخلت إلى غرفتي.. أخفضت صوت الراديو وأنا أصيخ السمع، مرت دقيقة سكون وأنا أقف وقفة هرٍّ متأهب ليمسك حشرة تتقافز أمامه، أيقنتُ أني أتوهم فعلًا حين كررت النظر إلى الساعة العلقة على جدار غرفتي، اعتدلت من جمودي، أعدت رفع الصوت وتوجهت مرة أخرى إلى شرفتي لأكمل بكائي لكن عاد رنين الجرس يزلزلني مرة أخرى.

نزلت الدرج مسرعًا والحيرة تغلفني، مررت على الصور المعلقة.. مسحت على وجه الفتاة والغزال سريعًا، وتخيلتُ أن الفتاة قد قطبت حاجبيها لأنني لم أقبلها كما اعتادت.. خرجت من بيتي. ركضت إلى بوابة الفيلا الخارجية... فتحت مصراعيها... أبي !!!؟

***

هناك...

ألقـي التحيـة علـى حـارس البوابـة العـم أبـو نجيـب وأنـا أدخـل الكليـة.. تتشـابك يـد نيفيـن مـع يـدي لنبـدأ معـًا عامنـا الدراسـي الجديـد.. أكملنـا بعـض الأوراق سـويًا.. توجهنـا إلـى المقهـى لأجـد سـامر يجلـس مـع فتـاة مـن كليتنـا.. سـلم علـى نيفيـن وأحتضننـي.. كانـت وئـام الفتـاة التي معـه كبيـرة العينيـن جدًا كعيـون البقـرة وممتلئـة البـدن كعجـل صغيـر.. لـم تعجبنـي نظراتهـا المسـتفزة إلـى نيفيـن وتـوددُ الأخيـرة إليهـا بـبراءة طفـل. حيـن سـهرنا ليـلًا قلـت لسـامر وأنـا أضحـك إذا سـرقت فأسـرق جمـلاً، وإن عشـقت فأعشـق قمـراً.. صـار يدافـع عـن جمـال صديقتـه وأنـا أكـرر أن عينيهـا بقريتـان.. أراد أن ينـال مـن نيفيـن فأسـكتّه بصرامـة، شـعرتُ بالغيـظ والحنـق يتقاطـر مـن بيـن براثـن صمتـه حيـن كنـت أضحـك مـع حسـام.. ظننـت أن كلام الرجـال في سـهراتهم محـرّم علـى النسـاء مثلمـا أننـا لا نعـرف أسـرارهن.. في اليـوم التالـي وجدتهـا أمـام بـاب الكليـة تنتظرني وقـد وضعـت يدهـا علـى خاصرتهـا.. سـبتني وقذفـت نيفيـن في شـرفها؛ فتطايـر الشـرر مـن عينـي.. مـدت يدهـا علـى ياقـة قميصـي فعصـرت لهـا إصبعهـا ولويتـه حتـى صرخـت وغرسـت أظافـر يدهـا الأخـرى في خـدي.. سـمعتُ صـوت نيفيـن تصـرخ بهـا قادمـة مـن بوابـة الكليـة تركـض بمـلء غضبهـا

كلبـوة هاجمـت ضبعـة لئيمـة أشـبالها.. أدركتهـا مـن خاصرتهـا قبـل أن تصـل وأبعدتهـا بجهـدٍ، وهـي تتوعـد وئـام بالشـر حتـى قبـل أن تعلـم مـا قالـت عنهـا أو مـا سـبب شـجارنا، جلسـنا علـى كرسـينا بعـد أن فرقنـا زملاءنـا وصـارت تبلـل منديـلًا مـن قنينـة مـاء صغيـرة وتمسـح بـه وجنتـي الداميـة وأنـا أنظـر إلـى عينيهـا الممتلئـة بالدمـوع، اكتنفنـي جـذلٌ وفـرح رغـم دمـاء وجنتـي، وأنـا أرفـل بلمسـات أناملهـا علـى خـدي كحريـر أصفهـاني.. إذاً هـي جميلـة أيضًـا حيـن تغضـب ولـم أرهـا غاضبـة في حيـاتي قبـل هـذا اليـوم ولا بعـده إلا مـرة واحـدة.. كانـت سينها تنقلـب شينا حيـن تغضـب... قالـت وهـي تمسـح جرحـي (شـأقوم بشـلخٍ هـذه الوئـام وشـترى) ضاعـت بعـض أحرفهـا بانطبـاق أسـنانها علـى بعضهمـا غيظـاً وقهـراً، ضحِكْـتْ فنظـرت إلـي بحـدة جعلتني أرخـي عيني أرضـاً لأخفـي ابتسـامتي، ضغطـتْ علـى جرحـي بقـوة وهـي تكـز على أسـنانها وتعـض شـفتها السـفلى.. أبعـدتُ رأسـي متألمًـا.. كانـت موجـات غرتهـا تهتـز بعنـف ويختلـج جسـدها انفعـالًا.. أمسـكت يدهـا برفـق وطلبـتُ منهـا بصـوتٍ حـانٍ أن تهـدأ. زفـرت بحنـق ثـم اسـتكانت وهـي تنظـر إلـي بشـبح ابتسـامة يختبـئ داخـل عينيهـا.. ابتسـمتُ وقلـت لهـا بصـوت منخفـض.. تحبينـي يـا بنـت؟؟ احمـرت وجنتاهـا أعـدت سـؤالي مـرة أخـرى وأنـا الكـزُ ركبتهـا، تمالكـت

خجلها ثم قالت ببرود وهي تنظر الي نظرة فارغة، ويدها تجفف ما بقي من جرحي: مائة وثلاثة وأربعون.. حين سألتها عن معنى ذلك أعادتها؛ وكأنها تقول شيئًا لا يحتاج شرحًا.. حاولت فك الرمز دون جدوى.. صارت لاحقًا كلما افترقنا تقول: مائة وثلاثة وأربعون لتغيظ جهلي.. سألت صديقتها رشا عن معنى ما تقول لكنها أقسمت لي أن نيفين تكتفي بالضحك حين تسألها.

طلبت من سامر برفق ألا يأتي إلى كليتنا وأقنعت نيفين أن تتجنب وئام فرضخت لي على مضض.. كل يوم يمضي أشعر بحب نيفين يزداد في قلبي وقلبها.. لم نعد كأي حبيبين متعلقين ببعضهما.. أحسستُ أن مصيراً واحداً سيربطني بها.. هادئة نيفين وطيبة يحبها كل من يعرفها لكنها كشرت عن أنيابها وأظهرت مخالبها حين تعلق الأمر بي.. الحب يسلب شيئًا منا.. من شخصياتنا.. يحيلنا كيانات أخرى.. انفعالاتنا مترجم يشرحُ لغة قلوبنا.

هذا العام تركت العمل في المطعم، نتنقل أنا وزملائي بين المستشفيات للتدريب العملي، صار تواجدنا في الجامعة قليلًا وتوزع طلاب دفعتنا على مستشفيات دمشق، أنا كان تدريبي في مشفى ابن النفيس بينما نيفين في مشفى المجتهد، أحد الدكاترة

لاحظ تميز عملي فعرض علي وظيفة مسائية في عيادته الخاصة ووافقتُ فورًا، أجرة العمل كانت أضعاف أجرتي في المطعم هذا إذا ما احتسبتُ ما تجود به يد الزبائن علي بالإضافة إلى أنني كنتُ أتعلم أكثر وتزداد خبرتي في مجال عملي، مع انتفاخ جيوبي زاد مرحي وحبي للحياة.. أحبني زملائي الجدد في المستشفى ومرضاي الذين أتدرب عليهم.. تماديت مرة في مزاحي.. دخلت مع إحدى زميلاتي على مريض كسرت ساقه وتغلّفت بجبيرة بيضاء.. أقلب ملفه بيدي وأبدي جديةً مصطنعةً على وجهي وأهز رأسي بأسف.. قطبتُ حاجبي، وقلت بصوت منخفض قصدت أن يسمعه.. يبدو أنه سيحتاج إلى بتر قدمه.. هاج المريض المسكين وبكى.. حاولنا تهدئته دون جدوى حتى حضر الطبيب المشرف علينا ونهرني أمامه.. كادت هذه الدعابة أن تودي بكل مستقبل عملي، وأراد الطبيب أن يرفع شكواه إلى إدارة كليتي لولا توسط أحد دكاترتي لي، علمتني هذه الدعابة الصغيرة درسًا لن أنساه في حياتي، لكن انتشرت الحكاية بين زملائي، وصارت نكتةً خصبة يتندر بها حتى طلاب السنة الأولى.

عمري عشرون عامًا والمال الذي ينهال علي أكثر مما ملك أبي طيلة حياته، أحسست أن أركان رجولتي اكتملت ويأن لدي ما

يشغلني كما لدى الرجال، عمل ومال وبيت وفتاة تلتف حولي والتف حولها، يكرر مختار قريتنا دائمًا بأن المال وسخ دنيا، وها أنا أتقلب فرحًا بوسخ الدنيا هذا الذي استطعت به أن أملك به كل حاجاتي بعد أن مزقني التشرد أيامًا تحت جسور دمشق وأكلتُ طعامًا نتنًا حين قرصني الجوع.. ردَّتْ إلي أموالي بهجةً حرم منها فقري وصنعت لي احترامًا تاقت له نفسي وفوق ذلك كله كنتُ أُمير أهلي وأحفظ أخوتي وأزداد كيل بعير، أيقنتُ أن كثيرًا من أمثالنا إنما يتنطع بها من يبتلع كل يوم وسخ الدنيا هذا ويغتسلُ به لكنهم كلما صادفوا معدومًا أو شاكيًا ألقموه مُثُلًا تناسبُ على قدر وجعه؛ كأنهم يصفون له دواءً مسكنًا لصداع فقره وكبسولةً لعلاج مغص حاجته.

أنا ونيفين لا نلتقي إلا يومين في الجامعة حين نحضر دروسنا النظرية، قابلتها بعد الشهر الأول من عودتي تحت شجرة سرونا، اشتريت لها سلسلة من ذهب طوقتُ بها عنقها، وتتدلّى منها بجعة ذهبية تناغمت سريعًا مع سمار نحرها العاجي واسوداد شعرها الغجري المتبعثر على كتفيها، ما أن طوقتها بعنق نيفين حتى شرعت تسبحُ على ضفاف جيدها كلما تحركت نيفين أو اهتزت بضحكاتها، تكلمت نيفين وتكلمتُ أنا ونسينا في غمرة

شوقنا محاضراتنا التي قدمنا لأجلها، قصصتُ لها عن ما مرَّ معي في غيابها وعن ضيقي بصلافة قريتنا كلما كبرت أكثر ومرت بي تجارب الحياة أكثر، حكت لي عن فترة تدريبها، تلتمع عيناها الصيفيتان بضحكاتها.. سخرت من حال مستشفياتنا التي يموتُ فيها الناس أكثر مما يتداوون، ضحكتْ بألم وهي تحكي لي قصة سيارة الإسعاف التي نفذت بطاريتها حاملةً في رحمها مريضًا إلى المستشفى وتوقفت على الشارع المقابل للمستشفى، وكيف قاموا بحمل الرجل المسكين وقطعوا به الطريق وخزي المنظر يوحي بفساد طغمة من تجار البشر في بلدنا. حكت لي كيف تختفي نصف الأدوية من الصيدلية بعد أن يتم استلامها ببضع ساعات فقط ليبقى المرضى مرضى في بلدنا، ويبقى الفاسدون فاسدين في أوطاننا، أكثر ما تكرهه نيفين هو الظلم، رغم رقة عودها إلا أنها تحملُ قيمًا أكبر منها، تتضيق عيناها كثيرًا وترتعش عضلات وجهها حين تتحدث عن الناس المضطهدين رغم ابتسامتها التي تصبغها على مأساة حكاويها.

فنانة كانت نيفين حتى برسم الألم على لوحات بوحها، تتلون حكاياتها بصباغ سوداء وترشق بفرشاتها ما يجيشُ بها حنقها حتى إذا ما فرغت مزقت لوحتها ورسمت ابتسامتها العذبة على شفتيها

وتلونت الدنيا كلها بالربيع، لولا الشر لما استطعنا رؤية الخير ولا السعي له، عين نيفين ترى مالا تراه عيني.. ذات صباح مررنا على مبسط الكتب فوق جسر الرئيس.. لا نستطيع أنا وهي أن لا نتوقف أمام هذه المكتبات المبعثرة على أرصفة الجوع.. ننتشل ما نرأف عليه منها كما ننتشل لقيطًا رمتهُ أقداره على قارعة الظلم.. على جدار الجسر علّقَ البائع لوحات رُسِمَ بعضها بيد فنان مغمور أو أحد طلاب كلية الفنون القريبة ليبيعها بأي ثمن، لفت نظري رسمة لفتاة صغيرة تلبسُ فستانًا أبيض وتضع خلف شعرها ربطة بيضاء.. تقف حافية القدمين على عشب تيبّسْ.. نظرتُ إلى نيفين التي كانت تنحني لتقرأ عناوين الكتب، تعضُّ شفتيها كما تفعلُ كلما استغرق عقلها بفكرة ما وتمسك شعرها خلف رأسها حتى لا يحجب عيناها بينما تتدلى بجعتها من شق صدرها.. لولا شعر نيفين الغجري لكانت الفتاة نسخة عنها حين كانت طفلة في العاشرة.. اشتريت اللوحة.. سألتني عما رأيتُ باللوحة غير شبهها بها وهي تقلب عينيها في صورة غزال يقفزُ ويحطم سورًا خشبيًا كان يمنعه من الانطلاق إلى غابة خضراء.. قلت إن الفتاة تبتسم رغم فقرها.. رغم تيبُّسِ موطئ قدميها، أن في عينها وميضًا بارقًا يشي بتحررها من ما كان يأسرها، صمتت وهي تلتهمُ بعينها

صورة الغزال ثم قلبتها نحوي بعد أن دفعت قيمتها للبائع.. قالت إن الغزال والفتاة متشابهون وكأن رسامًا واحدًا أفرغهم على بياض لوحته، قالت أن كلاهما يريدان الانفكاك من قيود تغلهما.. تهرب الفتاة وينجح الغزال بذلك أيضًا.. يسعدان بكسر قيودهما.. لكن لا تنسَ الألم الذي خلفه ذلك.. لو نظرنا إلى شيء لم يُرْسَمْ لوجدنا قوائم الغزال وقدما الفتاة داميتان.. ولو تأملنا الصورتين بعمق لرأينا السور والعشب (أي المجتمع) قد تكسرا بسبب فتاة وغزال. الفتاة والغزال رغم ألمهما لكنهما مجرمان أيضًا يا كنان.. لمجتمعاتنا أسوارٌ علينا أن نبقي تماسكها.. أن نقدسها كأنها دين سماوي وإلا انفلت عقدنا وهربت غزلاننا.. نعم نبحث عن حريتنا.. نحارب من أجل ما نؤمن به لكننا لا نكسر أسواراً يا كنان بل نفتح أبوابا حتى لا ندمي قوائمنا.. هكذا كانت تعلمني نيفين في نقاشاتنا. ناضجة كانت كتفاحة شهية تتدلى من غصن مجتمع ولا ترغب الفكاك منه، قطفتك قبل أوانك يا نيفين وتركتك تحت شجرة سرونا لا تستطيعين بلوغ غصن أمانك وغرستُ في تربة الألم جذور أحزانك، كسرتُ قوائمك بظلمٍ تمقتينه وحطمتُ سوراً تلوذين به.

يقولون: بعيد عن العين بعيد عن القلب، أمثالُنا لا يؤلفها إلا قساة القلب واللصوص يا نيفين، لأنني كلما ابتعدتِ عني أحسست

بشوق أكبر يكتسحني، صرت لا أراك إلا يومين فصارت روحك تزورني كل يوم، احتللتِ نصف مخدتي ونصف خزانة ملابسي ونصف بيتي وكل كياني، لدي قميص زهري اللون يقبع منذ خمس عشرة سنة في دولابي، أرتديه كل يوم، أشمُّ رائحتك التي لا زالت عالقة بنسيجه.. أو بنسيجي، ثم أعيده إلى مكانه بعد أن أقبل ورد شفاهك عليه، وأسقيه بدمعة دافئة من مقلتي.

سنة واحدة أخرى تفصلنا عن انتهاء موسمٍ من حياتنا وبداية موسم آخر، موسم تتغير فيه الأحداث والألوان والأماكن، يقتل قدر مُخرِجنا شخصيات ويحيي أخرى جديدة لتستمر تراجيديًا وجودنا، تمتلئ حلقاتنا بكل ألوان الدراما، حكم علي مخرجي أن أمثل دوراً من يبحث عن خلاص، أي خلاص.. فلا يجده، يبقيني على قيد الحزن للضرورة البائسة ولولا ضرورة دوري في مسلسل الحياة لتخلص مني سريعًا.

كنت أشتاق إليك كثيرًا يا نيفين، أصبحتِ تشغلين مساحة فكري كلها، أنادي على زميلاتي ومريضاتي سهوًا باسمكِ، أسير في أروقة المستشفى فأرى فتاة ظهرها كظهرك.. لون يدها قمحيٌّ كلونك.. شعرها غجري كشعرك، أركض جهتها ويخيبُ أملي

حين لا تكونين أنتِ، مع أني كنتُ أعرف أنها لن تكون أنتِ. كيف يحب أحدٌ ما أن يركض إلى خيبات آماله؟ ؟؟

قررت أن أتخذ خطوة للأمام، حين تملكني حبها وأيقنتُ أنها هي من أرغبُ أن أعيش بقية عمري معها، أن أخبرها بما يموج بداخلي، في نهاية الأسبوع انتظرتها في مطعم الربوة الذي كنت أعمل به، أخبئ في جيب بنطالي خاتما ماسيا اشتريته بكل ما كنت أملك ورهنت لدى البائع بطاقتي الشخصية حتى يضمن أني سأعود له بنصف المبلغ المتبقي خلال أيام، رأيتها تصعد درج المطعم وصوت بَرَدَى يعلو على صوت كاظم الذي يغني زيديني عشقًا زيديني، زيديني حبًا، زيديني ألقًا، زيديني شِعْراً.

جلسَتْ أمامي وظل ابتسامة يلجئ على حدود ثغرها الشهي كما يلجئُ أبناءُ وطنٍ إلى بعضهم بعد أن اجتمعوا في الشتات، ارتدت فستانًا طويلًا أسود ماج بعنف على جسدها المخملي، هناك شامة صغيرة تنام بهدوء بين كتفها وذراعها الأيسر كطفلةٍ لاذت بحضن أبويها تشبه الشامة التي تزين خدها الأيمن، ذراعها تلتف حول مفصالها وترسمُ في قلبي ولهًا لها، كم كان ظالمًا بنطال الجنز الأسود الذي ترتديه في سابق لقاءاتنا، كم كانت مجحفةً لجمالها

قمصانها، حين جلست أمامي فقدتُ كل ما كنتُ أتحلى به من رباطة جأش وثقة، توترت وبدأت حبات العرق تتكثف على جبيني وتسقط على صدغي وكأنني للمرة الأولى أجالسها، فكرتُ أني بعيدٌ عن نولها، أنها نجمةً هبطت من السماء، وأني حبة رملٍ تاهت في صحراءٍ بعيدة، أن بيني وبينها سنوات وسنوات، أنا العتيق وهي الجديدة، أنا القديم وهي الحديثة، أنا...

قتلنا الدقائق الأولى بكلمات لا قيمة لها ولا أذكرها وكل تفكيري ماذا ستكون ردة فعلها حين ترى ذلك النائم في خبيئتي، قالت ضاحكة بأنني لست على طبيعتي هذه الليلة.. أشارت بخوفٍ مصطنع إلى رأسي وقالت صارخة: هناك دخان يتصاعد مني، هناك شيء يحترق في الداخل. ضحكتُ بعصبية وأنا أتحسسُ الخاتم في جيبي وأمسح جبيني.

كنان... شو في؟

قالت ذلك وهي تمسك يدي وتنظر إلى عيني، غرقتُ ببحر عينيها الصيفيتين الدافئة.

ليش ايدك عم ترجف؟؟

انتبهت حينها إلى انتفاض جسدي كله وليس يدي فقط، لا

أعلـم.. هـل اعـتراني إحسـاسٌ مبهـم كان يحـذرني؟ أم حـب جـارف اكتسح كل ذرة في جسدي وسرى بي كتيارٍ كهربائي يصعقني؟ كدتُ أن أتراجـع عـن فكـرتي وأنسـاها لكنهـا صـارت تفـركُ يـدي بيديهـا وأطلّت من عينيها نظرات قلق ساخنة أذابت بعض توتري، ظللت ألـوكُ الكلمـات في فمـي ولـم أستطع أن أنطـق بحـرفٍ واحـد منهـا، أخيراً وضعتُ يدي في جيبي وأخرجت العلبة المخملية الصغيرة.. وضعتها أمامها ولم أجرؤ حتى على النظر في عينيها فأبقيت رأسي منحنيًا، مرّت سنوات ضوئية ما بين وضعي للخاتم وما بين لمسة يدها كدت خلالها أن أفقد عقلي، رفعتُ رأسي فوجدت عينيها تضحـكان وتبكيـان في آنٍ معًـا، فـرح الكـونُ معـي، رقصـت الدنيـا بقلبي، ازدادت انتفاضاتي. قالت بعينها: تأخرت.. قلت بعيني: إنما جئتُ بوقتي.

العيـن أصـدقُ أنبـاءً مـن الكَلِـمِ.. في بحرهـا العشـقُ يسـري غيـرَ مُحتَشِـمِ

حتى الدكاترة الذين يحاضروننا، حتى العم أبو نجيب حارس مبنى الكلية، حتى صاحب الكافتيريا، حتى ورورد الياسمين، حتى

أوراق السـرو صـارت تعـرف بحكايـة عشـقنا، إذا دخلـت لوحـدي سـألوني عنهـا، وإن مشـت بـدوني سـألوها عنـي، تلاصقنـا، فقدنـا هوياتنـا، انصهرنـا ببعضنـا حتى صرنـا جسـدين بـروح واحـدة، اكتملـتُ بهـا.. ذبـتْ.. اختفيـتْ.

احتفـل بي حسـام وسـامر.. دعانـا الأخير على وليمـة في مطعـم أبـو كمـال وبعـد العشـاء شربت مع حسـام إبريقًـا مـن الشـاي وجـرع سـامر أقداحًـا مـن الويسـكي وقـام يرقـص.. جرَّني مـن يـدي ورفعهمـا للأعلى وصـار يحركهمـا مـع أنغـام وردة.. بتونـس بيـك وأنـت معايـا.. بتونـس بيـك وبلاقـي بقربـك دنيايـا.. تفـوح منـه رائحـة الخمـر ومنـي عطـر الفـرح.. لمحـت نظـرة أسـى في عينـي حسـام وهـو يراقبنـا لـم أسـتطع تفسـيرها وترتسـم ابتسـامة حزينـة على فمـه.. سـكر سـامر حتـى نخـاع عظمـه وصـار يترنـح ويهـذي.. أوصلنـاه إلـى بيتـه وهـو يتمتـمُ بكلمـات أغنيـة لا نعلـم مـن أيـن أتـى بهـا.. ليلـي ليلـي ليلـي عيـن.. عينـي عينـي عينـي ليـل ضحكنـا، ونحـن نسـنده مـن كتفيـه حتـى رمينـاه علـى سـريره، جلسـنا بجانبـه وغادرنـاه حيـن تعالـى صـوتُ شـخيره.. هـدأت شـوارع دمشـق وألقـت بسـكونها علـى حسـام الـذي كان مطرقًـا خـلال سـيرنا.. قبـل أن نفـترق عنـد موقـف الميكروباصـات أمسـك بيـدي وضغطهـا.. قـال لـي إننـي اتخـذتُ خطـوة جريئـة لكنهـا مبكـرة.. الحـب في عمرنـا

لا يكلـل بالـزواج أبـدًا.. الحـب في عمرنـا لا يـورث إلا الألـم.. كل النهايات الفراق يا كنان..

.. لكن حبي لا يقاس بالساعات وبالأيام يا حسام.. نيفين شيء آخر.. عشق آخر.. أحببت نيفين قبل ملايين السنوات.. قبلَ موتي الأول وولادتي الأخيرة. ..

يهزُّ رأسه بألم: كلام مراهقة يا كنان كلامُ مراهقة.. اسأل أي حبيبين يا كنان.. ستجدهم جميعًا يحبون مثلك.. على مر الزمان يا كنان على مر الزمان.. اقرأ أشعار المتنبي والأخطل وعنترة.. اقرأ لفاروق ونزار وشوقي.. كلهم يعشقون مثلك.. يهيمون مثلك ويفارقون مثلما ستفارق.. قالها القباني يا كنان

قصص الهوى قد جننتك فكلها أكذوبةٌ وخرافةٌ وخيالُ

الحب ليس روايةً يا حلوتي بختامها يتزوج الأبطالُ

تململتُ من كلامه الذي دائمًا يكرر مثله.. أحبُّ بحسام واقعيته وأكره انهزاميته التي يلوم بها ظروف مجتمعه والمكان الذي كُتِبَ علينا أن نولد به، أكره أكثر حين يكون محقًا ولا استطيع الرد عليه، وكأنه يُلجمُ أفكاري، يقول لو لم يكن أبواي مسلمين لما كنت مسلمًا ولو لم يكن أبواه مسيحيين لما علّق

الصليب الـذي يتدلـى مـن عُنُقـه، وأنـه رغـم ذلـك لـو كان في مـكان آخـر وزمـن آخـر لمـا كان ذلـك معضلـة، قـد يعشـقُ العصفـور سـمكة لكـن أيـن سيعيشـان، في المـاء حيـث يختنـقُ هـو أم في الهـواء لتمـوت هـي؟ اعـترفَ لـي والأسـى يتسـاقطُ مـن كلماتـه أنـه يحـبُّ فتـاةً معنـا في الكليـة، قـد شـغفتهُ ولهـاً ولكنـه لا يملـكُ إلا النظـر إليهـا مـن بعيـد، ينتظـر أبـو نجيـب عنـد بوابـة الكليـة حتـى يفتحهـا ويدخـل ينتظرهـا كل يـوم في الكافتريـا حتـى تـأتي ترتشـف روحـه وقهوتهـا مـن فنجـان واحـد، لكـن لـن يُقـدم على مصارحتهـا، أتـدري لمـاذا يـا كنـان؟؟ لأنني أعلـم أن حبي لهـا موئـود حتـى قبـل أن يولـد في قلبهـا، أنـه لـن يـرثُ مـن ذلـك إلا حـزن يسـتعمر قلبـه وربمـا قلبهـا وأن أيـام هنائهمـا لـن تـدوم إلا بقـدر مـا تسـمح لهمـا مراهقتهمـا.

سـامر كان متحمسًـا لخطوبتنـا أكثـر.. دعانـا مـرة أخـرى أنـا ونيفيـن وحسـام ورشـا ودعـا وئـام أيضًـا.. تـم الصلـح بيننـا ووقعـت وئـام على عريضـة فرحنـا.. احتضنـت نيفيـن.. رقصـت مـع سـامر ثـم خرجنـا تتأبـط نيفيـن ذراعـي، ويمسـك سـامر يـد وئـام ويسـير حسـام بجانـب رشـا يختلُـسُ النظـرات إليهـا دون أن تـدري، سـألتُ سـامر بعـد أن فارقنـا فتياتنـا عـن جديـة علاقتـه بوئـام.. عـن الحـب الـذي أراه بعينيهمـا، عـن إذا ماكانـت علاقتـه معهـا ستنطلق أبعـد مـن مسـكة يـد ورقصـة سـهرة..

بضحكـة سـاخرة قـال: لسـتُ مغفـلًا حتـى أتـزوج فتـاةً كان يمكـن أن تكـون مـع غيـري. ثـم أسـتطرد بخجـل: لكنـي لسـت أنـت ووئـام ليسـت نيفيـن.. وضـع يـده علـى كتفـي وأكمـل.. أنتمـا خلقتمـا لتكونـا سـويًا.. ضحـك بمـرح... أمـا أنـا فخلقـت لأكـون عربيـدًا.

نسـينا في غمـرة مشـاعرنا أن أهـم مـن يجـب أن يعلـم بحبنـا لـم يعلـم بعـد.. أبوينـا.. لا أدري لـم تغافلنـا عـن إخبارهـم أو اصطنعنـا التناسـي خـلال ثـورة جنوننـا، أهـو الخـوف؟ أم أننـا حسـمنا أمرنـا ولـم يعـد هنـاك شـيء يسـتطيع أن يقـف في طريقنـا ربمـا كانـت نيفيـن تـدركُ سـطوة رقتهـا علـى أبويهـا لكـن مـاذا سـأفعل أنـا، وأنـا لا رقـة لـدي ولا سـطوة ولا عنفـوان.

المهـم أننـا أصبحنـا لا نفـترق أنـا ونيفيـن، كل حدائـق دمشـق تشـهد بذلـك، نهـر بـردى والفيجـة وبِقِّيـن يشـهدون بذلـك، كل سـائقي التكاسـي والميكروباصـات يشـهدون بذلـك، حتـى إنهـا اسـتطاعت أن تنتقـل مـن المجتهـد إلـى ابـن النفيـس لتتـدرب في مستشـفى واحـد، أخـرج مـن بيتـي كل يـوم قبـل أن تتمطـى الشـمس وأنتظرهـا علـى كرسـي موقـف الباصـات بشـارع ابـن عسـاكر.. تمـلأ الدنيـا علـي ضيـاءً حيـن تخـرج مـن حارتهـا التـي تحتضـن بيتهـا. أمـرُّ تحـت

نافذتها إذا كان الوقت مبكرًا لأجدها تسقي أصيص الآس والريحان المطمئنين تحت رشاتها، تبتسم لي وهي ترتدي منامتها وفي عينيها نظرة رعب، تختلسُ نظرات إلى الداخل وتأمرني بعينيها أن أغادر وأنتظرها بعيدًا، نجلس في الباص على كرسي واحد وأدفع جسدها برفق بمرفقي ثم أعتذر منها بأن الباص يهتز ويجعلني ألامسها فتضحك، وتقرص يدي بخفة طير نقرها وهرب.

دائمة الابتسام كانت، البِشْرُ لا يفارق وجهها، كلما رأت طفلاً تلاعبهُ، تضحكُ معه وتخرج من حقيبتها حلوى صغيرة تعطيه إياها بعد أن تشترط قبلة على وجنتها، وأنا الشاهدُ المذبوح بينهما أذوبُ من فرط حبي لها، كنتَ أغار منها وأغار عليها حتى من هؤلاء الأقزام الذين يحومون حولها، مدت رأسها ذات مرة لتقبل طفلة صغيرة تجلس بجانبي قدمتُ رأسي قليلًا فطُبعت قبلتها على وجنتي، سخنت وجنتاها وضرَبتني على يدي بخفة ونظرات غضب كاذبة تعيثُ بداخلي.

****

هنا...

ما إن وصلت جدة وهبطت طائرتي حتى وجدتُ يمان يحمل لوحة كتب عليها اسمي، بشاشةُ وجهه وجمال ابتسامته أنساني قليلًا ألم الغربة المتجدد الذي لا يفارقني منذ أن غادرت قريتنا، كنت غريبًا في دمشق ثم صرت حين أعود إلى القرية أشعرُ أني تركتُ جزءًا مني تحت أطواق الياسمين وها أنا أواجه وحشة اغترابي في بلد آخر، كان يمان يكبرني بعدة أعوام وما إن وصلت حتى احتوى قلقي وألمي الذي كان طازجًا حينها، ضمّد بعض جراحي التي لا يعرفها ولن يعرفها، أخذني بجولة بين أقسام المستشفى الذي نعمل به واستطاع بعلاقاته تسهيل أوراق اعتمادي ومتطلبات العمل سريعًا.. أعانني وكأنني كنت صديقًا حميمًا له، ساعدني في استئجار أول منزل في جدة، كان رئيس الوحدة التي أعمل بها قبل أن أصبح بعد عدة أشهر رئيس القسم كاملًا دون رغبة مني وبذلك صار يمان مرؤوسي، أحسست بغيظه حينها خاصة حين طلب أن يأخذ اجازة طويلة، جعلتهُ يملأ الأوراق ويوقعها بالنيابة عني كما رفضتُ الجلوس خلف مكتبه واستحدثتُ لنفسي مكتبًا أصغر علَّ ذلك يخفف من حنقه الذي تصبّهُ نظراته على وجهي، لم نفترق أنا وهو بغير ذلك الشهر، ابنتاه حلا وفرح يرتميان بحضني حين تدعوني

زوجته لتناول الطعام معهم، أحني ظهري ويمتطونني لأقلد صوت الحصان وسط صرخات ضحكاتهن ومراقبة ابتسامة والديهم، كان لديه ولد قبل هاتين الفتاتين لكنه مات بالحصبة الألمانية الداء الذي كاد أن يفتك بي حين كنت بالرابعة عشرة، حملني أبي حينها بعدما امتلأ جسدي بتلك البثور الحمراء واصفرَ وجهي وصرت أتقيأ كل ما أبتلعه.. في يومٍ قائض سقطتُ أرضًا بعد أن غشي علي ليهرول بي أميالا، تُغلّفُ عيناه نظرات هلع لم تستطع رباطة جأشه أن تخفيها.. زفراته الحارة تلفح وجهي وعرقه يسيل من جبينه، وعلى خديه وتتساقط قطرات منه على شعري قبل أن يجد حنطورًا يوصلنا إلى المركز الصحي في القرية المجاورة، كان وزيرنا نائمًا وتخاف الخادمة أن توقظه من قيلولته كما خاف سائقه أن يوصلنا بالمرسيدس السوداء التي تقيلُ هي الأخرى بجانب الفيلا.

تزوج يمان باكراً على عادة الحضارمة الذين يركبون قطار الجد سريعًا، الذين يقدسون المقدس ويدنسون المدنس، به طبع عربي أصيل أتعبني كثيرًا حتى استطعت الانفلات منه، في أولِ لقائنا قدم لي فنجانًا صغيرًا به سائل حار أشهب، ارتشفتُ منه رشفة ثم لفظتها بعد أن تشنجت عضلات وجهي، (شَرِهَ) عليَّ كثيرًا ذلك اليوم، قهوة الرجاجيل لا تُرَدْ كما قال، لولاي لكان يمان لا يزال

في حظيـرة القيـم التـي كان يرعـى بهـا، فاجـأني ذات ليلـة حمـراء يقـرعُ الجـرس حيـن كنـت بيـن فتاتيـن تلـف إحداهمـا سـجائر الحشـيش علـى فخذهـا، دعوتـه وأنـا بربـع رأس فدخـل وجلـس يراقبنـا بدهشـة وتوتـر ويصطنـع ضحكاتـه معنـا وهـو يمسـح عـرق جبينـه، اختفـت بعـد ذلك(علـوم الرجاجيـل) التـي صـارت ذكـرى نتنـدر بهـا. مـا شـربت الخمـر في حيـاتي ولا أظـن أني سأشـربه، لا لشـيء إلا أني كرهـت السـكارى الذيـن كانـوا يترنحـون ويسـقطون أمامـي في دمشـق تفـوح منهـم رائحـة قـيء مقـرف. أمـا يمـان فقـرر ذلـك اليـوم أن لا يتوقـف عـن الولـوغ في كل مـا كان يحرمـه علـى نفسـه.

لـم يكـن الحصـول علـى الحشيش والخمـر وحتـى النسـاء سـهلًا في سنواتي الأولـى هنـا، كان كل شـيء محرمًـا ولـم نكـن نسـتطيع أن نجـد مـا يؤرجـح عقولنـا إلا بعـد أن ندفـع مبالغـًا مـن المـال يقضـي علـى ربـع رواتبنـا؛ أمـا اليـوم فصـار كل مـا نريـد في متنـاول أيدينـا.

تعاهدنـا ألا نـدع مجوننـا يؤثـر علـى عملنـا، وأن لا نتبـولَ فـوق رغيـف خبزنـا، قـدّسَ هـو مبنـى المستشـفى الـذي نعمـل بـه حيـن اختفـت كل مقدسـاتنا، حاولـت وعزمـت أن أتبـع خطـاه لكـن تبعتنـي شـهواتي إلـى هنـاك ولـم أسـتطع مقاومتهـا.

قاسٍ هو صيف جدة، تجثم رطوبته على أنفاس كل شيء، تنهار ورود الحدائق تحت لفحاته ويضيقُ صدر الأشجار والنخيل بجنون حره حتى تلفظ فاكهتها وتلقيها ناضجة قبل أوانها، تمتلئ مستشفانا بالمرضى في الصيف، بينما يظلُّ شتاء جدة ناعمًا.. هادئًا وجميلًا لا يقوى إلا على دغدغة مشاعرنا، ولا يصيبُ أهل جدة بأكثر من زكام خفيف.

الشتاء يورثني حزنًا دمشقيًا.. بكاء سماؤه يشجيني.. صرخات رعده تفجعني وترميني في إعصار هموم، تتفتح أقسى صفحات ذاكرتي على كانون.

كنت أقف ذلك اليوم مع يمان بجانب طاولة الاستقبال حين دخَلَتْ، مرحبَ.. هكذا كانت تبتلع الألف الأخيرة حين تقولها، ردّ عليها يمان وهو يزيح رأسه كي يراها من خلفي، اتسعت عيناي، اهتز قلبي.. خافَ فنجان القهوة في يدي حين سمعتُ صوتها فارتجَّ وارتجف، قالت اسمي وأنا لا أقوى على الالتفات.. ما الذي تفعلينه هنا يا نيفين؟؟.. ينظر إلي يمان بتوتر وهو يرحِّبُ بها ويدعوها للدخول، أشّرَ إليَّ، وهو يقول هذا هو السيد كنان أمامك، ارتعشت عيني اليسرى.. مستقيلٌ وبدمع العين أمضي

مستقيلٌ وبدمع العين أمضي

صرتُ أردد هذه الكلمات بأحرفٍ مرتجفة.. وضعتُ فنجاني على الطاولة بعد أن تقيئ نصفَ ما في جوفه على الأرض.

التفتُّ أخيرا، نيفين أمامي تبتسمْ، لكنها تضع حجابا على رأسها، شعرُ غرتها صار أملساً وكستنائيًا، لمعة عيناها، استدارة وجهها، نحولها وتوسط قامتها، بحّتُ صوتها.

- مرحبَ استاذ كنان، انا لينا وقد..
- نيفين
- اسمي لينا استاذ كنان، متدربة جديدة معا..
- نيفين؟ !

توترت لينا وأنا أُبحلق بها، لم تعد تعرف بما تجيبني وأنا أكرر اسم نيفين تارةً وبيت الشعر تارةً أخرى، تعرّقَ جبيني رغم برودة أطرافي.. صرتُ أغمز لها بيسرى عيني كمجنونٍ داهمهُ جنونه على حين ذكرى.. تدخّلَ يمان وأخذها لمكتبي وأنا متسمر في مكاني كصنمٍ قرشي دُقّتْ أوتاده، عاد بعد قليل ووقف أمامي يلوح بيده أمام عيني الجامدة ويهز كتفي حتى أفقت من ذهولي، كان يريد أن يستلطفني ويزيح عن كاهلي شرودي، قال سأحضر لك الليلة

اثنين نيفين بس إهدا، أمسكت به بغتةً من ياقة قميصه وكورت يدي الأخرى فتراجع بهلع، كدتُ أقع بعد أن درات غرفة الاستقبال في عيني وخرجت مترنحًا، ركبت سيارتي وقدتها إلى بيتي أبكي ورجفان عيني يعميني.

هكذا كان يومي الأول مع لينا في كانون، كم عذابًا ستورثني يا شهر الشتاء، ألستَ موسم الحب والبرد؟ ألست موقدًا يأنس حولك المفقودين والعراة والمتعبين؟ أنا مفقود يا كانون، أنا عارٍ تصطك بحزنها أطرافي، متعب تمزقت أوصالي فلمَ تحرقني يا شتاء كانون؟ لم تلسع قلبي؟ لم توقظ من سباتها آلامي؟

أتُراها لا تشبه نيفين حقًا.. أتُراها اختلطت الصور والألوان في دوامة عقلي؟؟ وتداخلت الأصوات في مجسات استقبالي؟؟ أم أنها كما يتراءى لي نسخة من ماضيي؟ أسَكَنَتْ روح نيفين بها وجاءت تنتقم مني؟ أم أن مرضي بنيفين هو هاجسي؟

خافتني لينا وتجنبتي قدر ما تستطيع، ظلت ترمقني بنظرات شفقة حتى عودت نفسي على وجودها وظللت أنظر إليها أصطنع لا مبالاتي، تناسيت روح نيفين التي تسكن عينيها، عدتُ إلى جسدي المحترق فسكنته على مضض وأنا أشتمُّ رائحة بؤسي تنضح مني،

كلما أرادت لينا أن تسألني عن شيء أحيلها ببرودٍ لا يعكس اهتياج روحي إلى يمان فتذهبُ مطأطاة رأسها حتى توقفت عن سؤالي، صار يأتيني كثيرًا ليسألني عن أسئلتها فأجيبه فيجيبها حتى ضاق ذرعًا بي، اعتذرت منه على انفعالي سابقًا فعذر نوبة غضبي وترفقَ بشجوني، حاول أن يعرف حكاية نيفين هذه التي هذيت بها فكنتُ أدير دفة الحديث إلى أي شيء آخر حتى فهم مقصدي وانتهى عن أسئلته حين رأى ضيقي منها، لكنه رجاني أن أعفيه من دور الوسيط الذي يلعبه بيني وبين لينا فوافقتُ على مضض، التصقت بي لينا بعد ذلك، لا يأتي مريض حتى تجهز أوراق ملفه بسرعة ثم تسبقني إلى غرفته وتبذلُ جهدًا كبيرًا لإرضائي، لم أكن أدري أهي مشاعرُ تكنها لي أم حرصًا على إتمام عملها على أكمل وجه أم الأمرين معًا، لم أُستطع إنكار ارتياحي كثيرًا برفقتها خاصة حين صار العملُ أسهل بمساعدتها، بكت يوما حين أنَّ مريضٌ تحت قسوة يدي وغادرت والدموع تترقرقُ في عينيها غرفة طفلة كانت تصرخ وأنا ألوي لها مرفقها المكسور، ليتَ كل العذابات تصيبُ أجسادنا ولا تؤلمُ أرواحنا يا لينا، عذاب الجسد يزول حتى إن زال بموتنا.. أما أنينُ الروح.. ؟؟

مرت عدة أشهر على لقائي الأول بها ولا زلتُ أرتعشُ حين

أراها رغم أني بعد ذلك أمارس عملي برفقتها لكن كنت أنتفض حين كنت أدخل لأجدها أو تقع عيني فجأة عليها قبل أن أزفر ألمي وأتمالك أحزاني.، بكلا التناقضين كنتُ أجاهد نفسي على تجاهل مشاعري تجاهها واصطناع صرامة كاذبة معها معها فقط حتى أحست بفرق معاملتي لها عن باقي زملائها، بعض التجاهل أحلى من الاهتمامات والنظرات، أعمق من كل الكلمات.

ازداد مجوني بعد قدومها وصارت شموعي تنزف دموعها كل يوم وترسم صورة ظلي المتحرك فوق ظلال أخرى على جبين جدراني، تذكرت عامي الأول في جدة كيف كنت أعود إلى بيتي مساءً.. أتجرّعُ همي.. واتناول كسرات من فتات قلبي قبل أن أخلد إلى جحيم فراشي، سنة كاملة قضيتها أستيقظ على مخدة أمطرتُ فوقها سُحُبَ آهاتي.. أفرغتُ غيومي على مخداتي، وأفرغتُ شهوتي على فراشي... لم أجد إلا أجساد العاهرات ظلًا أحتمي به من زخات ألمي.

بعد حادثة الضرب الذي ناله يمان في المقهى جاء دورهُ كي يُقَرعُني ويرفض الخروج معي كل يوم، يقول إنني تماديت في فجري وأنه لا يستطيع مجاراتي، كنا نعربد يومًا في بلوليفارد جدة

ويوما في ما يدعونها مقاهي وإن لم تكن إلا ملاءٍ ليلية تشبه تلك التي تركتها على أطراف دمشق.

حين ازدادتْ وطئةُ لينا على قلبي قرّرت أن أعتزلها، أخذتُ إجازة مفتوحةً من عملي لكنها لم ترحمني، صارت تراسلني وتتصلُ بي كلما حلى لها أن تؤرق مضجع ألمي، وأنا أتقلب بين نار وصالها وجحيم تجاهلي لها.

وها هو أبي أمامي.. فتحت له الباب لأجده كما هو، لم تستطع سنين غربتي الخمسة عشر أن تغير أي شيء به سوى أن شعر لحيته صار أبيض كندف الثلج، قامته الربعة كما هي وظهره مشدود كما رأيته آخر مرة وعيناه حادتان كعينا صقر يرصدُ أبداً فرائسه، يحمل في يده حقيبتي الجلدية الصغيرة التي تركتها في قريتنا وفي الأخرى عكازه الأسود، يلبس ثوبه الرمادي وشماغه الذي يزيد من احمرار وجهه، لمعت عيناه وتباعدت شفتاه الدقيقتان عن ابتسامته التي كانت دائمًا ما تراود خيالي، قفزت من مكاني وانكببت عليه.. احتضنته وقبلت رأسه ويديه وحملت عنه حقيبته، سبقته إلى الصالة وأجلسته على الأريكة بعد أن خبأت منفضة السجائر تحتها، أحضرتُ له كأس عصير فوضعهُ أمامه ولم يقربه من شفتيه.

سألته عن أخبار قريتنا، عن أمي وأخوتي، ظل يردد الحمدلله.. الحمدلله على جميع أسئلتي دون أن يُشبعني برد يشفي غليل شوقي، أحسستُ أنه متعب من رحلة سفره، لم أسأله كيف وجدني واستدل على بيتي رغم أن هذا السؤال ظل يراودني لكني خشيتُ أن يسيء فهمي، أردتُ أن أعتذر عن عدم مهاتفتي لهم وتواصلي لكنني آثرتُ السكوت وقمت أجهز له غرفة النوم التي أثثتها ليمان سابقًا حين طردتهُ زوجته قبل أن يعود إليها ويتركني، تركتُ أبي لينام، قبلتُ رأسه حين أستلقى على سريره وخرجت.

سمعتُ وأنا في غرفتي بعد قليل صوت قبقابه الذي صار يطربني، لم تغيرك السنون يا أبي ولم يشترِ اليأس شيئًا من بضاعتك، أنت أنت في صغري.. أنت أنت في شبابي وأنت هو أنت اليوم في كهولتي.

أردت أن أنزل لأدله على اتجاه القبلة ثم أدركت جهلي، أي صوب أيمم وجهي وأنت قبلتي يا نيفين؟ خمسة عشر عامًا وأنا أُقَلِّبُ وجهي صوب دمشق، صوب شارعك وحارتك وبيتك، روحها كانت محرابي، وجهها كان مسجدي وصومعتي.

طبعًا لم أستطع النوم كعادتي، كيف وأبي يحيطني بعد سنين

فراق طويلة، صارت تمر أمامي ذكرياتي معه وصورة بيتنا في القرية، أمي.. أحمد وحمزة وعلي، انتابني صداع طفيف قبل أن أسمع صوت باب بيتي يُفتح وتهادى إلى أذني صوت المؤذن قويـًا ما بين فتحة باب وانغلاقتها، قمتُ من فراشي وأنا أدلك رأسي، أردتُ أن أتبعه حتى أُدله على طريق المسجد ثم أطرقتُ برأسي خجلًا منه على جهلي، دخلت المطبخ حتى أعد إفطاراً لأبي فلم أجد شيئًا في ثلاجتي، وضعتُ لأبي مفتاح البيت تحت أصيص زرع بجانب باب بيتي وعلّقتُ ورقةً على المقبض، تركت فرجةً في بوابة الفيلا الخارجية حتى يستطيع الدخول، اشتريتُ إفطارًا بعد أن بحثت عن أقرب مطعم بخرائط جوالي، أدركت أنني لم أحظَ بفطورٍ ولا مرة واحدة مذ أن وطأت قدماي هذه المدينة.. وأدركت كم نتنكر لإدراكنا مادامت الحياة تسير بنا على رتمٍ واحد، كيف تجاهلنا عظمة أن تطل علينا الشمس كل صباح لتختبئ مرة أخرى خلف الأفق ولو أنها ما كانت كذلك لما اعتدنا عليها، كيف تناسينا أنَّ هذا الهواء الذي لا نراه هو سبب رؤيتنا بل وجودنا، كيف تخيلتُ أن هذه المضخة التي تنبض في جوفي تستطيع أن تعيش بلا نيفين، أن تضخ بلا نيفين، أن تخفق بلا نيفين.

لم أجد أبي، جهزت له فطورًا وتركته على الطاولة مع إبريق

الشـاي بالطريقـة التـي يحـب، أحمـر قـاني بـدون أي اضافـات، لـم أسـتطع أن أُنهي عملي باكـرًا كما أحببت ولـم أعـد إلا قبل الغـروب إلى البيـت، تفاجـأتُ حيـن دخلـت منزلـي ووجـدتُ الورقـة معلقـة في مكانها كما هي و أن والـدي لـم يعدُ بعـد، كما وجـدت الفطـور كما هو على الطاولـة، خرجت أبحـث عنه وطيفُ قلقٍ يحـوم حولـي، وقفـتُ أمـام بوابـة الفيـلا أنظـر بيـن وجـوه النـاس، لعلـه لـم يسـتدل مـكاني؟؟ لكـن كيـف وقـد أسـتدله قبـل ذلـك؟ لأول مـرة أسـير بيـن طرقـات الحي على قدمي ولا أعـرف أيـن أبحـث، أتأمـل وجـوه النـاس الذيـن استغربوا وجـود جارهـم الفاسـق لأول مـرة بينهـم، وأدركـتُ غربتـي فـوق غربتي فـوق غربتي، خطـرت لـي فكـرة أنـه قـد يكـون في المسـجد الـذي لا أعـرف طريقـه، سـمعت صـوت أذان المغـرب فتبعتـه ُ أذنـاي حتـى تـراءت لـي المنـارة الخضـراء مـن بعيـد، وقفـت أراقـب جمـوع المصليـن يخرجـون وهـم يسـلمون علـى بعضهـم، يقفـون جماعـات صغيـرة ويخطفـون نظـرات سـريعة تجاهـي، نظراتهـم تلسـع ظهـري ريبـةً وقلقـًا، دخلـت المسـجد، أربعـة أشـخاص يصلـون هنـا وهنـاك وأبـي سـامحه الله يجلـس متكئًـا علـى إحـدى إسـطوانات المسـجد، يتربـع وبحضنـه مصحـف كبيـر أزرق، تنهـدتُ عنـد البـاب حيـن رأيتـه هنـاك ثـم جلسـت إليـه فالتفـت إلـي التفاتـة سـريعة وعـاود القـراءة

بصوته الأجش الشجي، انتظرته ينتهي لأعيده معي إلى البيت لكنه أطال، بدأ الناس يتوافدون إلى المسجد مرة أخرى من أجل صلاة العشاء وهو لا يزال يقرأ، خدرت قدماي فتململت.. وصل إلى آية أعادها مرتين وثلاث، رفع صوته وهو ينظر جهتي ويهز رأسه (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون)، ارتجف قلبي، اهتزت أطرافي، تلعثمت شفاهي.. أكمل وكأنه ما فتفت قلبي وبثَّ الرعب في صدري.. صدح المؤذن فأقفل مصحفه ونظر نحوي مبتسمًا، قلت له متلعثمـًا أني بحثت عنه وأنه لم يتناول إفطاره وأنني وأنني.. ينظر جهتي مبتسمًا وهو يتمتم بذكر لا أسمعه ثم أسند قبضة راحته على الأرض وقام.. تقدم إلى الصف الأول وتركني، خرجت أدافع الداخلين حتى فرغت الصلاة وعدت مع أبي إلى البيت، رجوته أن نذهب إلى أي مطعمٍ لنأكل لكنه أبى.. وضع يده على رأسه وأماله ففهمت أنه يريد أن ينام.. لا أدري ماذا أكل هذا الشيخ ومن أطعمه حتى يبدو بهذه القوة التي لا تتناسب مع سنوات عمره السبعين، أو الثمانين.. يبدو أني نسيتُ عمر أبي، له كرش غريب يتقدمه لكن أكله لم يكن يومًا إلا كنقر العصافير، تخيلتُ أنه قد يكون وليًا من هؤلاء الذين كنت أسمع عنهم في صغري يُطْعمونَ بيد خفية لا نراها؟ سخرتُ من نفسي حين تبادر إلى ذهني خرافات أضحكُ

منهـا، نـامَ أبـي يلتحـف أذكاره وسـهرت أنـا أتغطـى بعهـري ومجـوني، هـل يُعقـل أن حيـاتي سـتتغير الآن ولـن أسـتطيع السـير بهـا علـى نفـس مجـوني قبلـه؟ كـم سـيبقى؟ مـا الـذي جـاء بـه؟ كيـف اسـتدلني؟؟ دخلـت غرفتـي أبحـث في خزانتـي عـن مـا أرتـدي لأخـرج.. تسـمرت قليـلًا أمـام بـاب الـدولاب المفتـوح.. أغلقتـه.. اسـتلقيت.. نمـت.

استيقظت في الثالثـة، يـا إلهـي.. كـم أشـعر براحـة تغمـرني، ظننـت أني نمـت يومًـا كامـلًا، فـارق النـوم جفنـي منـذ سـنين طويلـة إلا لممًـا، كثـرت إدراكاتي وهـا هـي تشـارك ذكريـاتي العبـث بأفـكاري.. نهضـت ونزلـت ليـس سـريعًا كمـا تعـودت، قبلـتُ صـورة طفلتـي ثـم وضعـتُ سـبابتي علـى أنفـي كأني أخبرهـا أن لا تصـدر ضجيجـصا يزعـج أبـي ثـم مسـحت علـى رأس الغـزال بهـدوء وقبلتـه كتلـك القبلـة التـي يضعهـا الآبـاء علـى جبيـن أبنائهـم بعـد أن يسـلموا أعينهـم لسـلطان النـوم، علـى رؤوس أصابعـي دخلـت غرفتـه، سـمعت شـخيره يزعـج أذن الظـلام، أقفلـت بابـه مـرة أخـرى وخرجـت.

***

تعرفـت علـى صوفيـا بعـد أن سـكنتُ ببيتـي هـذا بشـهرين، كـان اسـمها وحـده يثيـرُ جنـوني، سـمراء أربعينيـة تكـبرني بعشـرةِ أعـوام،

تطلقت من زوجها قبل سنتين، لملمت جراحها النازفة من روحها قبل جراح وجهها وجسدها التي كان يسببها لها.. لديها ندبة جميلة فوق حاجبها الأيمن كثيرًا ما كنت أمرر إصبعي عليها وألثمها، تقول إنها أثرُ رزمة مفاتيح قذفها بها طليقها، كانت تأتي إلى المستشفى لألم قديم في أسفلِ ظهرها، تأوهاتها وأنا أدلكها كانت تفتك بي، تصطنع ألمـًا لذيذًا تهتز له رجولتي، في الجلسة الرابعة ارتدت ملابس داخلية لا تغطي شيئًا من مؤخرتها وتقصدت إظهارها من تحت بنطالها، كانت عضلاتها مشدودة وقوية على نحافتها وكانت تملك أجمل مؤخرة رأيتها طوال عمري، لم أستطع أن أقاومها، لا أتمادى أبدًا مع مرضاي.. مهنيتي عالية معهن.. إلا صوفيا استطاعت أن تمزق أوراق موضوعيتي، كانت حبّاتُ العرق تتصبب على جبيني وأشياء أخرى تنز على فخذي، وكانت يداي ترتعش فوق أنينها، استمر علاجها شهرًا كاملاً ولكن منعني الخوف على وظيفتي من إخبارها باشتهائي لها ورغبتي بسماع أنينها على فراشي، بآخر جلسة علاج أخبرتها أنها أصبحت بأفضل حال وعلمتها بعض التمارين العلاجية التي تستطيع أن تفعلها في منزلها، بعد أن انتهى وقت الدوام وجدتها تجلس على الكراسي المعدنية خارج القسم، عرضتُ عليها أن أوصلها إلى

منزلها فقبلت بشرط أن أقبل دعوتها على الغداء، في المساء كانت تدخن سيجارة وهي ترتدي قميصي الأبيض وتسند ظهرها على ظهر سريري، لم تطل علاقتي بأحد غيرها، قضيت أشهراً معها تسقيني من ماء رغبتها وتهطلُ عليها أمطارَ جنوني، أطلبها فتأتي وتتصل بي فأدعوها.. قررنا بعد أشهر أن يستقر بها المقام عندي، لتبقى أكثر من شهرين في بيتي، كانت تعاملني كزوجها الذي كانت ترغبُ بتدليله، وأحيانًا كابنها الصغير الذي لم تحظَ به، أصِلُ من عملي لأجد رائحة شهية تغمر أنفي، تطعمني بيدها كطفل عزف عن الطعام، ثلاجتي الفارغة إلا من قوارير الماء وعصائر البروتين صارت متخمة بكل طعم ولون تشتريه من سوبرماركت الحي أثناء غيابي، تجهز لي حمامي وتملأ حوض استحمامي بورد أحمر ثم تنزل به معي وتدلك ظهري بقدميها، تمارس معي جوع رغباتي الدائم تحت الماء ثم تجرني من يدي ونكمل هيجانًا يلتهب له فراشي، كانت تتلمسُ عضلات كتفي النافرة وتسميها تقاسيم قلبي وتمر بأصابعها على عروق يدي وتقول هذه خارطتي ما عادت خارطة العالم تعنيني ثم تقبلها بشهوة تكاد تكون مرضًا، بعد انقضاء شهرين تركَتْ بيتي وغابت عني، صرتُ أدخل بيتي فلا أجدها.. أفقدها، استحم بماء لا طعم له وهي التي لونت طعم

مائي.. أخرج وأتصل بها فتجيبني ببرود ما تعودته منها، أحيت بي مشاعر، كنتُ أظنها ماتت وذوت وإذا بي لا زلتُ أكتنفها بداخلي، صار خيالها يراودني في عملي وفوق سريري، وأرى وجهها على فقاقيع الصابون في حوض استحمامي، أتصلُ بها فترد يومًا وتمتنع ثلاثة ثم اختفت أسبوعًا كاملًا قبل أن تجيبني وتواعدني وتأتي، بعد أن مزقت صرخاتها رداء الليل.. سألتها عن اختفائها وبحتُ لها بشوقٍ نسيته منذ أن وطأت قدماي جدة، قالت وهي تصالب قدميها خلفها وتسند وجهها على يديها أن علاقتها بي أجمل هكذا، إنها لا تريد أن تعرف شيئًا عني وأنني يجب ألا أهتم بمعرفة شيء عنها، قالت لا مشاعر يا كنان بل جسد وكفى.

من هاتفها صدحت أغنية كاظم الذي كنا نجتمع على حبه وغنت معه.

(أحبيني لأسبوعٍ.. لأيامٍ.. لساعاتٍ.. فلستُ أنا الذي يهتمُّ للأبدِ).

علمتني صوفي أن لا يطول بي المقام مع فتاة أنام معها وأن قلبي أضعف من أن يتحمل علاقات طويلة الأجل.. حدثتها عن سامر الذي يعتنقُ مذهبها، أيّدت قوله وهي تضع يدها على صدري:

أقفل هـذا ثـم نزلـت بيدهـا علـى بنطالـي وهـي تضحـك.. ولا تِهـبُ أحـداً غيـر هـذا.. لدهشـتي أجابتنـي حيـن سـألتها مـا سـألتُ بـه كل فتـاة أقابلهـا إن كانـت تعـرف معنـى (مائـة وثلاثـة وأربعـون) قالـت لـي وهـي تضحـك أنهـا شـفرةٌ لكلمـة أحبـك، رمزٌ قديـم انتشـر بيـن فتيـات المـدارس حيـن كانـت صغيـرة ويشـير كل رقـم إلـى عـدد حـروف كلمـة باللغـة الإنجليزيـة فواحـد يعنـي I وأربعـة تعنـي LOVE وثلاثـة تعنـي YOU، ضربـتُ علـى رأسـي حيـن اسـتطعتُ بعـد كل هـذه السـنين حـل هـذه السـر الـذي كان يؤرقنـي، أحبتنـي نيفيـن قبـل أن أصارحهـا إذاً وصرحـت بذلـك أمـام وجهـي دون خجـل مسـتغلة جهلـي، ضحكـتُ مـع صوفيـا ونزلـت دمعـة مـن عينـي مسـحتها وقبلتنـي علـى رأسـي ثـم شـفاهي ثـم مارسـت معـي مـا أفـرغَ بهـا أفـكاري، كانـت صوفيـا شـهية، خبيـرة بإسـعاد سـريري وتشـتيت شـمل همومـي، تغرقنـي ببحرهـا حيـن يمـوج وينتفـض، رعشـاتها تشـعلُ بـركاني وتفجـر حممـي.

بعدهـا لـم يعـد لـدي إلا محظيـات الشـوارع والمقاهـي، ليلـة أو ليلتـان ثـم أتوقـف عـن الـرد عليهـن ثـم صـرت لا أمنـح رقـم هاتفـي لأي منهـن. إن أعجبتنـي واعدتهـا في مقهـى في اليـوم التالـي وإن كرهتهـا أطعمتهـا شـغفي وأشـبعتها رغبتـي ثـم تركتهـا.

خرجت (صوفي) كما يحلو لها أن أناديها من عندي يومًا والتقت صدفةً بسعيد وأنور عند مدخل الفيلا وهم قادمون لإكمال السهرة عندي، فقد سعيد عقله بها، (يا طولها طولاه يا جسمها جسماه يا قلبها قلباه) ظلَّ يردد وهو في حالة وجوم وخبَل وابن عمه يقول له (إثقل يا خفيف)، فجأةً ألقى علي بعنف تفاحة كانت بيده فأصابتني ونحن نقهقه من هول ما ألمَّ بعقله، طلب مني بأدب غريب على صلافته رقم هاتفها فامتنعت واستغربتُ مجونه وقلة حيائه مني، توسل ثم توسل ثم هدد ثم أرعد وأزبد، أخذ هاتفي عُنوةً من يدي وحاول فتحه ثم أخذ أصبعي ليفتحه ببصمتي، بعد أن دارت لفافات الحشيش برؤوسنا، قلت له أني سأتصل بها وإن وافقت أعطيته رقمها، قالت ضاحكة لا بأس إن كنت لا أمانع، أخذ الرقم ولعابه يكاد يسيل من شدقيه، ابتعد عن مجلسنا وأتخذ ركنًا بعيدًا عنا ثم انشغل طوال سهرتنا بمراسلتها وعيناه تتقدان حبًا، وسط ذهولي وذهول يمان عرفنا لاحقًا أنه تزوجها.. قطع سعيد علاقته بنا تمامًا، لم يعد يتصل بي هو ولا ابن عمه أبدًا، وحين كنت أتصل بهم لا أسمع نغمة في أذني فعلمت أنهم قد حظروا رقم يمان ورقمي.

لا قيد للحب حين يغمر أحشاءنا، يتحرر من كل أغلاله، ينسى

كل آثامـه، يتحـدى جلاديـه ومجتمعـه، كان سـعيد شـجاعًا، بطـلًا فينيقيًـا، آثـر رغباتـه علـى فكـره وعاداتـه، أم أنـه كان غبيًـا؟ لا أدري.. أكان سـيعيش سـعيد سـعيداً معهـا، أم أنـه إذا أنـزل بهـا فكرتـه ذهبـت سكرته؟ مـا كنـت أسـتغربه حقًـا هـو كيـف لامـرأة شـهية مثـل صـوفي أن تحكـم علـى نفسـها بالسـجن مـع الملامـح الشـاقة لسـعيد الأحـول أبـو شـبر ونـص الـذي يصغرهـا بعشـرة أعـوام وإن كان واقـع شـكليهما عكـس ذلـك وكيـف تسـتطيع امـرأة مثـل صـوفي التـي تشـبه دمشـق بعقـد ياسـمينها أن تدفـن نفسـها تحـت رجـلٍ رقبتـهُ رغـم طولهـا أقصـرُ من كتفيها.

ابنـا العـم «الجنوبيـان» هـؤلاء مسـليان، وإذا اجتمعـوا بيمـان يتحـول مجلسـنا إلـى ديـوان عنصـري مضحـك، رغـم أنهـم جميعًـا ينحـدرون مـن سلسـلة واحـدة وقـد يكونـا أبنـاء عمومـة إلا أن كل واحـد منهمـا يتفاخـر علـى الآخـر بنسـبه أو قريتـه أو نطـف جـده السـابع، لا أرى في جـدة أحـدًا إلا يكـون قادمًـا مـن مدينـة أخـرى أو قريـة أخـرى أو بلـد آخـر ولا أعـرف مـن هـم أهـل جـدة الحقيقيـون الذيـن لـم يفـدوا إليهـا مـن شـمال أو جنـوب، مـع الوقـت يـذوب الجميـع في بحرهـا ويتلـون بشـفقها ويخضـع لسـحرها ويصبـح الجميـع جداوييـن.. جداوييـن كسـمك البحـر الأحمـر الـذي لا يفارقـه إلا إلـى المـوت.

كان سعيد هو مورّدُ الحشيش الرسمي لشلتنا، كنا نسميه (ولي النعم) بدلًا عن يا هلا بالأحول أو يا مرحبًا بالشبر حين كان يدخل إلى البيت وضحكة خبيثة تختبئ خلف عينه كما تختبئ قطعة الحشيش في جيبه، نُزيفُ احترامًا لا يلبثُ أن يتحول إلى شتائم وسخرية حين يخرج لنا غاية عقولنا من مخبئه، اكتشفتُ أمره حين أحضر (السطلة) الأولى سرًا إلى شقتنا التي كنا نسكن فيها سويًا، كان يخرج علينا أحيانًا من الحمام محمر العينين رائق المزاج ويضحك على أتفه الأسباب وكنت أعتقد أن خفة ظله تزداد حين يصبح نظيفًا والحال أنه كان يصهلُل حين يعلو فوق السحاب، اقتحمت عليه البيت ذات صباح على حين لفافة لأجده يطوي سجائره في صالة الجلوس، ضحك بتوتر وهو يرحب بي وقد اتسعت عيناه المحمرتان.. حاول أن يخفي الورق وقطعة الحشيش السوداء لكنني طمأنته بابتسامتي وجلوسي بجانبه ثم استنشقت قطعة الحشيش التي استخرجتها من تحت الكنبة بملئ روحي.. حين اطمئنَّ الي أخرج لفافةَ صنعها بعناية من علبة دخانه وأشعلها لي بعد أن رأى شيطاني مبتسمًا في وجهي، أمرني أن أكتم أنفاسي بعد أن سحبت أول جرّةِ نغم وأن أبقيها في صدري، اصطبغت الدنيا

بألـوان قـوس قـزح وماجـت الصـور في عيني، أحسسـت بي أخـرج مـن جسـدي وأطيـر لألتصـق بسـقف الغرفـة وأراني مـن فـوق أجلـس مـع سـعيد، تملكتني الدهشـة للحظات وأنـا أنظرني من شـاهق ثـم عصـف بـي الضحـك حتـى كـدت أسـقط مـن علـوي هـذا، دخّنْـتُ ودخنـت حتى صرنـا أنـا وهـو وأشياء أخـرى لا أعلـم ماهيتهـا نطفـو فوق سـحابة بيضـاء، قـام فجـأة من مكانـه وأراد أن يخـرج ليشـتري لنـا شـوكولاتة أو أي شـيء نزيـل بـه العلقـم الـذي التصـق بحلوقنـا، لـم يسـتطع حينهـا أن يربـط خيـطَ حذائـه، نزلـتُ وقرفصـتُ عنـد قدميـه لأسـاعده لكننـي صدقـا نسيتُ الطريقـة، لا أدري كـم مـن الوقـت كنـت منبطحًـا تحـت أرجلـه وهـو يرشـدني مـن علـو عرشـه.. لا لا ليـس مـن هنـا.. أحضـر الحبـل الآخـر مـن هنـا، يـا ثـور مـن هنـا مـن هنـا وهـو يصـرخ وأنـا أضحـك وتهتـز يـداي، انتبهنـا بعـد ذلـك إلـى وجـود صنـدل علـى بعـد نصـف متر مـن انبطاحتي فخلـع حـذاءه بعنـف ليرتطـم بالتلفـاز المعلـق في آخـر الصالـة ويكسـره، ضحكنـا حتـى بـال سـعيد علـى نفسـه وبلـتُ علـى نفسـي حيـن رأيـت بقعـة المـاء تكبرُ علـى بنطالـه.

شـاركنا بعـد ذلـك يمـان وأنـور في حشيشـتنا وصرنـا نبتـاع كل شـهرٍ مـا يكفـي لنـا جميعًـا، لـم يكـن شـيئًا مثـل هـذه اللفافـة يخرجنـي مـن

جسدي وينسيني كل ما يموجُ في عقلي.. أحببتها وابتعتُ لها علبة خشبية مزخرفة، تنام فيها قطعة الحشيش السوداء بجانب مبضع صغير وقداحة ذهبية خاصة بها فقط وابتعت لها أوراقًا بيضاء تغطيها وتلتف حولها.. يعتدل مزاجي حين أقبل شفتيها وتطير بي في عالم الأوهام والهلوسات حين أستنشق روحها.

المهم أن سعيد كان سلوى لقلبي، يضحكني بكل ما أوتي من ظرافة.. قصر قامته وحول خفيف في إحدى عينيه كان يثير شغب ضحكاتنا حتى قبل أن يتندر، كنت أدعوه (شبر ونص) وكان يدعوني رغم اسمرار بشرتي (الأحيمر) فقط لأنني من بلاد احمرّت خدودَ أبنائها وتقرمزت أرضها بدمائهم، وجد وظيفة في خطوط الطيران وعمل مهندسًا في قسم الصيانة.. كاد أن يتسبب بكارثة في إحدى الطائرات فطُرد بعد عام واحد فقط، ذات صيف ذهب أيامًا إلى قريته وحين عاد سقطت من جيبه ورقة كُتِبتْ بخط رديء.. بأحرف إنجليزية وكلمات عربية، كانت من خادمة بيت أهله الفلبينية.. (أنت ليش مافي صبور يا سعيد، أنا في تعبان شويه، لازم صبور يا سعيد)، ضحكت حتى تبللت عيناي بالدموع وتلوّت أمعائي.. حلفني الأيمان أن أستر ما بدى لي لكنني لم أستطع كتمان عهره

ومجونه على خادمة بيته. أحسستُ بعد أن فقدته أنني فقدت جزءًا غاليًا من كياني، لم يكن سعيد في يوم صديقًا مخلصًا، بل لم يكن صديقًا ولا بأقل معنى للرفقة، كان أراجوزاً يضفي لونًا عابثًا على حياتي، الضحك القادم من أعماقنا يقربنا من ذلك الطفل الذي يختبئ بدواخلنا، يحيي شقاوة أيام غابرة ترتع في ذاكرتنا، ينسينا في لحظات الكثير من مآسينا، علمني سعيد كما علمتني صوفيا أن الناس يرحلون، أن علاقاتنا بكل من هم حولنا مزيفة و زائلة، أن لا أعاملَ أحدًا إلا بالحد الأدنى من مشاعري وأن أصل العلاقات بين الناس، كل الناس المصلحة والمصلحةُ فقط.

رحل سعيد بعد أن أوصلني بتاجر لفائفه، أخذني ذات مساء معه إلى حي الخاتم، توقفنا بجانب بيوت شعبية قديمة وعيون كعيون القطط تلتمع بمراقبتنا.. خليك عادي ولا تحط عينك بعين أحد.. أجرى مكالمة هاتفية مقتضبة.. أنا في الحارة.. بعد دقائق طويلة جاء رجل نحيل يلتمع سوادًا، يرتدي سلسلة ذهبية وسوارًا، وضع كنان ورقة زرقاء في يمناه وسلم على الرجل من نافذته.. أشار إلي وقال.. كنان.. هز الرجل رأسه بعد أن تمعنني ثم غادرنا وبيد سعيد إصبع حشيش مغلف بقصدير، كان سعيد يعد عُدتهُ لمفارقتي.

***

هناك...

أرادت نيفين أن تُمهد لخطوبتنا، فكرنا كثيرًا حتى اهتدت إلى أنني يجب أن أقابل والدها الذي أحببتهُ وكرهته في نفس الوقت من كثرةِ حديثها عنه، اقترحت لقاءً قصيراً يراني فيه بعد أن تخترعُ أمرًا ليزرونا في الجامعة.. متأكدة من أنك ستنال إعجابه.. كذلك قالت، جاءت إلى الكلية ذات صباح تتأبط يده، أبو ضياء، هكذا كانوا يدعونه منذ كان صغيرًا مع أن نيفين ابنته الوحيدة.. لا أدري لماذا نحن معشر العرب نُحبُّ أن نُكَنّيَ أبناءنا منذ نعومة أسمائهم.. نستجدي الحياة كي تجعل لهم ولدانًا.. أن تحمل على أغصانهم همومًا ما حان وقت قطافها.

.. تقول نيفين إن والدها هو صديقها الأول منذ سنين طفولتها وأنني أذكرها به، إذا أحبت الفتاة والدها يَصير فارس أحلامها نسخةً منه، لن ترضى برجل يمدها بأقل مما يمده بها أباها، يُغرِقُ قلبها عاطفةً لتكونَ بعدها عصيةً على أي أحد، شعرتُ بالغيرة أكثر وهي تمشي جانب هذا الرجل الذي لا أعرفه، وسيماً رغم سنوات عمره الخمسين.. شابٌ بقميص عشبي وبنطال أسود، شعره الأسود كالفحم مصفوف بعناية فائقة وعيناه لوزيتان يخفيهما خلف نظارة

أنيقة، رأيت صديقات نيفين يركضن تجاهها ويسلمن عليه وهو يبتسم لهن ويمازحهن ثم يقفن بعيدًا عنه.. أكاد أسمع بما يتهامسن ويضحكن.. تجرأت إحداهن فقبلته على خده المحلوق بعناية ثم انطلقت تركض جانب صديقة لها.

كنت قد اتفقت مع نيفين على أن ألحق بها إلى الكافتيريا وأن أقدم له فنجان قهوة، لا أدري لماذا فرحت حين قالت إنه يشبهني باختيارها مع أن جل أهل الشام يختارونها مثلنا، سادة تمامًا بلا سكر أو هيل أو نكهة؛ وكأننا جميعًا نريد أن نخفف مرارة الحياة بلذعة قهوتنا، لكني شعرت بتوتر كبير وبمغص تتلوى به أمعائي حين عقدتُ المسير إليهما، ما بالُ هذا الجسد يحشر أنفه فيما لا يعنيه.. ما بال أجسامنا تتفاعل مع نفوسنا ومشاعرنا وأرواحنا؟؟ شحذتُ من الهواء نفَساً عميقا وثانياً وثالثاً ثم قمت من كرسينا الذي كنت أراقبهم عليه بعد أن أختفى الجمع داخل الكفيتريا.. لا زال هناك مجموعة من زملائها يسلمون عليه وهو جالس هناك بجانبها يصالب ساقيه على بعضهما ويبتسم لهم، نيفين كانت تنظر جهتي بخطفات بصر وتبتسم ثم أخرجت منديلا من حقيبتها واصطنعت تجفيف عرقاً سرابياً على جبينها. وجدتُ جبيني يبكي

حين مسحتهُ بيدي، أخذت منديلًا من البائع وحملت فناجين القهوة الثلاثة.

تثاقفتُ كثيرًا بعد أن جلستُ إليهم واصطنعتُ شخصيةً لا أعرفها كفتاة رأت فارس أحلامها وتُريد لفت انتباهه، ابتكرتُ وقارًا لم يكن من سماتي أبداً وتغافلت عن غمزات أصدقائي من ورائه وحركات يديهم العابثة، وكذلك عن ابتسامة نيفين التي أشرقت على وجهها كما يشرق الصبح بعد أن تستيقظ الشمس وتمطُّ ذراعيها في كبد السماء، فرُغت فناجيننا وأدركت حينها أنني تحدثت كثيرًا وأني لم أستمع إليه أبدًا كما أنني عارضته دون وعي مني ببعض نقاشاتنا، المحصلة أنه قام وربت على كتفي بعطف.. قال لي مبتسمًا: سيكون لك شأن يا ابني لكن انتبه من هذا وأشار بإصبعه إلى رأسي.. قد يودي إلى هلاكك. ارتجفت شفتي بابتسامة شاحبة وصافحتهُ بيدٍ باردة ولا أدري إن كان ما يقصده إعجابًا أم استهزاءً. كانت نيفين تجلس بجانبه وكأنه فعلًا صديقها، لم تكن خائفة أو متوترة مثلي بل كان وجهها ينضحُ سلامًا.

مضى اللقاء الأول بخير كما مضت سنتنا هذه، كانت نيفين سعيدة بلقائي بأبيها.. جذلةٌ كطفلٍ نال لعبتهُ الأولى، تقول إنه

كان معجبـاً بجموحـي وسـعة عقلـي وحتـى تضـارب آرائـي.. دبَّ فيهـا حمـاسٌ عـارم وصـارت تتقافـزُ حولـي كأرنبـة أُطلقـت طفلـةٌ صغيـرةٌ سـراحها، دعتنـي إلـى شـطيرة برغـر في الصالحيـة وأصـرت أن نذهـب مشيًا إلـى هنـاك رغـم بعـد المسـافة، طـوال الطريـق ظلـت تعـبر عـن سـعادتها وأحلامهـا وهـي تلهـثُ انفعـالاً وفرحـا.. تتحـرك كثيـرًا، تمشـي عـن يمينـي ثـم شـمالي ثـم أمامـي وهـي تديـر ظهرهـا للطريـق وتمسـك يـدي، أردنـا أن نقطـع شـارعـاً فقبضـت علـى يمينـي وطلبـت منـي أن أغمـض عينـي، سـرت بجانبهـا بثقـة وهـي تشـد يـدي وتوقفنـي وأنـا أسـمع صـوت أبـواق السـيارات الغاضبـة دون خـوفٍ أو وجـل وصرخـات مرحـة تنبعـث مـن حنجرتهـا، حيـن وصلنـا جلسـنا علـى الرصيـف جانـب مطعـم الوجبـات السـريعة الصغيـر في سـاحة عرنـوس.. ونحـن نـأكل صدحـت مـن أحـد المحـلات أغنيـة كلمـات التـي كنـا نحبهـا، أنـا ونيفيـن وربمـا كل عاشـقين نجـد أنفسـنا دائمًـا بقصائـد نـزار المغنـاة ونحفظهـا جميعًـا، تغنـي لـي أغـاني ماجـدة وأشـدو لهـا إبداعـات كاظـم، أمسـكتُ بيدهـا وجرفنـي الحـب وأنـا أتأمـل لمعـان عينيهـا، وضعـتْ شـطيرتها بجانبهـا وضغطـت علـى يـدي.. تتألـق عيناهـا كشـمس.. كانعـكاس أضـواء شـموع الكنيسـة القريبـة التـي نسـمعُ قـرع أجراسـها.. كنـورٍ أبـدي لا يخفـت.. عضّـتْ شـفتها السـفلى بشـغف.. كـررت مـع ماجـدة..

يسمعني حين يراقصني.. كلماتٍ ليست كالكلمات

حركـت شـفاهها بالكلمـات وأغمضـت عينيهـا، وضغطـت علـى يـدي والموسـيقى تنسـاب رقراقـة في أرواحنـا.

يأخذني من تحت ذراعي.. يزرعني بإحدى الغيمات.

فتحـت عينيهـا وأفرغـت شـعاعَ حـبٍ انسـاب منهمـا لينغمـس في شـرايني.

والمطر الأسود في عيني.. يتساقط زخات زخات

تغنـي مـع ماجـدة بصـوت خافـت وتنفـر عـروق رقبتهـا وهـي تهـز رأسـها وتقطـب حاجبيهـا وتبتسـم، تغمـض عينيهـا وتفتحهـا بولـهٍ وحـب.

يحملني معه يحملني... لمساءٍ وردي الشرفات.

فجـأةً ألقـت يـدي بسـرعة وقامـت تركـض بخفـة غـزالٍ حُـر وهـي تخلـعُ حذاءهـا وترميه كيفمـا اتفـق جنـون لحظتهـا، توسـطت السـاحة وصـارت تـدور حـول نفسـها، وهـي تمـد ذراعيهـا وتـدور وتـدور.

وأنا كالطفلةِ في يدهِ.. كالريشةِ تحملُها النسماتْ

تلـوح بيديهـا يمنـة ثـم يسـرة كرقصـة شـامية عتيقـة، ترفـع قدمًـا

وتضعها على ساقها فتصنعُ مثلثًا صغيرًا بين فخذيها، تلف بقدمها الأخرى حول نفسها كدرويش أخذه الحال لتحيي في قلبي دوامة عشق رومية.

يروي أشياء تدوخني..

صارت تحرك رأسها وتدور به وترفع يديها في الهواء وتلفهما كدوامة إعصار صغيرة فوق رأسها... يتطاير شعرها الغجري ويلتف معها ويغطي عينيها ووجهها فتزيحه عنهما بانتفاضة رأسها إلى الوراء وتقهقر أنفاسي.

كلمات ليست كالكلمات..

تدورحول نفسها ثم تنثني ثم تعتدل ثم تدور حول نفسها ثم تنثني وتعتدل، تهادت نيفين حين تهادت موسيقى الأغنية، صارت تركض يمينًا على أطراف أصابعها ثم تتكور على نفسها ثم تركض يسارًا وتتكور على نفسها، ترسم دوامة بيديها في الهواء ثم تتكور على نفسها بعدها ختمت بأن نفضت رأسها وشعرها إلى الخلف حين دقت نغمات الأغنية الأخيرة.. وسط ذهولي سمعتُ صوت تصفيقٍ وصفير يخرج من أفواه الناس الذين تجمعوا حولها وقد عميت عيني إلا عنها.. التقَطَتْ حذاءها من الأرض وجاءتني تحملهُ

راكضة وقد احمرت وجنتاها وتسارعت دقات قلبها.. ألقت بنفسها على كتفي وأخفت وجهها في صدري والجمعُ لا زالوا يصفقون لها ويرمونها بعبارات الإعجاب، ينظُرني الشباب بعين حسدٍ وغُبن. رفعت رأسها وأنفاسها تلفحُ وجهي ودقات قلبها تقرعُ في صدري.

كل ما زدتُ شغفاً بها كلما اكتشفتُ جوانب جديدة من شخصيتها، من ألقها، من روحها التي لا تشبه أرواح الناس هنا، من جموحها وعنفوانها المختبئ خلف هدوء ملامحها، لم تكُن نيفين أقلّ من حدثٍ عظيم غيّر مجريات أحداث تاريخي، كحربٍ عالمية دارت أحداثها داخلي، كطوفانٍ أغرَق جُزُري وأعاد تشكيل تضاريسي.

وتأبى علي الحياة أن أكون سعيدًا إلا بفتات فرح تنثرهُ في مهب عواصفي...

بقيت لنا سنة واحدة على التخرج وأخي حمزة سيعود معي هذا العام إلى دمشق بعد أن اجتاز اختبار الثانوية العامة بتفوق، استأجرت دارًا أخرى بغرفتين كبيرتين وصالة صغيرة في منتصفهما في حي البرامكة بها شرفة صغيرة وتُطل على حديقة كبيرة تحيط بها أشجار الياسمين التي كان يوقظني أريجُها قبل أن تدق ساعة

منبهي، جهزتُ غرفة حمزة بأثاث جديد، سرير مع طاولة صغيرة بجانبه، وطاولة أخرى فوقها مرآة أنيقة بجانب خزانة الملابس ومكتبٌ صغير يكفي كتبه ودراسته وضعته خلف النافذة التي تشرق عليها شمس دمشق، لم يبدو على وجه أبي أي لمحة امتنان حين قلتُ له بخجل أن لا يحمل هم دراسة أخي وأنني سأتكفل بكل ما يحتاجه.. أخي حمزة حبيبُ والداي بل حبيبُ القرية كلها.. رغم أنه ليس آخر العنقود وليس بكرهما اللذان يفسدان عادة إما بالدلال وإما بجهل التربية الأول، كان نصيب حمزة من الحب أكبر من حظوظنا أنا وباقي أخوتي، ودّعهُ أبي وهو يحتضنه بقوة ويقرأ عليه وينفُث أما أنا فأكتفى بمدِّ يده لي لأُقبّلها، حزنت لأنني لا أحظى بهذه الغمرات التي يرتعُ بها أخي.. تمنيت أن ألقي بنفسي بين يدي والدي وأن أدع شعرَ لحيته الكثيف الذي كان دائمًا يزعجني كي يدغدغ وجنتي ويخدش الألم الذي يعتريني.. أوصتني أمي من وسط دموعها بأخي.. ألا أزعجه.. أن أداريه وأحفظه.. وصلنا ليلًا إلى دمشق وفي صباح اليوم التّالي توجهنا إلى مبنى التسجيل والقبول القريب من بيتي وعرّفتهُ على نيفين التي تواعدت معها هناك، قُبِلَ حمزة في كلية الطب والفرحُ يكاد يطغى على كيانه، توقفنا عند كابينة الهاتف وأتصل ببيت الوزير،

بعد دقائق سمعت صوت أمي وهي تدعي له من خلف سماعة الهاتف وتزغرد وتبكي في وقت واحد، أدركتُ أنني لم أتصل بأهلي خلال أربع سنوات ولا مرة واحدة من كابينة الهاتف كما يفعل حمزة منذ أول يوم له خارج بيتنا، فكرتُ أنني قد أكون السبب في جفاء أبي عني أو أن حمزة هو من يبالغُ بإقلاقهما وبث أفكاره ونجواه إلى قلبيهما، في البيت غضِبَ حين وجد له غرفة منفصلة عني وهو الذي لم ينم وحده طيلة عمره فأصرَّ على النوم بغرفتي، اضطررتُ إلى سحب سريره من غرفته ووضعته على الطرف الآخر من سريري، كان معجبًا بمملكتي ويقول لي ضاحكًا أنها تكاد تكون أكبر من بيت الوزير الذي لا يعرفه، ثم قال: لكن روح دمشق جميلة ليست كأشباح قصر صاحبنا، هنا دمشق التي تعانق السحب وليس كقريتنا التي ارتمت في غور يحجب عنها السماء. حدثني ليلتها وأنا أتثاءب بعد أن أطفأنا النور عن أحلامه.. أن يبني لأمي بيتاً مثل بيتي هذا أو حتى أكبر.. أن يشتري لأبي أرضًا يزرعها، لا بل يحضر من يزرعها له ويكون أبي سيدًا ومراقبًا فقط، أن يجعل لها سوراً من أشجار التين والمشمش ويجعل له في منتصفها دكة تظللها عريشة عنب يمد يده وهو جالس فيلتقط منها عنقودًا يلوكه ببطء، كان يتحدث وهو مستلقٍ على سريره ويحرك

يديـه في الهـواء، يحاكـي التقـاط عنقـود عنـب ويصطنـع وضعـه بفمـه. .. نمـت علـى أحلامـه واسـتيقظت لأجـد رسـالة بخـط يـده، (ذهبـت إلـى الجامعـة وقـد أتأخـر، شـكرًا علـى النقـود التـي وضعتهـا في جيبـي)

مات حمزة...

لـم يعـد ذلـك اليـوم ولن يعـود بعده أبـدًا.. بحثـت عنـه في كل كليات الجامعـة ومكاتبهـا حتـى في مكتبتهـا العامـة ولـم أجـده، نمـتُ بنصـف عيـن وقلقـي علـى حمـزة يـراودني، تخيلـتُ أنـه قـد يكـون بخطـر أو أنـه في أحـد فنـادق (المرجـة) التـي حدثتـه سـابقًا عنهـا ليجـرب شـيئًا جديـدًا كعادتـه، أقـوم مـن فراشـي أفتـح البـاب وأصغـي إلـى أي صـوت قـادم مـن الـدرج، أقـف علـى شـرفتي لعلـي أراه قادمًـا مـن بعيـد، أنـزل وأقـفُ أمـام بـاب البيـت ثـم أعـود وأسـتلقي علـى سـريري مطمئنًـا نفسـي أنـه سـيعود بعـد قليـل، هكـذا حتـى أشـرق الصبـاح، جلسـتُ مـع نيفيـن أحدثهـا عـن اختفـاء حمـزة وعـن قلقـي بينمـا كانـت تطمئنني.. شـاب يـرى دمشـق لأول مـرة ويحبهـا.. قـد يضيـع قليـلًا ثـم يعـود، ثـم إنـه ذكـر برسـالته أنـه سـيتأخر.. لا تـق--- أبـي.. صرخـت مقاطعًـا نيفيـن حيـن رأيتـه يدخـل مـن بوابـة الكليـة تتبعـه أمـي وقـد شـحب وجههـا، ركضـتُ نحـوه، احتضنتـه ذلـك الحضـن الـذي كان يكتنـف بـه حمـزة وأنـا

أبكي حين أخبرني بموت أخي.. شاركتني نيفين بكائي، وأمسكت يد أمي التي ألقت بنفسها عليها، التفَّ حولي أصدقائي ودكاترتي ومدير الكلية وأناسٌ آخرون لا أعرفهم.. دهسته سيارة وهو يعبر طريقًا في أول أيام غربته، لم ترغب به دمشق حيًا فاحتضنته قريته ميتًا، تقول أمي جاء إلى الدنيا مسرعًا، ولدته بعد حمل سبعة أشهر وخرج سلسًا من بطنها دون تعب ثم غادر الدنيا مسرعًا كما أتاها.. صدمته السيارة ومات بدقائق، وجدوا رقم الوزير في دفتر يحمله في جيبه دون به عنوان كليتي وعنوان مبنى الجامعة وعنوان مطعم في البلودان لن يتذوق طعامه... أردتُ أن أنهار لكن منعني أبي من فعل ذلك أمام أمي، حتى انهياراتنا محرمة علينا... حتى صرخاتنا نُعيّرُ بها في مجتمعاتنا.. حتى يأسُنا.. حتى عذاباتنا.. استلمنا جثته من المستشفى، يبتسمُ كطفل صغير كان يلعب قبل أن ينام وكدمة زرقاء انتفخت على جانب جبينه الأبيض، أعاد أبي شعر حمزة الأملس إلى الوراء وصار يمرر يده المجعدة عليه، وهو يتمتم بدموع صامتة تنسكب على وجنتيه وتتساقط القطرات من لحيته.. أمي تجلس بجانب نعشهِ الأخضر تمسك يده الناعمة وتمسك بالأخرى مصحفًا صغيرًا تقرأ منه وتغرقه بشجوى دموعها. بعد أن دفناه في قريتنا دخلت على أمي التي لم تجف سماء دموعها

وجلست بجانبها، أردت أن أمسك يدها فسحبتها بعنف من يدي دون أن تنظر بوجهي، قلت في نفسي دعها تفرغ وجعها وقمت، أردت أن أقبل رأسها فابتعدت عني وهي تنهج بالبكاء، غادرت غرفتها وأنا أبكي.. من يسقي عطش روحي إن جافتني أمي؟؟.. بمن يلوذ حزني؟؟

بقيت في قريتنا عشرة أيام و حال أمي كما هو.. ظننتها كأي أم ثكلى غاضبة من الدنيا على فقدها فلذة كبدها لكني كنت أراها تقبل أخوتي وتحتضنهم وهي تبكي.. في اليوم العاشر جئت إليها وهي نائمة على كرسيها وتحتضن قميص حمزة على صدرها، أمسكت يدها فاستيقظت ونظرت في عيناي لثوانٍ كأنها لا تعلم من أنا ثم تحولت نظراتها إلى غضب اكتسح ملامحها وسحبت يدها بقوة.. حاولت أن أحدثها فكانت تدير وجهها جئتها من جهتها الثانية: سألتك بالله ياأمي كلميني.. لا تكوني عونًا لمصائبي علي.

أنت الذي قتلته... صرخت بي فجأة ثم صمتت.. جف الكلام في حلقي.. يبس الدمع في مقلتي.. أنت الذي قتلته.. أنت قاتل.. طول عمرك تغار منو.. طول عمرو أحسن منك.. ارتحت؟؟ مات حمزة.. ارتحت؟ ؟؟ يلا عيش حياتك؟؟ ياريتك كنت أنت بدالو؟؟

تدفقت منها الكلمات الحبيسة فيها كبركان تصبُّ حممهُ على جمجمتي.. خرجتُ من غرفتها ذاهلاً لا ألوي على شيء.. وجدتُ أبي يقرأ القرآن بسكينة على كرسيه المتهالك.. جلستُ تحت قدميه واحتضنتُ ركبتيه وأنا أبكي وهو لا يرفع عينه عن المصحف، أردت أن أحدثه، أن تلتقي عيني بعينه فتبث لها نجواي، فبثتْ عينهُ دموعًا صامتةً لا تراني.

لا يجب أن يدفن الأب ولده ولا يجب أن تنعي الأم إلى الناس ابنها.

لم يخطف الموت أخي وحسب بل قتل سكينة كانت ترفُّ ببيتنا مثل طائر صغير يغرد سلامًا، منذ أن مات حمزة تغير طعمُ كل شيء، واختفت ألوانًا لم أعد أذكرها لتظهر بعدها للحياة ألوانًا جديدة، أصباغٌ باهتة شاحبة لها مرارة عالقة في عيني.

وقفت.. نظرتُ إليه بغضب لم أستطع أن أداريه لكنه لم يلحظني.. دخلت البيت أبحث عن أي سلوى لروحي، علي نائم في ركنه الصغير وغادر أحمد إلى جامعته قبل أمس وخلّف البؤس على ما بقي مني، لا يوجد من يواسي جرحي، تسكُنُ أحيانًا أمي فإذا رأتني هاج حزنها وتقرّح جرحها؛ لذا لم يعد مقامي هنا إلا

عذابـًا لهـا ولـي، لملمتُ أشـيائي وخرجـت مـاراً مـن أمـام والـدي وهو علـى حالـه كأنـه لا يـراني، بكيـت غضبًا وحزنًـا على نفسـي وخرجـت كشريدٍ دق التيهُ طبولـه في قلبـه، رأيـت خيـال سـهى تقـف خلـف جـدار الفيـلا قبـل أن أغـادر، لـم أتبيـن ملامـح وجههـا لكنـي أحسسـت أنهـا تنتظـرني، ذهبـت إليهـا علـي أجـد بهـا مـا يلملـم جـراح قلبـي، يحمينـي جنـاح الظـلام والقـرآن الـذي انشـغل بـه أبـي، واسـتني بنظـراتِ حـزن تندلـقُ مـن عينيهـا ودمعـات صغيـرة فارقـت مقلتيهـا، اقتربـت منهـا وأنـا أمسـح الدمـوع التـي كانـت تسـبح في عينـي، قبلتهـا وقبلتنـي ورويـداً رويـداً زادت ضـراوتي حتـى كـدتُ أن أمـزقُ لهـا شـفتيها، حللـت أزرارَ قميـص منامتهـا الورديـة بشـغف سـطا علـى كيـاني حتـى انقطـع إحداهـا وحـررت نهدهـا الرمـاني ولثمتـه وهـي لا تقاومنـي، أنزلـت بنطالـي وبنطالهـا وأولجـت فيهـا بؤسـي الـذي تمـرد وطغـى، ضاجعتهـا واقفـا.. عينـاي تـذرف وجعًـا قاتـلًا خلـف رأسـها وجـدار البيـت يئـن تحـت صفعـات مؤخرتهـا، أفرغـت شـهوتي بهـا وتركتهـا ترتمـي لدقائـق علـى صـدري تلهـث وتحتضننـي وهـي تـودع خيـوط بكارتهـا، لبسـت بنطالـي الـذي دفـن عذريتـه.. قبلـت جبينهـا وغـادرت دون أن أنظـر إلـى الخلـف، وصلـت موقـف الباصـات ولـم أجـد باصـًا يحملنـي إلـى دمشـق بعـد أن أرخـى الليـل حبالـه ولفـظ الموقـف أهلـهُ ومرتاديـه..

مشيت ومشيت ومشيت يحيط بي عواء كلاب بعيدة وعويل قلبي الذي أحتضنه بداخلي.. استيقظ الصبح فحملني باص متعب ليكمل بي طريق عذابي. جلست على الكرسي الذي تشابه مواته بموات قلبي ونمت.

***

وصلتُ كسيراً إلى دمشق، لم تكن قد انتهت إجازة الصيف حينها.. نزلتُ من الباص وتوجهتُ فورًا إلى كابينة الهاتف، التقطتُ السماعة لأتصل بنيفين لكنني أرخيتها بعنف ليتردد رنينها في أذني، سطا علي إحساس أنها ستكتشف عهري بمجرد أن تستمع إلى صوتي أو تنظر إلى عيني.. رغم وطري إليها.. رغم حاجة غيماتِ دموعي على التساقط عليها.. خفت أن أفقدها وأنا الذي فقدت أخي قبل أيام.. حين أقفلت باب البيت ورائي راودني وجه حمزة الصغير، وأحلت بصري إلى سريره الذي لا يزال قابعًا في غرفتي.. استلقيت على بقايا رائحته التي لازال الفراشُ يحتضنها ويبكي.. نظرت إلى سماء الغرفة كما فعل قبل ساعات من موته وصرت أرسم بيدي في فضائها أُحاكي أحلامه التي بقر بطنها الموت قبل أن تولد وقتلها قبل أن تتحقق.. بكيتُ وبكيت حتى

خشيت على نفسي، كدت أشهق آخر أنفاسي وأنا أتلوى على السرير المذبوح بفقيده، الشاكل بصاحبه، الموت الموت مزّقَ أوصالي وأنشب مخالبه في ظهري، للموت فائدة جميلة واحدة وهي أن الدنيا صارت لا تساوي ذرة رمل، لملمتُ بقاياي وصرتُ أعيشُ منافقا، تغيرت، صرتُ أضحك كثيرًا وأمرح كثيرًا، ولم يعد للحياة رهبةً عندي.

في اليوم التالي استيقظت على قرعات جرس لم أعتادها.. أغمضت عيني لأعود إلى سباتي لكن الجرس قرع مرة أخرى.. فتحت الباب عاريـًا إلا مما يستر عورتي ووجدت نيفين أمامي..

بحلقت بها وهي تدخل وتمسح وجنتي بيديها.. أدركتُ أني كنت أبكي خلال نومي وتركت الدموع أثرها على خدي.. شعرت بألمي ينضح تحت لمسة يديها فارتميت بحضنها، علا نشيجي على نحرها فأقفلت الباب بظهرها وهي تلف يديها حول رقبتي، بكيت ثم بكيت.. تمسح بيدها على شعري ووجنتي.. تحمل بجسدها روحي إلى السماء وهي تعانقها. تردد كلمة التوحيد همسًا في أذني.. هدأتُ قليلًا حين أفرغت ما في جعبتي من بؤس على كتفيها.. اختفى سقف غرفتي.. أغمضت عيني

وأنـا أشـعر بنسـائم روحهـا تداعـب شـعري وذقنـي.. اختفيـتُ أمامـي ورأيـت النجـوم تطـوف حولنـا، لجسـد نيفيـن رائحـةً كأريـج الياسـمين الـذي يوقـظ جفـونَ عصافيـر الصبـاح النائمـة علـى نافـذتي، كـرذاذ عطـر يختبـئ مسـتحيا تحـت ثنايـا ملابسـها، شـممت رقبتهـا التـي تشـبه سـاق الريحـان فارتقيـت في السـماء أكثـر، مـن ينـام ومـن يمـوت تصعـد روحـه إلـى السـماء هكـذا يقولـون ولكـن لـم يخـبرني أحـد أن مـن يحتضـن عاشـقه يصعـد أيضًـا، شـعرت أن روحـي امتزجـت بشـيء هلامـي آخـر.. أحببتُنـي وأنـا أذوب بهـا وأحسسـت أننـي أنـا لسـت أنـا الـذي أعرفـه حتـى وضعـت يدهـا علـى ذقنـي وربتـت عليهـا.. فتحـت عينـي التـي لـم تكـن مغلقـة فوجـدت عينيهـا كمنـارة يتهـادى نورهـا مـن بعيـد ليـدلَّ ضياعـي، كل ذلـك ونحـن نقـف خلـف بابـي الموصـود.. وجـدت بنيفيـن حضـن أمـي التـي غلـف قلبهـا الحـزن وأوقـد فوقـه شـمعات آلامهـا.. رحمـة أبـي التـي كانـت تشـع مـن عينيـه حيـن أصبـت بالحصبـة.. شـغف سـهى لـي، لا ليسـت سـهى كمـا نيفيـن.. ليـس أحـد كمـا نيفيـن.

تيقنـتُ أن نيفيـن هـي (وطـري) وإلحـاحُ حاجتـي، اطمأنـت روحـي بهـا خـلال الأشـهر التاليـة... قالـت لـي إن حمـزة غـادر بوقتـه ولـم يكـن ليسـتطيع أن يبقـى.. أن روحـه ترفـرف بفـرح بعـد أن

تخلصت من وعائها الذي كانت حبيسة بداخله.. أن من يغادرنا إنما عادوا إلى أوطانهم، وأننا نحن الغرباء الذين لم تُقرع أجراس عودتهم بعد.

وجاء الشتاء بسماء كريمة هذا العام.. مضى تشرين الأول بعد أن زخّته السماء بكل ما في جعبتها من ماء.. في الثاني اتشحت دمشق ببياض ندف الثلج التي تنام بأمان على كتف نيفين قبل أن أجرفها بيدي حين ندخل مبنى الكلية ثم أودعها لنلتقي من جديد بعد محاضراتنا. نخرج ونجلس على كرسينا.. نحتسي كوبًا من الشاي وهي ترمي بكتفها على كتفي بغنج ودلال. تملأُ دنياي، تنسيني أحزاني التي استطونت قلبي، تجردني مني وتهيم بها روحي حتى صرتُ لا أريد من الدنيا إلا أن أكون بقربها، أنامُ على ذراعها، أدفن نفسي بتجاعيد شعرها. نسيتُ نفسي وحاجاتي إلا حاجتي إليها.

يزدادُ ولعي بها في قلبي.. كل يوم تولد نيفين جديدة أروعُ من التي كانت قبلها وأحلى.. تفاؤلها بالحياة.. ابتسامتها التي تضيء أرجاء كوني.. قوتها.. صلابتها التي لا تهتز حتى جاء ذلك اليوم الذي مزقتُ كل ذلك بها.

خرجنا من الجامعة والسماء تنهال على دمشق بشدة.. تبكي

على روابيها بكاء طفل تركته أمه قبل فطامه فناح برعد يصمُّ القلوب ويخيفها، اصطبغَ أُفُقٌ دمشق بلون رماد جسدٍ محترق.. ركضت بجانبي ونحن نحتمي بحقائبنا ونضحك.. ركبنا الميكروباص ورجفاتها يهتز لها بدني.. كنت أمسك يدها وأنفخ فيهما حرارة حبي لها.. تتقاطر المياه من ثنايا شعرها الغجري الذي التفّ حول جبينها لتبلل شفتيها ورقبتها فتأخذني غيرة تجعلني أقتل هذه القطرات بمناديلي.. دوى صوت رعد قوي قوي فصرخن الفتيات اللواتي يركبن معنا واحتضنت نيفين ذراعي ولاذ رأسها بصدري.. كانت تنتفض وكأن تيارًا كهربائيًا مسها.. خلعت معطفي ووضعته عليها وصرت أمسد ذراعيها وظهرها، وهي تخبئ وجهها الشهي في قميصي الوردي.. قميصي الذي علقت به رائحتها حتى يومي هذا.. قميصي الذي رسم كحل عينيها عليه خيط أسود كلون أيامي.. قميصي الذي رسمت شفاهها عليه قُبلة حمراء كنزيف دمي.. .. صدحت من راديو السيارة أغنية لكاظم فالتصقت بي وهي تستمع، وأقفلت عينيها ونامت على كتفي.

أخاف أن تمطر الدنيا ولست معي

فمنذ رحتِ وعندي عقدة المطر

كان الشتاءُ يغطيني بمعطفه

فلا أفكر في بردٍ ولا ضجر

كانت الريح تعوي خلف نافذتي

فتهمسين تمسك.. ها هنا شعري

والآن أجلسُ والأمطار تجلدني

على ذراعي على وجهي على ظهري

فمن يدافع عني..

يا مسافرة مثل اليمامة بين العين والبصر

كيف أمحوك من أوراق ذاكرتي

وأنتِ في القلب مثل النقش في الحجر

.. ركضنا مرة أخرى بعد أن نزلنا.. يفصل بين بيتي وبين موقف الميكروباص شارع عريض لا تمر به السيارات.. تنام على جنبتيه بيوتًا واجهاتها حجرية.. كلما زاد سيل السماء نقف تحت مظلة من مظلاتها ونتنفس الياسمين الذي فاحت رائحته فرحًا بعطاء الغيوم.. كلما هزّت أوراقهُ ريحٌ شَهَقَ بنَفَسْ.. نعاود الركض ونقف بين واجهات البيوت وإذا لاح لنا نتوء نحتمي به.. تبللت أحذيتنا

ودخل الماء بجواربنا من البرك الصغيرة التي لم نستطع تلافيها.. ظللنا نقفز ونحتمي حتى وصلنا إلى بيتي.. أحضرت جميع مناشفي وجففت جسدها.. خلعت عنها سترتي ثم سترتها الشتوية السوداء وشالها الذي كانت تحيط به رقبتها ووجهها بعد أن اغتسلا بماء المطر.. خلعت حذاءها وجواربها التي صارت خرقًا مبلولة.. نشفت قدميها ونفخت نار حبي في بردهما.. مسدتها حتى فارقها انكماش جلدها.. اقتربت منها واحتضنتها.. أدنيتُ منها المدفأة الكهربائية الصغيرة.. صرت أفرك ذراعيها وظهرها بيدي لأمنحها حرارة جسدي فاقتربت مني أكثر بعد أن سرى الدفء في عروقها.. خلعت عني قميصي المبلول واحتمينا تحت بطانيتي لا يظهر منا إلا وجوهنا التي تعانقت عيونها.. اقتربتُ منها أكثر، طبعتُ قبلة على جبينها ثم على خدها وخدها.. نظرتْ إلي ونظرتُ إليها وعين الشوق تفضح سرائرنا، ارتجفت شفتاها بردًا ووجدًا.. ألصقنا أنوفنا ببعضها فشممتُ أروع أريج يتهادى إلى روحي من أنفاسها.. لثمت شفاهها المرتعشة مرة فرشفتُ رحيقًا لن أنعمَ بمثله طوال حياتي.. قبلتُها ثانية وثالثة وفي الرابعة تحركت شفاهها وقبلتني لتهتز كل أوصالي، حين لثمت شفتي شعرتُ بعطشي القديم لها، كأول رشفة خمر لعابر صحراءٍ قاحلة.. التصق جسدي المرتجفُ

بجسدها أكثر وخلعت عنها بلوزتها فظهر لي قوام نهدها المتصنم أمامي ووجدتُ شامةً أخرى تنام بهدوء بين نهديها فلثمتها، دفعت برفق رأسي إلى الخلف لتبعدني فما استطاعت بعد أن هفني الشوق إليها.. نظرت الي بعين توسل تكاد أن تبكي ولم أستطع التوقف رغم خوفي عليها مني فاستسلمت لي ونار ضارية تشتعل بداخلنا.. سخنت أنفاسها حتى صارت تلفح وجهي ورقبتي وصدري العاري الذي صارت تقبله هي الأخرى وتمسح بيدها تضاريسه.. اشتعلت بنا الرغبة حتى كادت تحرقنا،صرخت بخوف ونشوة حين جردتها تماما من ملابسها.. حاولت أن تقصيني عنها بقوة، أرادت أن تنهض وهي تدفعني لكن قوتي أبلغ منها.. تهاديت فوق جسدها الخمري حتى سكنتُ أنا وسكنتْ هي ثم احتضنتها بعد أن أختلط نزيف قلمي بحبر دماءها.. سمعت نشيجها بعد أن تراخت أنفاسي وأنفاسها فنظرت إليها والدموع تمطر كسماء دمشق على وجنتيها.، أردتُ أن أحتضنها فاستدارت وصار ظهرها العاري أمام وجهي وفقرات عمود ظهرها نافرة أمامي،تكومت على ندمها كجنينٍ اختنق بماء عبراته وغمرتها نوبة بكاء لن تتوقف.

***

هنا...

ظـل أبـي شـهورًا طويلـة علـى حالـه هـذه.. يتكلـم قليـلًا.. ينـام قليـلًا.. يـأكل معـي قليـلًا قليـلًا ثـم يسـتيقظ ليقـرأ القـرآن ويصلـي.. يقضـي أغلـب وقتـه في المسـجد حتـى صـرت أعتـاد علـى وجـوده وعـدم وجـوده؛ وكأن شـيئًا لـم يتغير غيـر أني لـم أعـد أدعـو أحـداً إلـى بيتـي الـذي صـار مهجـوراً إلا منـي ومـن شـبح أبـي، لأفـرغ شـهوتي صـارت تعرفنـي شـقق جـدة المفروشـة.. اقضـي بهـا وطـري ولا أعـود إلـى بيتـي الا بعـد أن يخـرج أبـي إلـى صـلاة الفجـر.. في الوقـت الـذي لا أرغـب بـه بملاقـاة أحد كنـت أعتكـف علـى كتبي وقهـوتي.. أشـعلت مـرة سيجارة في مكتبـي فسـمعت صـوت كحكحتـه في الأسـفل فصـرت لا أدخـن إلا في شـرفة غرفتـي بعـد أن أقفـل بابهـا، أخيـرًا صـرت أجـده يخـرج مـن البيـت ويجلـس في حديقـة فنائـي تحـت ظـل شـجرة ليمـون تتدلـى منهـا فاكهتهـا الفاقعـة، استأنسـت بالنظـر إليـه مـن شـرفتي وهـو جالـس يقـرأ القـرآن، أصنـع لـه إبريقًـا مـن الشـاي فـلا يشـرب منـه شـيئًا لأعيـده مـرة أخـرى إلـى مطبخـي ويتكـرر ذلـك كل يـوم لكـن لا بـأس، المهـم أنـه يبـدو بخيـر والأهـم أنـه صـار يتصـرف وكأنـه في بيتـه.

اعتـدتُ علـى لينـا أيضًـا وعلى نظراتهـا التي تطفح حبًا لي، تسـتجدي

بعينيها أي كلمة مني ولا تقوى شفاهها على كسر شموخها أمامي.. كان عم إسماعيل يلحظ توترها وتوتري.. يقول عنها فتاة مؤدبة وابنة ناس.. يأبى علي عم إسماعيل أن أبقى هكذا.. ضربني مرة على كتفي وقال لا وجود لمن لا ذرية له يا ابني، لولا المرأة لما كان لوجودنا معنى يا كنان، لولا التكاثر لانقرض الجنس البشري ويبقى الوحوش سادة الأرض، يجب أن تتزوج حتى يكثرُ أبناء الطيبين مثلك ويطغوا على أولاد الحرام الذين استفحلوا وكثرت أعدادهم أقول في نفسي لو أنه يدري بما كان مني لما صافحني أو حتى تكلم معي، حين يمدحني عم إسماعيل أشعرُ بغيظ يكتنفني، لا يمل من ديباجته هذه، غيرتُ كعادتي منحنى حوارنا وأخبرته عن وصول أبي وعن حاله معي وأنه لا يكاد يكلمني، قال ابقَ بقربه ولا تفارقه.. الأب يا كنان نعمة لا يعرفها إلا من فقدها.. الأبُ جدارك الذي يسند ظهرك.. شبابك الذي تنعم به.. قوتك التي لا تفنى إلا بموته وستعرف ذلك قريبًا حين تصبح أبًا، هموم الدنيا يا كنان تأكلنا نحن معشر المغادرين ووهن عظامنا يخرسنا فاصبروا علينا. دعوته لزيارته في بيتي رغم قوانين المستشفى التي تمنع ذلك فرحّبَ بفكرتي.. بعد ذلك عاد إلى ممدحِ لينا وتزيينها في عيني إلى أن دخل يمان فسكت.. على قدر حبه لي وللينا يكره عم إسماعيل

صديقي هذا ويشمئز منه.. يقول لي لا خير فيه.. يرفُض أن تمسه يديه بدون سبب رغم تودد يمان إليه.

حين عادت لينا إلى العمل بعد يومين من مرضها استقبلتها بوجه البسته مكعبَ ثلج.. اكتفيت بسؤال سريع عن صحتها وحين شكرتني تقصدت أن أبين لها أني سأفعل نفس الشيء لأي أحد يتداعى أمامي.. رأيت يومها نظرات خيبة في عينيها تجاهلتها وابتسامة كاذبة تغلف محياي.

حين تهيج مشاعرنا تنعقد ألسنتنا فلا تعود تقوى على لوك الطعام.. تتآمر علينا بقية أعضائنا وتتضامن مع نجوى قلوبنا، تتحجر أعيننا ويأبى أن يزورها غير السهاد والسهر، يتظاهرُ الجسد كشعبٍ حُبسَ ظلما خلف قضبان الحرمان وصار يدق بعنف على جدران سجنه غير آبهٍ بهراوات ذواتنا، تنفستُ كذبي حين ابتعدت عنها وخاطرة ألم تموج في عقلي، أشفقت على حالها وحالي ووالله ما دفعتها عني إلا كما يدفع أبٌ طفلته من أمام شاحنة مسرعة فقد سائقها السيطرة عليها في يوم ممطر، حميتها من نيراني التي تحرق كل ما يقترب مني... رغم لسعات عينيها التي تؤلم خاصرتي كوخز إبرة مسمومة استطعت أن أبني أمامها جدارًا كاذبًا من لا مبالاتي

وجمـودي، لا أدري إن كان هـذا الحائـط نسـخة مصغـرة عـن حائـط أبـي الـذي وضعـه أمامـي..

عـدت مبكـرًا ذلـك اليـوم.. سـلمت علـى أبـي وقبلـت يـده ثـم دخلـت مطبخـي وشـرعت بإعـداد الطعـام.. تفاجـأت بصوتـه الجهـوري خلفـي (مـا أشـهى الرائحـة).. التفـتُّ فوجدتـه متجهًـا إلـى دورة الميـاه.. وجهـهُ جامـدٌ وكأنـه لـم يقـل شـيئًا.. غمرتنـي سـعادةٌ لا أسـتطيع وصفهـا.. ثـلاث كلمـات قلبـت حالـي.. وددت أن أرقـص وأغنـي جـذلًا.. نطـق أبـي بغيـر الحمـد والشـكر لله... فرحـتُ فـرحَ أبٍ يسـمع لتـوه كلمـات طفلـه الأولـى.. صـرت أذوق الطعـام كل دقيقـة.. أضيـفُ بُهـاراً.. أُزيـدُ مـاءً.. .. أخرجـت طاولـة بلاسـتيكية ووضعتهـا تحـت ليمونـة أبـي ثـم أخرجـتُ كرسـيين مثلهـا، أختلـس النظـر إليـه وهـو يمسـكُ كتابـه ويقـرأ كلمـا دخلـت وخرجـت وأنـا أزيـن طاولـة الطعـام وأفـرشُ عليهـا المائـدة، أخيـرًا سـأجلسُ إلـى أبـي، سـآكلُ مـع أحـد أفـراد أسـرتي، كانـت أمـي تقـول حيـن أسـافر أن الطعـام تنقُـصُ لذتـه كلمـا غـادرني أحدُكـمْ وأنـا عشـتُ سـنين لا لـذة لطعامـي، انتهيـتُ مـن رصِّ الأطعمـة علـى الطاولـة وجلسـتُ أنتظـره.. مـرت دقائـق وهـو يقـرأ ويقـرأ.. ناديتـه.. أبـي.. نظـر إلـي.. إنـي صائـم... كالصاعقـة نـزل كلامـه علـى رأسـي.. كلمـات مـرة أخـرى.. كلمتـان فقـط.. وجمـت..

تملكني خليط من مشاعر الحزن والغضب، نظرتُ إليه ونظرتُ إلى طعامي، هممت أن أبعثر الطاولة وأنا أقبض بقوة على قبضة يدي لكنني عببت نفسًا عميقًا وزفرته نارًا كانت تصطلي في صدري ثم قمت بهدوء.. أمسكته من ذراعه.. حلفت عليه إيمانًا أن يكسر صيامه لأجلي.. نظر إلي بذهول وأنا أجره إلى الأعلى.. أقسمت عليه مرة أخرى وعيناي تتوسلان توسل قلبي حتى قام وأجلسته على كرسي المائدة.. سكبتُ له في طبقه وقربت مقعدي إلى مقعده وصرت ألقمه في فيه لكنه كان يأخذ اللقمة قبل أن تصل بيده ويلوكها ببطء في فمه.. شعرت برضا يكتنفني وأنا ألامس يديه وودتُ لو أمسح بيدي الأخرى على شعره الحريري الكثيف.. ابتسم وما أجمل ابتسامة أبي... ملأت عيني بها كنجم يضيء أرضي مرة واحدة كل ملايين السنين... أكملنا طعامنا.. أحضرتُ الشاي فشرب استكانة كما يسميها ثم واحدةً أخرى وثالثة... صرت أحدثه عن يومي وعملي. عن مرضاي وعن عم إسماعيل الذي يرغب برؤيته والتعرف عليه ويدعو له كلما مشى خطوة.. كان يستمع لي وينظر إلى عيني وأنا اتحدث.. ينظر إلى عيني وهو يحتسي كوبًا بعد كوب.. يهز رأسه توكيداً.. ويذم شفتاه امتعاضًا.. ويبتسم.. وما أجمل ابتسامة أبي.

قـال اقـترب وقـت العصـر وقـام.. ذهـب إلـى حمامـه يتوضـأ وأنـا قمـتُ أعيـد الأطبـاق إلـى المطبـخ.. لـم أرد أن أفارقـه وأنـا لـم أُشـبِعْ جوعـي منـه بعـد.. صعـدتُ إلـى غرفتـي اغتسـلتُ سـريعًا وهبطت حين كان يهـم بالخـروج.. خرجـت معـه ومشـينا إلـى المسـجد، وأنـا متأبـط ذراعـه بيـد وأحمـل عـكازه بالأخـرى.. أتكلـم وأتكلـم وكأن لسـاني كان مربوطـًا وحـان وقـت فكاكـه.. انحنيـت وأخـذت حـذاء أبـي أضعـه في صنـدوق الأحذيـة.. كل مـن يدخـل إلـى المسـجد يرمقنـي.. صليـت بجانـب أبـي خلـف أسـطوانة ثـم تقدمـت معـه حيـن قامـت الصـلاة.. يرمقنـي الجميـع بنظـرات ريبـة وحـذر وكأنني دخلـت منازلهـم دون اسـتئذان... كرهـت صلفهـم وتجهـم وجوههـم كمـا كرهـت صـوت أمـام القريـة وخيزرانـه.. متـى كان الديـن إلا رسـالة سـلام وحـب؟ إلا مـكارم أخـلاق لـكل البشـر؟ لـمَ نـرَ في وجـوه أغلـب المتدينيـن قسـوة تشـوه معتقدهـم وجلافـة تخنـق أنفـاس الهـواء؟

كيـفَ يعـود الخاطئـون إلـى مراتـع ربهـم وهـؤلاء يحكمـون عليهـم بالنفـي والهـلاك وكأن الله أعطاهـم هراواتـه وسـياطه، أراد رجـل أن يتقـدم ويقـف في فرجـة صغيـرة بينـي وبيـن أبـي، أوسـعت قدمـي وفرجـت بينهمـا فعـاد إلـى صفـه، وهـو يتمتـم وفي وجهـه نظـرة اشمئزاز مني.

تركته في المسجد بعد انقضاء الصلاة كما طلب مني وعدت إلى بيتي.. أخرجت مروحة ترش رذاذ الماء من الغرفة الصغيرة في الفناء، ووضعتها قريباً من ليمونة أبي لتُرطب لفحات الهواء كما ترطّبَ قلبي بوصال أبي.. ابتعت كل فواكه الدنيا.. رصصتها في طبق خزفي على الطاولة يعلو التين الذي يحبه فوقها.. جهزت كل شيء لأحيي سهرة خاصة مع أبي وشغلت سماعتي بأغانٍ كان أبي يحبها لناظم الغزالي وسعد الحلي وغيرهم من أساطير العراق..

مابيا عوفن هلي مابيا عوف هواي

قلبي نسيته هنا يامن يدوره وياي وياي

هذه الأغنية يحبها أبي.. كان بصوته الأجش يرددها بحزن أيام قريتنا.. تذكرت كيف أنه لا يستمع إلا إلى الحزن.. الحزن الذي شجاهُ العراقيون لحناً وصوتاً وكلمة.. أتكون للعراق لعنة تتلبس كل أبنائه حتى أولئك الذين لا يعرفون شطآنه وساحاته؟ هل لمملكة بابل صلة بمأساتي وأنا المنحدر من شطآن فراتها؟

بس ولعونه ومشوا حق العرفناهم

تسعر ولا تنطفي نيران فرقاهم

ليله وهجرها القمر روحي بلياهم

قلبي نسيته هنا ياهو اليدوره وياي

تأملت حالي معه منذ ولادتي حتى يومي هذا وأنا أستمع شجوى الألم من سماعتي... أدركتُ أني ألومُ أبي على جينات ورثها من عرق قديم قِدَمَ دجلة.. على صحراء قاحلة سكنته كصحراء سومر على قسوة لم يصطنعها بنفسه ولم يردها.. على حزن تجذر في أعماق أعماقه كتجذر شجرة معمرة في أحشاء الأرض رغمًا عنها..

خرجت من أفكاري على صوته وهو يردد مع حسين نعمة.. مابيا عوفن هلي.. قادمًا من بوابة الفيلا متكئًا على عكازه.. لحيته الكثة تهتز وهو يحرك رأسه.. اجتاحني ألمٌ على مرآه يمشي الهوينة قادمًا نحوي، رفع عكازه يشير به إلى السماء وصار يهزّهُ ووجهه ينضح وجْداً.. يغمض عينيه كأنه يستدعي وجوها غابت عن حاضره ليراها وراء ظلمة مقلتيه.

وقفت وأنا أدعوه بابتسامة مرتبكة للجلوس.. أهملني كعود ثقاب محترق وهو يكمل طريقه نحو البيت يغني ويحرك رأسه ويهز عكازه في الفضاء، لا يسير فوق الممر الرخامي المتعرج بل يتعرج على الحشائش المحيطة به كتعرج شرايين قلبي واهتزازها.. رفعت صوتي.. ناديتهُ.. أبي، فلم يعرني غير تجاهله حتى غاب.

يرمي لي أبي فتاتَ سعادةٍ تقتاتُ بها روحي فلا تشبع..

تستجدي المزيد فلا تُعطى.. تهبِط على يده تشمشمها كنورسٍ أضناه الجوع فلا تجد فيها إلا رائحة الحرمان.. صعدتُ غرفتي.. ارتديت ملابسي.. اخترت عاهرة من الطريق وذهبت بها إلى شقة مفروشة.

أمسيتُ معروفًا بين فتيات الليل.. صرتُ أضاجع بعنف سادي.. لا تصعد سيارتي فتاة إلا بعد أن تشترط ضِعْفَي المبلغ المطلوب بعد أن تميزني وتعرفُ سيارتي.. أنتهي من جلدها.. أدمي ظهرها ومؤخرتها ثم أرمي لها بقرفٍ أجر لطماتي وصفعاتي وخنقي... في النادي الرياضي نصحني المدرب أكثر من مرة أن أرفق بنفسي.. ضقت ذرعًا به وهو يلاحقني وما تركني حتى انفجرت يومًا في وجهه، وأنا ألهث من فرط تعبي.. أعود إلى بيتي منهكًا لا أقوى حتى على قراءة كلمة أو إعداد فنجان قهوة فأرتمي على سريري بعد أن ينهك الألم جسدي وروحي معًا. أجلد ذاتي بكل ما في الكلمة من حسرة.. بكل ما في الكلمة من سياط تلسعني. راحت أيام هدوئي وروتيني القديم مذ جاء أبي. بل منذ أن دخلت لينا علي من باب بؤسي.

لينا التي تراقبني كأنني كعبتها... تتعبد بالنظر إلي.. كلما التفتُ

إليهـا، وجدتها يومًـا ترمقني بنظرة حسـرة وحيـرة.. مللـت منها وضاقت نفسـي منهـا هـي الأخـرى، غمـرني إحسـاس أنهـا تسـتعذبُ مأسـاتي.. تمنيـت أن أصـرخ بوجههـا كمـا صرخـت بمدربـي لكننـي لـم أسـتطع فقـررتُ أن أبعدهـا عني، دخلـت مكتبي وأخرجـت ملفهـا أبحـث عـن أي سـبب لأتخلـص منهـا... لكـن صورتهـا النائمـة في الورقـة الأولـى ألجمتنـي.. ظللـت أنظـر إليهـا.. إلـى عينيهـا العسـليتين.. إلـى اسـتدارة وجههـا ودقـة ذقنهـا وخصـلات كسـتنائية تنـام علـى بللـور جبينهـا.. لـم أسـتطع تجـاوز الورقـة إلـى أختهـا.. وضعـتُ يـدي علـى جبينـي لأختفـي عـن كل شـيء إلا الصـورة البيضـاء.. نيفيـن كانـت تقـول لـي أننـي كالبـدر حيـن أضـع يـدي علـى جبينـي، وأن يـدي تصنـع ظـلالاً جميلـة علـى سـمار عينـي.. كظـلال الغيـوم حيـن تغطـي جـزءاً مـن القمـر.. نيفيـن التي تضحـك أمامـي في صـورة لينـا وتضـع خمـاراً علـى رأسـها.. ممـزقٌ أنـا بيـن مـاضٍ يجـرني إلـى الهـلاك وحاضـري الـذي انتظـرَ كثيـرًا حتـى يبتـدئ حفلـة عقابـي.

مستقيلٌ وبدمع العين أمضي.

زفـرت إحـدى زفـراتي المحمومـة بداخلـي وقمـت.. فتحـت البـاب بعنـف وإذا بهـا أمامـي تهـم بطرقـه.. فزِعَـتْ حيـن رأتنـي ووضعـت يدهـا علـى قلبـي.. علـى قلبهـا.. سـحبتها مـن يدهـا وأدخلتهـا وخـوف

المفاجـاة لا زال يغلـف وجههـا.. أغلقـتُ البـاب خلفهـا ووقفـتُ أمامهـا أتأملهـا.. حانـت منهـا التفاتـة إلـى مكتبـي ورأت صورتها ثـم نظـرت إلـي.. حاولـت ببـؤس أن أصطنـع هيبـة فضحتهـا اختلاجـات جسـدي وتوتـر عينـي.. مـاذا تريديـن.. أخـرس الموقـف شـفاهها.. رفعـت صـوتي الناضـح غضبـاً وألمـاً.. مـاذا تريديـن؟؟ انتفـض جسـدها.. ارتجفـت عضـلات وجههـا.. تكتلـت غيـوم عينيهـا ولـم تستطع إجابتي.. نظرتُ إليها بغضب.. خرجَتْ بعد أن رمقتُها بنظرة قـرف ثـم أغلقـتُ البـاب وراءهـا بعنـف.. داهمنـي صداعـي المفاجـئ فانحنيتُ احترامـاً لسطوته كما ينحني شعبٌ أمام سياطِ مغتصبه.. ضغطـت رأسـي وأنـا أحبـس صرخـاتي، وأضغـط علـى أسـناني حتى غادرني.

وجدتُ عـم إسـماعيل ينتظرني.. صـرخ بألـم وأنـا أدلـك لـه يـده.. كـدتُ أكسـرُ ذراع الرجـل الضعيفـة مـن فـرط حنقـي وغضبـي.. حيـن ودعنـي أمسـك مرفقـي بـكل مـا أوتي مـن ضعـف.. ارحـم نفسـك يا ولدي..

***

هناك...

نيفين التي أعرفها ماتت وولدت في جسدها نيفين أخرى.. اضمحلت الروح الصاخبة التي كانت تكتنفها وصغرت حتى غابت في الضياع هالتها.. شحب وجهها.. رقَّ عظمها واختفى البريق الذي كان يشعل بعينيها.. ما عادت رفقتي التي صرت أشعر أنها مجبرة عليها تؤنسها.. ما عادت كلماتي تُرْقِصُها ولا تحملها من تحت ذراعيها وتطير بها... لم تفقد نيفين عذريتها وحسب.. بل فقدت روحها.. ثقتها.. تورد وجهها.. حتى أناقتها. ضمرت ملامحها كمشلولٍ يقبع في غياهب الشقاء.

أمرُّ على بيتها في الصباح.. أراها تخرج من حارتها تجرُّ جسدها جراً.. تُنكّسُ رأسها كمن يبحث عن فتات كرامة بين أحجار الأرض وديدانها وتكنُسُ بعينيها أرصفة الطرقات..

تركب بجانبي.. أحتضن يدها كعادتي فأجدها باردة كالموت.. لمسات يدها التي كانت تبث بي دفء الحياة عصفت بها رياح الخوف.. صدرها الذي كان وطناً أرتع بربوعه صار جزيرة قاحلة نُفيَتْ بها كل أفراحي.. تكاد لا تتكلم.. لا تتنفس.. لا تحيا إلا برمق هواء يُبقي على الجزء المتبقي من وجودها.. مرَّ الشتاء كله وهي

تتقلب بالبؤس.. كلما هطل المطر هطلت عيناها وكأنهما سماء واحدة.. كلما دوى صوت الرعد انتفضت ودوت دقات قلبها بضجيج أراه في تشنجها لكن لم تعد تلقي بجسدها علي، لم يعد صدري ملجأً لصدرها ولا شطآني مرساة لسفينتها.

تنظرني ولا تراني، أشعر بخواء عينيها كصحراءٍ أقسم المطر ألا يزورها أبداً، تجدني أجلس على كرسينا أقرأ كتاباً فألمح على شفتيها ازدراءً وسخرية وهي تقلب عينيها على أسماء كتبي، كأن عينيها تقول ما يقوله يمان لي لاحقاً.. أي قراءة هذه التي لا تهذب أخلاقي، لا تجعلني أسيطر على شهواتي.

نصلُ إلى كليتنا وأودعها عند قاعة محاضراتها.. أُراقبها وهي تدخل وتصعد الأدراج لتجلس في آخر القاعة.. ترمي حقيبتها بإهمال وتشابكُ ساعديها لتضع رأسها عليهما.. أذهب إلى محاضراتي ولا شيء يشغلني سواها.. استطعت أن أُحول حياة ملاك مثلها إلى جحيم لا يطاق.. كيف قدرت أن أغرزَ نصلي بقلب هذه الوردة التي ذبلت قبل الربيع؟؟ ألا لعنة الله على ذلك المطر الذي أغرقني بكل هذا البؤس.. لكن لم ألعن المطر ولا ألعنني؟؟.. لمَ أرمِ بشرري ونيراني على أنبل مخلوق يهبط من السماء وأتناسى

ذلك الشيطان القابع بداخلي.. بل لم أرمِ بفجوري وأخطائي على شيطاني القابع بداخلي وأنسى نفسي؟؟.. أنا الشيطان.. أنا الغاوي الذي أخرج نيفين من جنة أحلامها.. أنا الذي قطفتُ تفاحةَ نفيها وحرمانها؟.. أنا من فضّ غشاء حياتها.. أنا من شقَّ روحها وأدماها.. أنا أنا أنا ولا أحد غيري.

لم أستطع أن أكمل محاضرتي.. شعرت بفضاء القاعة الواسعة ينطبق علي ويُضيِّقُ على أنفاسي.. استأذنت بصوت متحشرج من المُحاضِر وخرجت تتبعني نظراتُ زملائي الشهود على انقلاب حالي، انتظرتها على كرسينا البائس.. ما لَبِثَتْ أن أطلت.. تمشي على غير هدى بين زميلاتها وعيناها تسبحان في الفراغ.. توقعتُ أن تأتي إلي لكن قلبها تائه كتوهان روحها.. نهضتُ متوجهًا إليها وقبل أن أصل فاجأتني رشا تقف أمام وجهي، أخذتني من يدي وأعادتني إلى مقعدي.. غاضبةٌ رشا على ما حلّ بروح صديقتها.. لامتني.. صرخت بوجهي.. لا يمكن أن يكون ما تعانيه نيفين إلا بسببي.. حاولتُ أن أدافع عني لكنها كانت كلما أردت أن أتكلم تخرسني.. ماذا فعلتَ بها؟ بأي معولٍ نقضتَ بنيان سعادتها.. أصمُتْ.. أرتجف أمامها كعنزةٍ تقف أمام سالخيها.. تقول لي رشا إن خياراتي قليلة.. إما أن أقف معها.. وإما أن أدعها بسلامٍ تمضي

لترمم بنيانها بعيداً عن معاولي. أحب رشا هذه بقدر ما تحب هي نيفين.. تخفي تحت نظاراتها عينين جميلتين قاسيتين.. تداري بقسوتها حباً كحبّ أبي.. رمقتني بعينها.. ضغطت على يدي بقوة.. لانت قليلاً أحرفها، قالت أصلح ما أفسدته أيا يكن يا كنان، أحسستُ أن رشا تعلمُ بما حدث بيننا لكنني كنت أعلم أن نيفين لن تخبر أحداً بسر بؤسها الذي تنضح به خجلاً حتى من ذاتها، بعد أن تركتني رشا وجدتُ نيفين تنظرُ بشرود إلى حشدٍ صغير من الشباب.. يتجمهرون حول ست طاولات صغيرة على طرف فناء كليتنا ويجلس خلفها رجالٌ متأنقون لم نرهم من قبل.. رأيت أوراقاً بيد زملائي ومنشوراتٍ لامعة.. هؤلاء مندوبون لمستشفيات في الخليج يبحثون عن حديثي تخرج من كل التخصصات، بقيت اللجنة في ساحة كليتنا خمسة أيام حتى أغلقوا باب التسجيل بعد أن اكتفوا من هؤلاء الذين يبحثون عن أحلامهم فلا يجدوها إلا خارج أوطانهم، أمسكتُ بيدها وصدى كلمات رشا يتردد في أذني.. تنظر إلي ولكنها لا تراني.. سألتها إن كانت ترغب بتسجيل اسمها فهزت كتفيها بلا مبالاة.. دونت معلوماتي ومعلومات نيفين لديهم ووضعت هاتف بيت نيفين في الاستمارتين لأنني لا أملك واحداً.

تمضي أيامُ غارقة في البؤس ونيفين تتهاوى في بئر الأحزان..

كلما حاولت أن أتكلم معها أصطدم بجدار عينيها الفارغتين إلا من دموع استقرت بها أبداً... سئمت من حالها وكدت أكثر من مرة أن أفقد أعصابي لكن دومـاً كنت أتذكر أن هذا الألم من صنع يدي؛ فأعود إلى صمتي.. لم أكن أجرؤ حتى على سؤالها عن حالها.. كيفَ أنتِ.. ما بك.. كيف كان يومك.. صارت أسئلة محرمة على لساني.. كيف ستكون أيها الغبي؟

رغم وطري إليها، رغم حبي العميق لها لم أكن أظن أنني في يوم سأرتكب تلك الجناية معها، لا أدري ما دهاني حتى استطعت رغم مقاومتها أن أُدمر لها أغلى ما تملكه.. كرامتها.. ثقتها بنفسها وافتخارها، عنفوانها الذي انكسر وتشظى.

أُقِلُّها كل يوم وأعيدها إلى بيتها ثم أكمل طريقي ماشياً إلى العيادة أو إلى بيتي، تبعتها ذات مساء إلى بيتها، وجدتُ لوحة الغزال تبكي في مكب نفايات حارتها، حزنتُ على اللوحة قدر حزني على ذكراها، رفعتها، نفضتُ عنها أحزانها وحين وصلت إلى بيتي رقعتُ جبينها المشقوق بحزني، وسكبت عليه ألمي، ثم علقتها بجانب فتاتي.

خرجنا يوماً من الجامعة مبكراً.. كان الربيع يرفل من حولنا

وعبق الياسمين ينتشرُ في فناء كليتنا بل في دمشق كلها.. ولدت نيفين في الربيع، تفتحت وردتها في نيسان، بولادتها صار نيسان أجمل شهور دمشق، ازدانت شوارعنا بالأبيض وكأن في كل طريق مواكب أعراس تُزفُّ إلى ساكنيها والمارين بها.. مشينا وأنا أعيد يدي إلى يدها كلما أفلتتها.. أنظر إليها كلما أردنا قطع طريق أو ارتقاء جسر مشاة فأجدها جامدةً على حال كآبتها.. الناس فرحون.. جذلون ونسمات الربيع تنعش أرواحهم المتعبة من زمهرير شتاء سابق ومن لفحات صيف قريبة.. حتى القطط حولنا تشاكس بعضها.. إلا أنا ونيفين.. نسير كصنمين بلا روح.. لولا تطاير شعرها مع نسمات الهواء لظنَّ من يراها أنها حجرٌ مرميٌّ على قارعة الحزن.. توقفت فوق جسر المشاة قليلاً وعببت من الهواء المنعش هناك.. لمحتُ في عينيها نظرة عتاب سريعة وكأنها تلومني على متعتي فزفرت الهواء الذي سخن في صدري وصار لهيبا يحرقني.. توقفت في منتصف الجسر ونظرتُ إليها.. أرادت أن تكمل طريقها فأمسكت يدها وحولت وجهها إلي.. رفعتُ وجهها بكلتا يدي لتنظرني.. نظرت لثانية ثم قلّبَتْ عينها في السماء.. وضعتُ يدي فوق جبينها كمظلة تمنعها عن النظر لأعلى فأشاحت بنظرها إلى الأسفل.. كل الأماكن مباحة إلا عيني يا نيفين؟؟ لم ترد... نيفين؟؟ لم ترد.. هززتها بلطف..

لـم تـرد ولـم تتحـرك ولا حتـى ظهـر عليهـا تأثـراً بمناجـاتي.. خـارت قـواي.. ألقيـتُ جسـدي علـى الأرض وأنـا ممسـك بيدهـا.. حـرَّرتْ يدهـا بخفـة مـن يـدي وأكملـت المسير وأنـا أنظـر إليهـا، قبـل أن تصـل إلـى الـدرج في الطـرف الآخـر حانـت منهـا التفاتـة إلـي.. توقفـت وهـي تشير لـي أن أُقْبِـلَ اليهـا.. ردّتْ عليهـا عينـاي بصمـت.. تنظـر إلـي وأنظـر إليهـا والنـاسُ يمـرون ويقطعـون الطريـق علـى بـوح نظراتنـا، عـادت تمشـي ببـطء حتـى وصلـت ورمـت جسـدها بجانبـي وهـي تتنهـد.. تصالـب يديهـا علـى ركبتيهـا المنثنيتيـن مثلـي، لأول مـرة منـذ ذلـك اليـوم نظـرت إلـى عينـي.. لـم أرَ ذلـك الفـراغ المخيـف الـذي سـكن بداخلهمـا.. رأيـت نظـرةْ عتـب ومـا أجملهـا مـن نظـرة عتـب.. لمحـةُ حـزنٍ ومـا أجملهـا مـن لمحـة حـزنْ.. كل شـيء أجمـل مـن الصمـت المرعـب الـذي كان يكتنفهـا.. وضعـتُ يـدي حـول عنقهـا وقربتهـا مني فرمـت برأسـها على جسـدي وغطـى شـعرها الكثيـف وجههـا.. لا أدري كـم بقينـا هكـذا والنـاس يمـرّون مـن أمامـي ويرمقونـني بنظـرات لا أعـرف معناهـا.. بعـد ذلـك رفَعَـتْ رأسـها ثـم تنهـدت، بصـوت خفـي قالـت (جوعانـه) وشـبح ابتسـامة سـرعان مـا تـوارت عـن شـفتيها.. ذهبنـا إلـى سـاحة عرنـوس وجلسـنا في مقرنـا الـذي اعتدنـا الجلـوس عليـه تحـت شـجرة لـوز ضخمـة.. مـا أن بدأنـا بتنـاول شـطائرنا حتـى

صدحت أغنية كلمات من المحل ذاتهُ الذي أطربنا سابقًا.. اهتزّتْ عضلات وجهي.. وددتُ لو أقوم لأوسع صاحب الدكان ضربا بنعلي.. نظرتُ إلى نيفين التي علقت اللقمة بفمها فلا هي استطاعت ابتلاعها ولا استطاعت رميها.. شحبَت ملامحها ورأيت عينيها تمتلئان؛ وكأنهما تُنُّور نوح الذي فار وما لبثت أن أغرقت خداها.. أخرجتْ من حقيبتها منديلاً لفظت فيه الجمرة المشتعلة في فمها وصارت تجهش بالبكاء. بكت نيفين حتى مزقت قلبي وهدير دمعاتها ينحت رويداً رويداً أجزاء من روحي.. حاولتُ احتضانها فأزاحت يدي من كتفها.. حاولت مسح دموع عينيها فأدارت وجهها. سكَنَتْ كموج قرر أن يمنح ركاب السفينة أملاً في الحياة وصار يخف أزيزها شيئًا فشيئًا حتى اطمأنت أنفاسها.. نيفين؟؟ يا حبيبة قلبي.. يا مضناي الذي أجفى مرقدي.. يا نور عيني الذي خفَتْ حتى صرت ضريراً لا أتبين معالم طريقي.. يا من سعادتها سعادتي وشقائها شقائي.. أتسمعينني؟؟ أتظنين ولو للحظة واحدة أني سأتركك؟؟ أتظنين أن لا علم لي بما يجول بثنايا صدرك؟ والله إني ما أحببت أحداً كما أحبك ولن أهوى كائنًا كما أعشقك.. نيفين؟؟ يا شمعة قلبي.. يا مهجة روحي.. يا هوائي وكيف أعيش بلا هوائي؟ يا ماء عيني وكيف أرى بغيرك دربي؟؟

حبيبتـي.. سـآتي إلـى بيتكـم.. سـأجلس مـع أبيـك.. سـأخبره أنـك مليكتـي.. وسـيتوج أبـاكِ حبنـا ببركاتـه.. ألـم تقولـي بأنـك مدللتـه؟.. وأنـه كان يسـقيك لبـن العصافيـر حيـن تطلبينـه.. لـن يعـارض سـعادة ابنتـه.. ثـم تتلـون حياتنـا أنـا وأنـت.. ننام على مخـدة واحـدة.. ونكـبر في بيـت واحـد.. ونتخاصـم كمـا يتخاصـم المتزوجـون لكننـا نرضـى قبـل الخصـام.. ونتعانـق أبـداً يـا نيفيـن.. أزيحـي عـن قلبـك هـذا الهـم الـذي استوطنه كمـا أزيـح شـعراتك هـذه مـن عينيـك.. هكـذا ببسـاطة وهـدوء.. والله مـا زدت في عينـي إلا ألقـاً.. والله مـا نقـص قـدرك عنـدي يـا غاليـة قلبـي.. غـداً سـأرتدي أجمـل حلـة عنـدي.. سـأحضر معـي باقـة ورد لا تـوازي بجمالهـا عينيـكِ.. ولا بأريجهـا رائحـة جسـدك التـي تتسـلل بهـدوء لتسـكن خلايـاي.. أحبـك نيفيـن.. أحبـك.

***

فعـلاً ارتديـت أجمـل مـا عنـدي... بدلتـي الكحليـة و تحتهـا قميـصٌ أبيـض.. لبسـت ربطـة العنـق التـي أهدتنـي إياهـا نيفيـن لكنـي خلعتهـا حيـن شـعرت أن يـدا تطـوق عنقـي.. ربطـة عنـق وأنـا لا أسـتطيع احتمـال أزرار قميصـي؟؟ لا أدري لمـاذا أشـعر أن كل شـيء متآمـر علـى خنقـي وقتلـي، ليـس اليـوم يـا كنـان ليـس اليـوم، لا تسـمح لغيـر

الفرح أن يغزو أفكارك ويبعثر سعادتك، تأملت انعكاس صورتي... تساءلتُ وأنا أنظر إلى مرآتي أن كنت سأكون مرضياً لمن سيكون قريباً عمي.. أن لا أجعل له طريقاً إلى رفضي.. ازدان الأمل في قلبي وهواء الربيع القادم من نافذتي يقبل جبيني وخدي.. كنت وأنا أرتدي ملابسي أرقص على أنغام أغنية تتهادى من جهاز الراديو وأنا أتخيل وجه نيفين كما تركته بالأمس.. ما تفارقنا إلا بعد أن عاد إلى عينيها شعاع الشمس الذي غاب أشهراً خلف سحبِ آلامها.. ابتَسَمَتْ فضجَّ قلبي بهتاف لا يسمعه غيري.. وكأنها كانت تنتظر مبادرتي، كيف لكلمات أن تحيي موات قلوب أدمى الحزنُ خلجاتها وتبعثُ فرحاً من بين ركامِ الأحزان؟ تورد وجهها؛ وكأن روحاً جديدة قديمة بعثت بداخلها حين نفختُ فيها من أحرفي وبثثتُ فوقها آهاتي.

وصلت.. عدلت هندامي.. وباقة الورد التي أحملها بيضاء كتفاؤلي.. استقبلني أبو ضياء بابتسامته المشعة ذاتها.. ارتدى روباً منزلياً فوق بنطاله الأسود يصل إلى ما تحت ركبتيه.. لولا دماثة وجهه لا نقبض قلبي... هل أخبرته نيفين عن سبب زيارتي أم تقصد أن يجبرني على لقاء لا يعده مهما؟.. تعرقت وأنا أنظر إلى بذلتي التي أيقنتُ أني بالغتُ في اختيارها.. شغلني بأحاديث لا

قيمة لها ولا أذكر منها شيئاً.. صار يسألني عن أمور تحدثنا بها في لقائنا الأول، وأنا لا أعلم بما أجيبه.. دخلت نيفين بعد قليل ترتدي فستاناً حريرياً أزرق يكشف عن ذراعيها.. أحسستُ بأنها استطالت وهي تتهادى أمامي كأغنية حب.. كشروق شمس... كانبلاج ظلمة من قلبي.. تقدمت نحوي واحنت ظهرها لتقدم لي عصيراً أحمراً تلونت بلون توتِةِ وجنتاي، خطفتُ نظرة إلى شامة ذراعها وابتسمتُ لأختها على خدها.. جلَسَتْ بجانب أبو ضياء تهربُ منها نظراتٌ تكاد تنطقُ بحبها.. انطلق لساني وتلاشى توتري وأنا أتلصَّصُ إلى ابتسامة ازدانت فوق شفاهها وأبو ضياء يصغي إلى كلماتي باهتمام قل أن تجده في رجل بعمره يستمع إلى فتى بسنّي.. لم تدم لحظات الصفاء تلك كثيرًا.. جاءت أم نيفين لترمقني بنظرات حارقة.. دخلت وهي تعرج من أثر روماتيزم أقلق ركبتيها، وجلست قبالتي تلتهمني عيناها.. كانت تنظر إلي من أعلى وتمر على كل أجزائي بنظرة ازدراء لم تحاول كثيرًا مداراتها.. عرفتُ لاحقاً أنها كانت تلقبني بالقروي رغم انزعاج أبو ضياء من تكبرها.. كانت أسئلتها لي تدور حول قريتي.. المزارعون والريفيون ثم صارت تتفاخر بأصل عائلتها المعروف في دمشق وعائلة زوجها، سألتني عن جذوري، عن أعمامي الذين

لا أعرفهم.. صرخَتْ باستغراب وهي ترمق نيفين بنظرة غريبة.. قَبَلِي؟؟ عراقي؟؟ حاولت أن أدير دفة انتقاصها.. سألتها عن ركبتها وألمها.. لعن الله الروماتيزم الذي هاجمني في عز شبابي.. استأذنتُ أن ألقي نظرة على ركبتها فامتنعت.. قالت: لدي طبيب موثوق أُتابع معه حالتي.. قال أبو ضياء لا ضير من رأي طبيب آخر يا أم نيفين.. أصرت على الرفض وقالت (هذا) ليس طبيباً، إذا تخرّجَ سيكون معالجاً.. تكاد تتقيأ امتعاضها مني.. بعد أن تململ أزاح أبو ضياء ثقلَ أسئلتها عن كاهلي.. طلب منها فنجان قهوة وقال لنيفين التي احمر وجهها أن تذهب لمساعدة أمها.. تلبَّدت سماء أبو ضياء الصافية بغيوم كدر لم يستطع إخفاءها.. جلس معنا الصمت دقائق بعد خروج النساء.. تنحنحت... فاتحته بنيتي.. أثنيتُ كثيرًا على تربيته وأدب ابنته فابتسم بهدوء.. قال نيفين تعرف مصلحتها وأنني شاب مثقف وطموح وأفهم بالأصول، وأنه يحب أن يرى والداي ويتعرف عليهم، حين اتصلتُ بها ليلاً قالت لي نيفي أن لا أقلق من موقف أمها وأنها سترضخُ تحت ضغط أبيها، أخبرتني نيفين أن الموضوع الآن لدى أهلي.. أمي وأبي الملكومان تواً بأخي.. صخب ما يجري حولي أعماني عن المصيبة التي نزلت بي ولا زال القلب ينزُ بها.. اعتراني خوف من أن أتكلم معهما عن ما يشغل

خاطري.. لم أسمع من أحد منهم خلال الشهور التي مضت بعد مغادرتي غاضباً مُدَنّساً بحنقي.. قررت أن أؤجل ذلك إلى حين خصوصاً وأن أيامي مع نيفين تمر هادئة وصفحة وجهها رائقة لا يكدرها إلا ألم مزمن سكن عينيها.. حتى لحظات فرحنا تلبس رداء من أحزاننا التي نسجتها لنا الدنيا وفصلتها على قياساتنا.. إذاً هذه هي تجاربنا التي تصنعنا وترسم حدود شخصياتنا؟.. تدمغ أعيننا ووجوهنا بختم رمادي.. تتسلق فوق هاماتنا وتتجسد هالةً من شيء لا نراه لكن نعرفه معرفتنا بذواتنا. رغم محاولتها طمأنتني أن الأمور ستجري كما نحب إلا أنني كنت أتلمّسُ خوفاً وقلقاً في عينيها، كانت تقول إنها امتلأت رهبة من أبي حتى وهو يبكي حين شاهدتهُ ذلك اليوم.

***

هنا...

دخلت القسم متعباً بعد أن أنهكني أحد مرضاي فوجدتُ يمان يشابك ساعديه على طاولة الاستقبال مبتسماً ولينا تجلس على الكرسي خلفها والضيقُ يملأ محياها، سرت في جسده انتفاضةً صغيرة للحظات وابتعد مسرعاً إلى غرفة التمارين حين رآني.. تغير وجه لينا وتصبغت خداها بلون الشفق لما صرت أمامها.. تجاهلتُ ما رأيت وأردت أن أكمل طريقي إلى مكتبي لكنها نادتني.. نظرتُ إليها لأجد ظل أحرف تريد أن تقفز من شفتيها فتمنعه لتتوارى على استحياء على طرف فمها، أخبرتني أنها تريد الانتقال إلى قسم آخر أو أن تعمل معي على المرضى المنوّمين.. خطر لي أن أسألها عن السبب لكني سكتُّ وأمعنت النظر في لمعان عينيها.. إن كنت تسمع كلام عين شخص ما فتيقن أنك تحبه وإلا لضاعت تلك الكلمات في الهواء كما تضيع صرخات المعتقلين في أقبية الظلام، وأنا أسمع بكل وضوح عيني لينا، أخبرتها أنني سأرى ما أستطيع فعله وأدرتُ لها ظهري والدمُ يغلي في عروقي.

وجدتُ يمان يجلس على كرسي مدولب ويدور به في منتصف الغرفة، توقف راسماً إبتسامة طفولية على وجهه حين رآني ثم

اقترب مني بسرعة حتى يصدمني بمركبه المتحرك، أوقفته بقدمي وقد اتشح وجهي بصخرة جامدة، توتر حين رأى صرامتي وعرقت صلعته سريعًا حين سألته عن سبب رغبت لينا بالانتقال.. رفع كتفيه للأعلى وكأن الأمر لا يعنيه.. لا يمكن أن يكذب يمان وينطلي خداعه علي.. عاودت سؤاله نفس السؤال مرة أخرى فقام من كرسيه وأجلسني عليه ثم قرفص أمامي ووضع يديه على ركبتي. .. غلى الدم في عروقي حين أخبرني أنه يشتهيها وأنه يريد أن ينصب شباكه ليصطادها.. قال بأنه دارى شهوته تجاهها بسبب ظنه أنني أريدها لنفسي.. ظننت أنك تخطط للحصول عليها وحين عرفت بأنني كنت مخطئًا سعيت لها.. كنان أنني أشتهي ـــــ

نهضت بغتةً وكأن أفعى كادت تلسعني.. اصطدمت ركبتي بأنفه وانفجر بدم لوّثَ أرضية الغرفة.. تركته سابحًا بقذارته وخرجت.. لينا تصارعُ بكاء يتخطّفُ مقلتيها... أخبرتها بأن تعود إلى بيتها اليوم وأن تبدأ عملها غداً في قسم التنويم، قلتُ لها ذلك بغضبٍ لم أستطع كثيرًا مداراته ورأفةٍ فضحتها عيناي.

أي جدار ذاك الذي بنيته بيني وبينها.. أكذبُ على نفسي أم على قلبي وها هو حائطي المنيع ينهار كقطع بسكويت هش سقطت

أمـام أول قضمـة شـغف.. لا زلـتُ أحـارب دقـات قلبـي وأقاتلهـا.. العهـد الـذي بيني وبينـي عهـدُ مـوت، إمـا أن أمـوت أو أن أحيـا بـلا قرعـات قلـب.. موتـان يحيطـان بـي والخاسـر هـو أحـد الفائزيـن بالسـباق أو كلاهمـا.

بسـرعة الـبرق تغيّـر حـال كل شـيء.. أيـام قليلـة قامـت بها دنيـاي وقعـدت... أشـعل يمـان جـذوة نـار صغيـرة سـرعان مـا أحرقـت اخضـراري ويبسـي.. سـرَتْ في المستشـفى إشـاعة أنني أتقاضـى نقـوداً مـن مرضـاي.. وأنني أتفـق معهـم علـى جلسـات عـلاج خارجية بنفس سعر المستشفى ليوفروا تعب القـدوم على أنفسـهم كمـا ادّعـوا أنني أدّعـي، لينـا لـم تسـلم مـن أفاعـي الألسـنة أيضًـا.. حتـى عامـل المقهـى الصغيـر في المستشـفى ابتسـم لهـا بخبـث وهـو يشـيع لهـا مـا سـرى عنـي.. (كنـان مـافي كويـس).. قـال لهـا وهـو يضحـك فتركـت فنجـان قهوتهـا وجـاءت لإخبـاري وهـي تبكـي، علمـتُ أن نظـرات طاقـم التمريـض التـي تلاحقنـا لـم تكـن إلا جـراء إشـاعاتٍ تنهشُ لحمهـا ولحمـي وحتـى أُخفـف وطأة الحزنِ عليهـا اتصلـتُ بصديـق لـي يرأسُ قسـم العـلاج الطبيعـي في مستشـفى آخـر ووافـق سـريعـًا علـى انتـداب لينـا لديـه لمـدة شـهر، لملمـت أغراضهـا وودعتني وهـي تبكـي، كحدأة تخطـف غصنـًا مشـتعلاً لتلقيـه في بقعـة جديـدة تلظـت نـار الأقاويـل في

المستشفى.. صرتُ مليونيراً.. صار بيتي الذي لم أنتهِ بعد من دفع أقساطه للبنك قصرًا منيفًا يمتلئ بالجواري.. جعلوا من لينا أمًّـا لطفلي الذي ينام في رحمها وأنها كانت حاملاً يوم حملتها بذراعي إلى غرفة الطوارئ.. في يوم الأحد التالي دخلت إلى المستشفى لأجد على مكتبي استدعاءً عاجلاً من لجنة المراقبة.. تم التحقيق معي بخصوص حصولي على أموالٍ من المرضى وهدايا ممنوعة... بعد أن أنتهت اللجنة من مساءلتي أمروني بإحضار كشفٍ لحسابي البنكي ثم طلبوا مني الانتظار وغادروا.. تُرِكْتُ وحيداً أمام أربعة كراسٍ تنظر إلي وتبتسم ظهورها ساخرة بي.. بعد دهر جاء رجل واحد.. وسألني سؤالاً واحداً ثم غادر: هل لديك علاقات مشبوهة بمرضى أو مراجعين خلال العمل؟ استطرد أو أي علاقات مع زميلاتك خارج نطاق العمل؟

أجبته بالنفي وقد أربكني استطراده.. تخيلتُ صورة لينا وهي تئن تحت أسئلتهم المرتابة بها.. ضج قلبي وشعرت أن دقاته انتقلت إلى صدغي. بعد التحقيق تقرر إيقافي عن العمل مؤقتًا حتى تتبين لجنة التحقيق صدق إفادتي.

حيـن خرجـتُ مـن غرفـة التحقيـق وجـدت يمـان يصالـب يديـه على بعضهمـا وهـو متكـئٌ علـى البـاب ويرمقنـي بـكل شـماتة؛ وكأنـه لـم يكـن قبـل أيـام أعـز أصدقائـي.

***

تنتهي أحلامنا..

تنتحرُ آمالنا...

تتمزق سفينة رغباتنا بوجه عواصف اليأس..

فنغرقُ أنا، وأنتِ.. في بحرٍ من الألم...

لنصبح طعامـًا لدموعٍ متوحشة..

وأحزانٌ مفترسة...

هناك...

شهران مضت بعد أن التقيت بأبو ضياء والعام الدراسي يوشك على نهايته؛ لذا قررتُ أن الوقت حان لأخبر أبي وأمي.

ودعتني نيفين ونحن نرزحُ تحت أحلامنا.. تحدثنا عن بيتنا الذي سيؤوينا.. عن غربتنا المقبلة خارج ما ندعوهُ وطنًا، والتي لن نسمح لها باختطافنا كما اختطفت كل من علق في شباكها، خمس سنوات كأقصى بُعُدْ ثم نعود لنكمل ما تبقى من حياتنا في دمشق.. طفلان وطفلة فقط.. حمزة وليث ونيفين.. لم توافق على اسم فتاتنا التي لن تولد.. كانت تريد أن تسميها ماريا.. تخاصمنا بحب وعقدنا صلحًا على اسم نور.. يكفي أنه يبدأ بحرف اسمها..

وضعت يدها على نافذة الحافلة التي ستقلني ووضعت يدي فوق يدها لا يفصل بين اليدين إلا زجاج رقيق وملايين السنين الضوئية، ابتسمت وهي تكور قبضتها الأخرى فكورت قبضتي مثلها.. من أين لي بقوة كقوتها؟ من أين لي بتفاؤلٍ كالذي أنعشَ بؤس قلبها.

دُهشتُ حين وجدتُ أحمد أمامي في قريتنا يهبطُ من الباص القادم من حلب ودُهشتُ أكثر حين احتضنني.. لاحت على

وجهه علامات وقار وأدب.. نحُلَ كثيرًا حتى صارت عظامه رقيقة كصبي صغير.. رفَضَ أن نركب ما يوصلنا إلى البيت حتى يحدثني ونحن نمشي.. أوصاني أن نتكاتف لمساعدة أبي وأمي.. أن نزيح عن كاهلهم ألم الفقد الذي أصابهم بعد رحيل حمزة ما استطعنا، برجاءٍ لم أعتده طلب مني أن أصبر على جفاءهما لي وتحميلي ما لا ذنب لي به.. أي حكمةٍ يهبها لنا الموت يا أحمد؟؟ كم عامًا يضيف إلى سنين أعمارنا؟؟

ترددتُ قليلا ثم أخبرته عن نيفين وعن مشروع غربتي المقبل.. سُرَّ بما أخبرته عنها.. قال إنه سيساندني وأنه سيعودُ معي إلى دمشق ليتعرف عليها وأن ما ينقص عائلتنا الآن هو الفرح بعد أن غلّفَ الموت وجوهنا بقناع الألم. لأول مرة في حياتي أُحبُّ أحمد.. انظر إليه كما ينبغي أن ينظر أي شاب إلى أخيه الأكبر.. يقف معي كما ينبغي أن يقف معي كشقيقه الأصغر.. هنا يسمون أكبر الأخوة بالعضيد.. أي أنه ذراعك الذي تبطش به وتقوى من خلاله.. أحسست بأن لي عضدًا يحميني.

حين وصلنا قفزت أمي من مجلسها بجانب أبي واحتضنت أحمد بدموعها.. وخرج علي من غرفتنا يتقافز كطفلٍ صغير

واحتضنني، قبِلَتْ أمي أن أقبل يدها واحتضنها دون أن تضع عينها بعيني.. لا أدري لم شعرت بخجل وأنا أقبلها وكأنني أعتذرُ لها عن قتلي لأخي.. نحُلت وشابَ في عدة أشهرٍ شعرها حتى صار كبياض الثلج.. تجعدت عيناها وغارت تحت وجنتيها.. أبي قديم الألم فلم يزد عليه إلا مسحة حزن جديدة تطل من بين فولاذ نظراته.

أفطرنا جميعًا فوق الدكة أمام دارنا في اليوم التالي.. لحق أحمد بأمي وهو يضعُ يده على كتف علي ويشير لي برأسه إلى أبي.. كان يشرب الشاي من استكانته وينظر إلى البستان الذي يحيط بنا.. تنحنحت فنظر نحوي، سألته عن صحته فحمد الله باقتضاب وهو يتفرسني ويخلخل لحيته بيده،.. عيناه تقول لي أن أتكلم.. قلتُ بغباء أن هذه آخر سنة لي في الجامعة.. سكتُّ وصمت وهو يهز رأسه، أخبرتهُ عن لجنة الخليج التي سجلتُ اسمي معها.. بدى ساهماً لثوانٍ ثم هز رأسه وقال يكتب الله لك الخير، سكتَ وصمتُّ أنا.. أدارَ عينه مرة أخرى إلى البستان فتنحنحت.. نظر إلي مستفهماً.. أخبرته أني أرغب بالزواج قبل سفري.. تهلل وجهه لثوانٍ ثم عاد لصرامته وكأنهُ قام بجريمة بشعة حين فرح لأجلي، قالَ بعد أن أرتشف من فنجانه: يكتب الله لك الخير.. أمك تريد

أن تزوجك بابنة أختها.. ضاق وجهي.. قلتُ له ألا رغبة لي بابنة خالتي وأن هناك فتاة في دمشق نالت استحساني، فكرت كثيرًا في وصفها حتى لا أثير حفيظة مزاجه فأبدلتُ (تعجبني) بـ(تروق لي) و(أحبها) بـ(استحسنت أخلاقها)، أخبرتهُ أنها تدرس في كليتي وأنها قامت أيضًا بالتسجيل في لجنة الخليج وأننا إذا حظينا بموافقته وموافقة أهلها سنسافر سويا بعد أن نتزوج، ظل أبي صامتًا طيلة حديثي ولم أنتبه لشرار النار الذي كان يتقد ببطء في عينيه، ما إن أنهيت كلامي حتى صاح بأعلى صوته فأجفلني، رفع رأسه ونادى، تعالي يا أم أحمد، تعال يا أحمد، باركي لابنك يا أم أحمد.. ابنك يريد أن يحضر لك عروسًا من المدينة.. بارك لأخوك يا أحمد.. بنات القرية ليست بمقام الدكتور كنان.. ابنة خالته جاهلة وقدماها تشققت من الحراثة بالأرض وليست على قدر المقام، أم أنك تخجلُ بنا جميعًا يا ولد؟.. مبروك يا كنان.. أكيد اتفقت معها على الزواج قبل أن تأتي أليس كذلك؟ هل فرحت بك أمها؟؟ أم تراها عيرتك بقريتك وأصلك؟؟ هل قرأت الفاتحة مع أبيها.. احتضنك ابن الأصول وصار يناديك بيا ولدي أليس كذلك؟؟ هل فرح أخوتها بك. وصاروا يقولون جاء النسيب.. ذهب النسيب..

جلس النسيب.. بالَ النسيب.. لُعِنَ النسيب؟ مبروك يا ولد مبروك.. لماذا لا تباركون؟؟

جفلنا جميعًا حين صرخ فجأةً بوجه أمي التي أتت تهرعُ حين سمعت صراخه يتبعها علي وعيناه متفجرتان في وجهه ويكاد يبكي هلعـًا.. باركي لابنك يا أم أحمد؟؟ قالت أمي بذهول.. مبروك.. توتر وجه أحمد واختبئ علي خلفه وهو ينقل بصره بيني وبين أبي بخوف، بارك لأخوك يا أحمد.. أراد أحمد أن يتكلم.. أبي اهدأ حتى___... صرخ أبي بوجهه.. بارك لأخوك.. نظر أحمد إلي بنظرة أسى ولم يستطع أن ينطق.. قام أبي من كرسيه فانتفضت وأنا أقف وتراجعت إلى الوراء كفريسة رأت فوهة بندقية ترصدها.. توجه إلى أحمد.. هزه من ياقته بعنف وهو يكز على أسنانه: قلت بارك لأخوك.. علا بكاء علي... تقطع صوت أحمد.. .. تحشرجت الأحرف بين شفتيه، وقال بصوت مهتز وهو يحني رأسهُ: مبروك.

نظر إليّ والدي.. عيناه حمراء كالدم: اذهب يا كنان.. تزوج بفتاتك.. وسافر بها حيث تريد.. أدار ظهره لي.. وأكمل وهو يدخل.. بس ياليت ما ترجع.

***

متبلداً.. .. ضائعاً.. تائهاً.. منتبهاً بكل ذرات كياني.. واقفاً.. جالساً.. متفجر العينين.. متدلي الفم.. تبدو علي آثار البلاهة.. الثمالة.. بل الحنق والغضب.. اقتربت مني أمي.. قرصتني بقوة على ذراعي ثم ضربتني بقبضتها على صدري.. اقتل أباك كما قتلت أخيك بالأمس.. قالت ذلك وتبعته إلى الداخل وهي تضع يديها على رأسها..

متبلداً.. تائهاً.. أبلهاً.. متجمداً.. ساكن العينين.. واقفاً.. جالساً.. أنظر إلى الفراغ.. يتقدم نحوي أحمد.. يحتضنني وأسمع دقات قلبه كقرع طبول حرب... ويتبعهم مع علي الذي التصق خوف عينيه بوجهي.. قبل أن أخرج نادتني سهى.. تقدمت نحوي بسرعة وصفعتني بكل ما أوتيت من كُرْه..

متبلداً.. أبلهاً...

سرتُ حتى وجدت مضافة القرية على يميني.. يجلس بها المختار ورجلين من أتباعه، وقفتُ أمام بابها المشرّع ونظرت ببلاهة إليهم.

متبلداً.. واجماً...

بلا وعي مني توجهتُ إليهم ودخلت دون أن أسلم ونظراتهم

تكاد تأكلني وأنا أتحرك بذهول، لففتُ بين الكراسي المصفوفة على جدرانها وحين صرتُ أمام كرسي أبي وقفتُ أمامه أنظر له والحنق يتقافز بداخلي..

متبلداً.. ...

جلست، أنتفض المختار وتابعيه وقوفا ووضع يده على بياض شاربه الكث، مطّ شفتيه.. وهز رأسه ازدراءً وهو يهمس في أذن أحد الرجلين.. تقدم الرجل نحوي وقال إنَّ علي أن أخرج.. بدوت كأن أحدًا لا يكلمني وأنا أنظر إلى الفراغ.. أمسكني من كتفي فأنزلت يده بعنف.. اتسعت عينا المختار قبل أن يخرج هو وصاحبيه، وقال شيئًا لأحدهم بأذنه فهرول راكضًا.

امتلأت المضافة شيئًا فشيئًا بالرجال.. كل ما دخل واحد منهم تفجّرتْ عيناه وهو يحلق بي.. أن أجلس في مكان أبي يعني ذلك أنه قد مات.. إنني ورثته بعد أن دفنته بيدي.. أنا صبي القهوة الذي يسقيهم أجلس الآن في كرسي أحد وجهائهم، حوقل بعضهم وهو يمر بجانبي، وسمعت صوت بصاق أحدهم يرتطم بملابسي.

بعد قليل دخل أحمد يلهث.. وقف عند مدخل المضافة ينظر إليّ والهلع يغطي وجهه وكأن جبالاً سقطت على رأسه..

أتـى يتعثـر بقدميـه ووقـف بجانبـي.. مشـان الله كنـان قـوم لا تفضحنـا يكفـي.. مشـان الله كنـان.. كان على وشـك البكاء وهـو يتوسـل إلـي.. نظـرت إليـه بنفـس نظـرتي الفارغـة التـي توشـك أن تبتلعنـي، توسـل لـي ثـم وضـع ذراعـه تحـت إبطـي ليحملنـي فوضعـت كوعـي بقـوة في بطنـه.. تلـوى مـن الألـم وسـط صرخـات الرجـال.. تعالـت أصواتهـم.. اسـمع شـذرات تداخلـت ببعضهـا مـن اسـتهجانهم.. عيـب عليـك.. مـا يسـتحي والله.. الله يصـبرك يـا أبـو أحمـد.. فجـأة صمـت الجميـع حيـن دخـل أبـي.. حيـن رأيتـهُ زاغ بصـري وبلـغ قلبـي حنجـرتي، ينقـر عـكازه بقـوة في الأرض فأشـعر بأنهـا تـدوي في صـدري، الـرؤوس كلهـا تلتفـت بينـه وبينـي، قـام الرجـال البعيـدون وتقدمـوا ليشـهدوا ملحمتـي، وجمـوا جميعهـم وهـم يرقبـون تقـدُّمَ والـدي ببطـء نحـوي.. ترتعـش يـداي التـي ضغطـت بهمـا بقـوة علـى مرفقـي عرشـه حتـى أواري انتفاضتهمـا.. مغـص مؤلـم قـرص بطنـي وأحسسـتُ أني سـأتقيء أمعائـي.. جـف حلقـي حتـى وجـدت صعوبـة في ازدراد ريقـي، عينـي اليسـرى تهتـز بعنـف حتـى صـرت لا أرى بهـا إلا صـوراً متلاحقـة.. أبـي مابيـن كل غمضـة رمـش يقـترب ويقـترب منـي.. أصـررتُ علـى الصمـود رغـم تفتـت كبريائـي بداخلـي، مـرت ملاييـن السـنين وهـو يتقـدم هوينـاً نحـوي وعينـاه قنبلتـان تـكادان تنفجـران في وجهـي..

حين صار قاب ضربتين مني جزعت وهرب قبلي كبريائي.. .. انتفضت.. وقفت على قدمي وابتعدت عن كرسيه قبل أن يصل بثوانٍ وركبتاي تصطكان.. أكاد أن أتبوّل على جبني.. بكل هدوء جلس على الكرسي.. أخذ جرعة قوية من الهواء وهو يغمض عينيه ثم زفرها لتطير أمام نفخته بقايا آمالي.. وجهه أحمر كالدم يغلي.. فتح عينيه الحمراوين.. وقال بهدوء يلحقُ عاصفة هوجاء.. اتفضلوا استريحوا يا جماعة ليش واقفين؟.. قالها مستغرباً وكأن ما يحدثُ ليس إلا عبثُ طفل صغيرٍ أو رفرفة فراشة قبل موتها، بعد أن ابتلع كل واحد منهم ذهوله تفرقوا على أماكنهم يجلسون.. خرجت من المضافة أجرُّ أذيال خيبتي.. تُدنسني نظرات قومي.

***

وصلتُ إلى دمشق مساء.. أذان المغرب ينتشر بين الحواري والطرقات ويصيبني بالصداع.. غثياني يتبع غثياني... وصلت إلى بيت نيفين.. نظرت إلى شباك بيتها.. أصيصا زرعها يقطران ماء من إبريزها.. آس وريحان ينتشر عبقهما في غرفتها.. تحمل كل يوم بعضاً من شذاها يختبئ تحت ملابسها.. أملتُ أن أراها.. صرتُ أروح وأجيء في الشارع الصغير علها تخرج لتسقيني ماء عينيها..

بعد قليل صارت المحلات تقفل أبوابها.. نظرت إلى ساعتي.. الحادية عشرة.. مرت أربع ساعات كأربع دقائق وأنا أهيم على وجهي.. ركضت إلى الشارع العام.. أخذت سماعة الهاتف العمومي ونقرت رقم بيتها.. أعدت السماعة بقوة بعد أن سمعت طنين الرنة الولى وعدتُ أركضُ إلى نافذتها علها تكون قد فهمت إشارتي.. غرقت الحارة بالليل.. نافذتها كما هي لم تتغير.. لم تخفت الأنوار التي تتراقص خلفه إلا بعد ساعة.. تتوهج جمرات صغيرة خلف شرفات جيرانها ويتصاعد دخان أبيض أمام عيونٍ ترمقني.. جلست على رصيفٍ قريب بعيد عن مدخل بنايتها.. قرقرت بطني.. أنَّتْ مفاصلي وكساني الألم. استلقيت على كرتونة قذرة وعيني لا تفارق شباك غرفتها.. فتحت عيني على الأذان الذي ينسكبُ في روحي فيعذبها.. أشيطانٌ أنا؟ أعفريتٌ جثم على أركاني؟ شعشعتْ الشمس وخرجَ الناس يتثائبون وينفضون نعاسهم.. وقفت وكل عظمة من عظامي تصرخ.. رجرجتُ ملابسي وأنا أنظر إلى بابها الموصود أمام أحلامي إلى أن انفرجت شفتاه.. خرجت وجمال بؤسها يطغى على ملامحها.. مرّت أمامي وخطفت نظرة سريعة تجاهي ثم توقفت كلديغ.. نظرت مرة أخرى فابتسمت لها من خلف أحزاني.. توترت عيناها وأشارت لي باللحاق بها.. تبعتها

حتى دخلنا حديقة صغيرة في شارعها.. مسحت رماداً التصق بجبيني وجفّفت قطرة من بحر أحزاني.. حدثتها عن حكايتي كلها.. لم أخف شيئًا منها، تفاجأتُ بأناتها وهدوء أنفاسها.. أمسكتْ يدي.. قالت إنها معي وأننا سويا سنتجاوز صخور عقباتنا، أنها مستعدة على فعل أي شيء لأجلي.. ارتخت عيناي.. بكيتُ وهي تمسح دموعي وتمرر يدها على شعري.. رميت رأسي على فخذها ولولا الناس لأخذتني غفوة على شطآنها التي لا مرسى لحزني غيرها.

سأكلم أبي. سأقنعه.. لن يرضى أن يتسبب بحزني يا كنان.. سيتفهم.. أبي أعقل الرجال وأشجعهم.. سأقول له بأني أحبك.. بأنك مليكي.. سأخبره اليوم يا كنان.. اليوم.. وسأرد عليك غداً.. لا ليس غداً.. اتصل بي بعد منتصف الليل بنصف ساعة حينها سيكون قد نام أبي، سأزف بشراي لقلبك.. سنعيش قريبًا سويًا يا حبيبي.. سنحقق أحلامنا.. سنلتف حول بعضنا.. سأعطيك قلبي.. كنان يا حبيبي.. أتعلم أنك أجمل أجمل أيامي.. أتعلم أنك رزق.. دعوة متقبلة خرجت من قلب أمي فعانقتها ملائكة السماء؟؟ أتعلم أنك حبيبي؟؟ اذهب إلى بيتك؟ أرحْ قلبك انفض عنك غبار أحزانك.. اغتسل بماء حبنا يا كنان، وفي الليل سأكلل بالورد أحلامنا.

مـع كل حـرف تقولـه كانـت تتهـادى إلـى أذني سـيمفونية عشـق تهدهـدُ روحـي كما تهدهـدُ أمٌّ رضيعهـا حتى ينام، مع كل كلمة تنطقهـا كانـت تنـزرعُ في صـدري وردة ثـم وردة ثـم وردة إلـى أن صـار صـدري حقـل ورودٍ زاهيـة.

أرحـتُ قلبـي.. رأيـت نيفيـن في منامـي ترتـدي حلُمُنـا الأبيـض.. تبتسـم مـن خلـف غطـاء وجههـا الشـفاف وتقـترب منـي.. تتأبـط ذراع أبيهـا مـن جهـة وأمهـا مـن الأخـرى.. جميعهـم يتقدمـون نحـوي ويبتسـمون.. في غمـرة سـعادتي سـمعت نقـراً شـديداً أزعجنـي.. أبـي قـادم مـن الجهـة الأخـرى.. عينـه حمـراء.. وجهـه أحمـر.. ملابسـه أيضًـا حمـراء.. نقـر عـكازه يـكاد يمزقنـي، ظـل النقـر يتصاعـد ويعلـو حتـى أخرجنـي مـن حلمـي فعـدتُ إلـى وعيـي، فتحـت عينـي علـى دقـات البـاب.. انزعجـت مـن هـذا القـارع الـذي قطّـع أوصـال حلمـي.. نهضـت.. جـاري الفـوال يقـف أمامـي.. يمسـك بيـده ورقـة صغيـرة سلمها لـي.. قـال أن أخـي أحمـد في دمشـق ويريـدني أن أتصـل بـه حـالاً.. رميـت الورقـة في سـلة النفايـات بعـد أن بصقـتُ عليهـا.. ارتديـتُ ملابسـي وخرجـت.. بقـي سـاعتان ونصـف علـى موعـد سـعادتي، ذهبـت إلـى شـارع العابـد ودخلـتُ مقهـى الروضـة، جلسـت علـى طاولـة بجانـب واجهـة المقهـى التي تطـل علـى الشـارع وأرى مـن

خلالها كابينة الهاتف التي تنتظرني على الرصيف الآخر.. طلبت فنجاناً من القهوة ضاعت مرارته في علقمِ فمي..

كنت أتخيل نيفين وهي تحدث أبيها.. يرفض ويمتنع.. يقول لها كلمته التي قالها لي.. الأصول أصول.. تستجديه تستعطفه.. يحنُّ عليها بعد أن تذرفُ دموعها وتفرغ إلحاحها.. يرضى.. تفرح.. تقفز على عنقه تحيطه بيديها وتقبله.. يقول لها لا تخبري أمك الآن.. تضع قفلاً خيالياً على طرف شفتها وهي تضحك.. شفتها التي رشفتُ منها إكسير حياتي، تبكي بفرح فيمسح دموعها وحرماني بمنديل واحد، أعيش نشوة فرح تغمرني ثم يغلفني كدر يعشعشُ في أعماقي، تتناقض مشاعري، تتقلب، تتعارض، تتأرجح وهكذا إلى أن انتصرت تعاستي وانكفأ على نفسه فرحي.

قاطعتني أم كلثوم تغني.. انقبض قلبي

لسا فاكر قلبي بيديلك أمان

والا فاكر كلمة حتعيد اللي كان

قلبي ينبض في عيني اليسرى.. أمسكتها براحة يدي وضغطت عليها حتى هدأت.. تواصل أم كلثوم بث حزني من حنجرتها.. أضيق ذرعاً بالمكان.. أنظر إلى الساعة المعلقة.. الحادية عشرة..

أقوم.. أدفع الحساب.. أرى علب الدخان تتراص على طاولة المحاسب.. أسئلة عن أفضلها فيشير لي على علبة حمراء.. أطلب فنجان قهوة آخر.. أعود إلى طاولتي.. أفتح العلبة.. أستنشق منها نفسًا.. أسعل بعنف فينظر لي جميع من حولي.. أطفئها.. بعد قليل أشعل واحدة أخرى.. أسعل قليلاً وأكمل تعبئتها في صدري.. أشعر بحرقة في جوفي لكنها أخف من النار التي تتأجج في كياني.

كانت الأيام في قلبي دموع بتجري

وانت تحلالك دموعي وهي عمري

تكاد أم كلثوم تمزقني.. ساعة بقيت على موعدي.. أنهيت علبة السجائر الأولى.. ابتعت واحدة أخرى والوقت يمر كسلحفاة مريضة.. أقسم أن عقرب الثواني كان يتوقف لحظات قبل أن يتحرك.. يتلكك كأنه لا يريد أن يمر.. خيِّلَ لي أنه صار له عينان وفم.. يمد لسانه نحوي ويقلب عينيه يسخر مني.. يتوقف كلما مر بجانب أحد أخوته.. يختبئ خلفه ثم يُظهِرُ وجهه وهو يضحك مني.

طلبت فنجان قهوة ثالثًا ورابعًا وسابعًا، وهذه العجوز لا زالت تردد كلماتها بكل ما أوتي صوتٌ من زخم.. تصبُّ في أذني ويلاً وثبوراً.

ياما حليت لك آهات قلبي وهيّ

من قساوتك أنت والأيام عليّ

كنت تسمعها نغم

واسمع صداها نار تدوب حبنا شوية شويه

تقف نيفين أمام طاولتي.. تلبس فستاناً سكرياً طويلاً وتمسك في يدها منديلاً.. يُظهِرُ شِقُّ ثوبها جمال جيدها والشامة التي تختبئ في شق نهديها.. تمسك السلسلة التي أهديتها إياها من رأس بجعتها وتقطعها، ترفع رأسها عالياً وتردد كلمات الأغنية وهي تبكي.. أُرخي رأسي.. أفرُك عيني.. أرفع رأسي.. تختفي نيفين.. أنظر إلى الشارع وعيني على كابينة الهاتف.. تعود نيفين أمامي ودموعها تكاد تغرقني.. تختفي وتعود ثم تختفي وتعود وأنا أغوص في بحر أسود.. انتابتني ظلامية في صدري.. نظرت إلى هذه العقارب المعلقة التي التهمت أيامي.. ربع ساعة حتى يكون موعد فرحي.. أو وقت إعلان موت قلبي.. ما إن وقفت حتى دارت الدنيا.. صار المقهى يلتف حولي؛ وكأنني في وسط لعبة تلفُّ بي.. تقدمت.. سقطت.. وقفت.. سقطت.. اجتمع بعضهم حولي اسندوني..

رميت مالا على الطاولة.. في منتصف الشارع الصغير تقيأت.. مسحت فمي وأنا أكمل طريقي.

داخل الكابينة رجل يتكلم.. يلف سلك الهاتف على يده ويضحك.. نظرت إلى ساعة المقهى.. عقرب الثواني يركض وهو ينظر نحوي.. تنتهي الدقيقة بثوانٍ ويسرع أكثر.. يصل إلى رأس الساعة ويفتح يديه كمتسابق فاز في سباق الجري ويكمل.. أنقر على زجاج الكابينة.. أشير للرجل إلى ساعتي.. يقول كلمات لعاهرته ثم يخرج متذمرًا.. أمسك سماعة الهاتف.. يدي ترتجف.. قلبي ينتفض.. وغثياني.. أكاد أقع وأنا أمسك السماعة.. نغمة تلو الأخرى.. أسمع صوت السماعة يرتفع.. صمت.. صمت.. صمت.. ألو.. صمت.. صمت.. صوت نفَسٍ رجولي غاضب.. ثم بعنف صوت ارتطام السماعة بصدري.

خرجت.. تحجرت عيناي.. مشيت تائه الخطا.. ركضت ثم ركضت وكأن الموت يلاحقني.. ينقبض صدري.. تنطبق أضلاعي على قلبي.. أقف وأحني رأسي.. أرميني على الرصيف.. أتلوى وتعصر قبضتي موضع قلبي.. الألم سكن كل أشيائي.. روحي وعقلي وجسدي وعاطفتي.. أغلقتُ باب بيتي على قحطي وشظفي.

***

تتأمل نيفين وجه أبيها.. يقلب جريدته بين يديه.. ينظرُ بسرعة إلى ساعة يده.. أين الغداء يا أم نيفين.. قبل أن تراه كانت على ثقة أنها ستستطيعُ التماسك أمامه وتغيير قناعاته بتلك الأصول التي يتمسكُ بها حتى إن كان غير مقتنعـًا بها؛ فقط لأن المجتمع أملاها عليه، لكنه ما إن دخل أمامها حتى ذابت كل تلك الثقة وتلاشت، ابتسم لها بحب فخارت سعادتها وتذكرت خيانتها له ولنفسها، تنظرُ إلى باب المطبخ المفتوح وترى أمها منشغلة بأمرها.. بابا.. يرخي رأسه قليلاً ليراها من خلف نظارته.. تتردد.. بابا بدي أحكي معك بموضوع.. يطوي الجريدة.. يضع يده فوق يدها.. تهمُّ بالكلام لكن تدخل أمها تحمل الطعام.. ترخي بصرها.. فيعلمُ أن في فمها ماءً لا تريد أن تروي بها غيره.

بعد الغداء يخرج أبو ضياء لعمله.. يقبلها ويهمس في أذنها: نتكلم حين أعود.

تعود إلى نفسها، تقف أمام شرفة غرفتها الصغيرة، تفتح يديها وهي تعب نفسًا عميقًا تبقيه في صدرها ثم تزفره بقوة.. تجلس على سريرها.. تخربش في كراستها.. تسقي الآس والريحان قبل أوان

سقيها.. تستلقي على سريرها.. تستحم.. تستلقي على سريرها.. تغير ملابسها. .. تكتب كلاماً لا معنى له.. تخربش توقيعها على ورقة بيضاء.. ورقتان.. ثلاثة، تكتب اسم كنان ثم تزينه بورودٍ صغيرة، تحضر ورقة جديدة وترسم اسم كنان بعرضها ثم تمزقها قطعاً صغيرة، وتلقيها أسفل سلة قمامتها حتى لا تراها أمها.

تخرجُ مرة أخرى إلى شرفتها.. تسقي الريحان ثم تضربُ على رأسها حين تتذكر أنها سقتهُ قبل قليل.. تسمعُ صوت أمها تناديها من الداخل... هاتف لك يا نيفين.. تعودُ إلى الداخل.. تضع سماعة الهاتف على أذنها.. لجنة العمل في الخليج.. تم قبولها.. تسأل عن كنان.. تم قبوله.. تغلق الهاتف.. ترمي بنفسها على سريرها.. تُأرجحُ قدميها على حافته.. تطير في سماء أحلامها.. ترسمُ أيام مستقبلها.. ليلة العرس.. حضن كنان.. عطرُ كنان الذي يشبهُ صوت البحر.. السفر.. العمل.. .. زملاء في المستشفى وعشاق في البيت.. البيت.. الأطفال.. الـ___ يقرع أبوها برفق على باب غرفتها.. تعتدل.. يجلس أبوها على حافة السرير بجانبها.. ينير وجهه بابتسامة تنضح حباً. لا ابتسامة مثل تلك التي ينظر بها أي أب لابنته.. وكل أبٍ بابنته معجب.. أمسكت يده.. أرخت رأسها.. قالت بخجل أن أبو كنان رفض أن يزورنا.. أبى أن يتحقق

حلمنا.. سعادتي مرهونة بين يديك يا أبي.. لا ملجأ لها إلّاك.. ساعدني.. كن معي.. كن صديقي

رفع بيده وجهها.. نظر إلى عينيها.. تراقصت دمعتان صغيرتان في كل واحدة منهما.. مسح على جبينها وخدها.. ليت الأمر بهذه السهولة يا نيفين.. ليتني أستطيع أن أشتري سعادتك بشقائي.. أعرفُ حبك لكنان.. أعرف حبه لك.. لغة العيون لا تخفى علي.. وخاصة بوحُ عينيكِ.. عرفتُ منذ أن زار الهوى قلبك.. لكننا في مجتمع لا يرحم يا حبيبتي.. خائنٌ من يخرج عن عاداتهم.. مجرمٌ من لا يحترمُ أعرافهم.. الأصول أصول يا ابنتي.. لن يرحمنا الناس إن تجاوزناها.. سيقولون ما قبل بتزويج ابنته إلا ليخفي عاراً.. ما أعطى---

اتسعت عيناه.. ارتجف قلبه.. سحب يده بعنف من يدها.. انتفض واقفاً وهو ينظر إليها.. انفجرت عيناها.. اهتز جسدها.. ارتعشت يداها، عرف من نفضاتِ جسدها ما تعجزُ عن قوله شفتيها، عرف أن شرف ابنته غادر ميناءه ورحل في سفينة العار بعد أن دُمِغَ بختمٍ أحمر.

إحمر وجهه كمرجلٍ يغلي وبياض عينه تفجر بلون الدم.. تبكي

وهي تنظر إليه.. تستجدي نظراتها رحمته التي فارقت محيّاه.. يهم أن يغادر غرفتها.. تمسك يده بيديها.. يستدير ويصفعها ثم يتركها بخيط دم يسيلُ على طرف شفتها، شفتها التي فارقت إلى الأبد شفتي، وسيل ألم يُغرقُ كيانها.

***

هنا...

منهكـًا عـدتُ إلـى بيتـي.. استـنزف التحقيـقُ مشـاعري وطاقتـي.. عـاودني ذلـك الصـداع الشـقي.. صـداعٌ يكتنـف كل خلايـا رأسـي.. وجـدتُ أبـي في عزلتـه التـي تظللهـا شـجرة الليمـون.. قبّلـتُ رأسـه الصامـت وأكملـت طريقـي أسـمع صـوت قراءتـه وأنـا أتخيـل شـكل سـريري.. ألقيـتُ نظـرة إلـى الخلـف بغيـر وعـي منـي فوجدتـه ينظـر إلـي.. جفـل حيـن رآني وأعـاد رمـي بصـره في قرآنـه. تسـمرتُ واقفـًا في مكـاني أبحلـقُ بـه.. لا أدري أخيـل الـي أم أن هنـاك شـيئًا في نظرتـه تشـي بسـخرية بـي، عـدتُ إليـه وجلسـتُ علـى الحشـائش المزروعـة تحـت قدميـه، كان يلبـس حـذاءه القديـم نفسـه الـذي يفصـل أصبعـه الكبيـر بعـروة عـن باقـي أخوتـه.. خلعتـه عنـه ووضعـتُ قدمـه اليمنـى علـى فخـذي وشـرعت بتمسـيدها لـه بحـب اجتـاح كيـاني.. وهنهـا أتعبنـي.. تشـققات كعبيـة تشـققني.. أردت أن أشـكو لـه مـا حـدث معـي وكيـف شـوّه صديقـي الوحيـد حيـاتي.. كيـف في أيـام سـطت غيرتـه وحقـده علـى مـا تبقـى لـي مـن بقايـا أعيـشُ بهـا أيامـي.. عملـي.. وكيـف نفـثَ سُـمَّه في بـدن فتـاة بريئـة لا ذنـب لهـا إلا أن عليهـا مسـحةٌ مـن بحـر أحـزاني.. أردت أن أقـول لـهُ أن كل مـن يقـترب منـي يحـترق كالفَـرَاش الـذي يعشـق شـمعةً تذيبـه.. يغـرق كسـفينة أبـت إلا أن تعانـق هيجـان بحـر...

اقشعرَّ بدني وانا أتذكر يوم غادرت قريتي بعد وفاة أخي.. كيف كنتُ أحتاج إلى كلمة حانية منه.. تربيتةٍ على كتفي.. أو حتى أمر متجهم بأن أصبر وأتحلى برجولتي.. أي بؤسٍ هذا اللذي يمنعني من أن أرمي نفسي بأحضان أبي.. أن أبكي على قدميه هاتين.. أن أحتضنهما وتحتضنني، أحنيت رأسي لأقبل قدمه.. قبل أن تصل شفاهي إليهما هاجمني صداعي بعنف فرميت قدمه أرضـًا، وسجدت على الحشائش ضاغطـًا رأسي وكأنني أريد قتل إعصار يفتك بي.. أبي لا يبدي أي ردة حنو علي.. يكمل قراءة كتابه كيوم وفاة أخي وكأن من يُعْتَصَرُ أمامه حشرة ضارة من حشرات الأرض أو عقربـًا لدغه الألم، نهضتُ بصعوبةٍ وصوتُ تلاوته يكاد يمزقني.. قمت أترنَّح.. لا أعلم كيف دخلت بيتي.. مررتُ بيدي على لوحاتي، نظرت بحزن إلى فتاتي وتوقف عن القفز غزالي، لا أذكر كيف استلقيت على سريري وكيف نمت.. رأيت في منامي نيفين.. ثوبها الأبيض ينزف من أسفلِ بطنها... تلاحقني قادمة من ظلام مخيف ونظراتها مزيج بين ألم ورعب، ظهرت سهى أيضًا من الفراغ بجانبها.. انتفخت بطنها بجنين شيطاني وتحمل في يدها قضيبـًا معدنيـًا وفي عينيها نارٌ تشتعل.. ثم رجل يسير خلفهم بقدم واحدة وفخذه المقطوع ينزف دمـًا أسود ويحمل في يده منشاراً..

امتلئ سواد حلمي بوجوه بشر كلهم يتقاطرون دماً أسود.. أحدهم خلع كتفه والآخر مشلول يترنح بمشيته ويتقدم نحوي يسيرون خلف نيفين وفي يدهم سكاكين ومناشير.. أركض والرعب يسيطر على كياني.. عم إسماعيل.. صوفيا.. فتياتي.. يمان.. كلهم يحملون أسلحةً بيضاء ويتقدمون نحوي.. المسافة بيني وبينهم تتناقص حتى كادوا أن يصلوا إلي.. فجأة ظهرَ أبي وأمي وحمزة وجميعهم يحملونَ سكاكين ضخمة ويتقدمون أمام نيفين وسهى، عيونهم مطفأة.. وجوههم شاحبة كأنهم بعثوا من الموت.. أردتُ أن أصرخ فلم أستطع.. أمسكتُ فمي فوجدته قد خيطَ بخيطٍ أسود.. امتلأتُ رعباً وأنا أحاول الخروج من حُلُمي.. فتحت عيني فجأة وقد ابتلع الظلام غرفتي، تترددُ أنفاسي بعنف داخل صدري ويغطي العرق جبيني وصدغي وصدري. لا أدري لكم من الوقت ظللت أنظر إلى سقف غرفتي واللا شيء يدور في عقلي.. اللا شيء تماماً؛ وكأن الفراغ ابتلع أفكاري بثقبه الأسود.. أحسست بحلقي يتقطع عطشاً، شفتاي انطبقتا على بعضهما تشققا، شربت قارورة الماء وقمتُ أخيراً أترنّحُ.. فتحتُ باب شرفتي.. هجَمَتْ على وجهي أنفاس رطوبة جدة المستعرة.. الليل يغلف حديقة فنائي وصوت صراصير الليل يقطع سكون نباتاتي ويضجر مرقدها.. سحبت كل

الهـواء الرطـب الـذي يسـبح حولـي وحبسـته في ثنايـا صـدري حتـى اختنقـت شـرفتي ثـم أطلقتـه فعـادت إليهـا حيـاتي.

تذكـرت أبـي حيـن وقعـت عينـي علـى شـجرة الليمـون وكرسـي الخيـزران الـذي يجلـس تحتهـا.. نزلـت وقبـل أن أصـل إلـى نهايـة الـدرج صعـدت مـرة أخـرى حيـن سـمعت صـوت شـخيره في البيـت يـدوي.. قبـل أن أكمـل صعـودي شـممت رائحـة نتنـة تتبعتهـا بأنفـي حتـى دلتنـي إلـى المطبـخ، وجـدت بقايـا عشـاء أمـس الـذي نسـيت أن أضعـه في ثلاجتـي، وقـد تعفـن وتكوّمـتْ فوقـه طبقـة خضـراء مقرفـة، استغربت مـن سـرعة تحللـه.. ألقيتـهُ في سـلة المهمـلات بيـد وأقفلـت أنفـي بقـرف بأصابـع الأخـرى.. صعـدت إلـى ركـن المطبـخ الصغيـر بجانـب غرفتـي لأعـد فنجانـاً مـن القهـوة أعيـد بـه الحيـاة إلـى باقـي خلايـاي.. وجـدت فنجـاني ودلـة القهـوة يحتضنـان بعضهمـا في المغسـلة الصغيـرة والعفـن يغطـي وجـه بقايـا القهـوة.. زادت حيـرتي.. العفـنُ يغطـي جميـعَ الأواني.. هرعـتُ إلـى غرفـة نومـي.. تفحصـت كل مافيهـا.. كل شـيء يبـدو علـى مـا هـو عليـه.. ارتحـت حيـن خطـر لـي أن الرطوبـة تفعـل أكثـر مـن ذلـك تمامـاً كمـا تفعـل بداخلـي آلامـي.

رأيـت هاتفـي علـى الأرض بجانـب سـريري.. عـدت إلـى زاويـة

القهـوة.. وضعـتُ سـلك الشـاحن في هاتفـي.. نظفـت دلتـي وفنجـاني بالصابـون ثـم بللـت خرقـة صغيـرة ومسـحتها.. أشـعلت النـار ووضعـت قهـوتي عليهـا، ألغيـت قفـل هاتفـي وأنـا أسـتند علـى دولاب المطبخ وانتظرت حتى ظهـرت صـورتي علـى شاشـتها، صـارت نغمـة الرسـائل تقـرع بسـرعة وتتابـع وكأنهـا كانـت محبوسـة في سـجن هاتفـي وفتـح لهـا سـجانها كل أبوابهـا.. اعتدلـت والذهـول يتملكنـي.. ثلاثمائـة وخمسـون اتصـالاً فائتـاً.. مـا هـذا يـا الهـي؟ ؟؟ صـرت أمـرر أصبعـي إلـى الأسـفل.. أغلـب الاتصـالات مـن لينـا.. لكـن أول اتصـال فائـت كان مـن خمسـة أيـام.. نظـرت إلـى التاريـخ واليـوم.. الخميـس؟ ؟؟.. أي لعنـة جديـدة حلـت علـى رأسـي.. ضربـت علـى جبينـي والحيـرة تتملكنـي.. زاغـت عينـاي وأنـا لا أكاد أصـدق أن اليـوم هـو الخميـس... كيـف اختفـت خمسـة أيـام مـن حيـاتي؟؟.. فتحـت جهـاز كمبيوتـري.. الخميـس أيضًـا.. لا يعقـل أني كنـت نائمـاً أيامـاً دون أن أدري.. اعتـراني غضـب لا أسـتطيع تبريـره.. نزلـت إلـى غرفـة أبـي علـي أجـد لديـه تفسـيراً يريحنـي لكننـي لـم أجـده.. خرجـت مسـرعـاً إلـى فنـاء الـدار.. ليـس بالحديقـة أيضًـا وبوابـة مدخـل الفنـاء منفرجـة قليـلاً كمـا يتركهـا دائمًـا.. أسـرعت علّـي أراه يمشـي قبـل أن يصـل إلـى المسـجد.. أجلـت بصـري في الحـي النائـم الـذي يبتلعـه الظـلام والصمـت.. جريـتُ حتـى

تجاوزت الحديقة الصغيرة في منتصف حينا.. وجدتُ باب المسجد مقفلاً، التففتُ حوله إلى الباب الآخر، هززتهُ بعنف، مقفلٌ أيضًا، دخلتُ دورة المياه الملحقة به. وجدتُ باباً واحداً مغلقاً، ناديت على أبي فلم يرد، نظرتُ أسفل الباب فلم أجد أحداً ثم خرجت.. عدت أتلفّت من حولي يصحبني هذياني.. واربت بوابة الفيلا والتفتُّ لأجد مصيبة أخرى تنتظرني.. نوراً يتراقص من شرفة غرفة نومي على صوت طقطقة الخشب ويحيل موات أثاثها إلى حطب مشتعل... ألسنة لهب تحرقُ أشيائي ونيران صدري تأكل نيراني.. القهوة.. الخرقة.. النار... ركضت بسرعة ودخلت البيت.. الدرج الداخلي أمامي يلتهب والصور المعلقة على الجدار بجانبه تقطر حِمَماً.. ساح وجه فتاتي الصغيرة فتحولت ابتسامتها إلى بكاء وعينيها الجميلتين إلى سواد فصارت مرعبة.. الغزال في الصورة الأخرى يتقافز والنيران تلتهم قوائمه وبطنه بعد أن التهمت النيران سماءه الصافية وسمائي.. أردت أن أقتحم النار فلم أجرؤ بعد أن لفحت حرارتها وجهي وأنفاسي، عدتُ راكضاً إلى فنائي وسحبت خرطوم الماء الذي تشابك لأول مرة في حياته والتف حول نفسه كأفعى خائفة.. جررته رغما عنه بيد تتنافض وأنا أسمع صوت ونين سيارات الدفاع المدني.. فتحت الماء ودخلت.. دوى

انفجارٌ عنيف صمَّ أذني؛ وكأنه كان ينتظر دخولي.. طرت.. في فضاء غرفتي ورأيت نيفين تخرج من صورة الفتاة المعلقة وهي تحترق، وتضحك قبل أن يرتطم رأسي بأحد جدراني.

***

هناك..

تكوّرت على بؤسي طيلة تلك الليلة.. أجلس على أرض ألمي في زاوية أحزاني.. ظلمة صدري تقيمُ بي كما تحيط ظلمة الليل بغرفتي.. أبحلق في اللا شيء وكأني أبحلق بداخلي..

دقات تقرع بابي.. تقرعُ بابي.. تقرع بابي بعنف.. قمتُ أترنح.. حسام وسامر أمامي.. لا مشاعر تعتريني.. لا أسئلة في رأسي.. يتبعونني.. يجلسونني.. تتحركُ شفاههم ولا أسمع أصواتهم.. يجلس سامر بجانبي ويضغطُ على يدي.. يلملم حسام بعض ملابسي.. يضعها في حقيبتي.. أنظر إليهم بعين فارغة.. متعبة.. يقيمونني.. يرفعون جسداً عجينته الهم والبؤس والألم..

نركب سيارة أجرة.. أنظرُ إليهم والحيرة تتملكني، يتكلمون ويتكلمون ولا أسمعُ أصواتهم.. أتساءلُ بداخلي إلى أين يأخذونني؟ نهبطُ أمام موقف الباصات.. يجرني سامر من يدي ويركب معي باصاً.. يلوح لنا حسام بعينٍ بائسة.. يربت على كتفي سامر.. أنظر إلى الحزن الذي يملأ عينيه وأتفاجأ بنفسي أضحك على منظر حزنه، وهو واجمٌ في وجهي.. أضحك.. أضحك.. أقهقه كلما رأيتُ وجه أحد الركاب الآخرين يطالعني.

نصلُ قريتنا مع وصولِ خيوط الشمس إليها.. نركب حنطورا.. أضحك.. أضحك.. أقهقه كلما رأيت عينا ترمقني.. الشفقة في عيون بعضهم.. أرى المختار يمشي بين كلبين من رجاله.. أضحك بقوة وأقف على خشبة الحنطور.. أشيرُ عليه بأصبعي وأضحك؛ وكأني رأيتُ بهلوانـاً يلعب، وهو يهزُّ رأسهُ ويبكي.. يشد سامر يدي، ويجلسني.. أضحك.. أضحك.

أقفُ على خشبة الحنطور، أفتح ذراعي وأعبُّ من هواء قريتي وأضحك، تلوحُ لي خيمة سوداء طويلة طويلة نُصبت أمام بوابة القصر.. أناسٌ يدخلون وغيرهم يخرجون.. الوزير.. أحمد.. وعلي يجلسون على كراسي رصت بجانب بعضها عند مدخل الخيمة.. رجال يدورون بدلّة القهوة الصفراء على الجالسين.. أضحك وأنا أنزل من الحنطور.. يرتفع صوت ضحكي.. ينظر من في الخيمة جميعهم الي.. أضحك.. أضحك وسامر يحاول إسكاتي..

يخرج أحمد بعينٍ حمراء ودموعه تتساقط على خده.. يتوجه جهتي.. يسرع.. يصل إلي ويعاجلني بقبضة يده على وجهي.. أسقط.. أضحك وخيط الدم يسيل من شفتي.. يركلني ببطني.. على وجهي.. على ظهري.. أضحك.. يقول أشياء.. يخرج زبداً

مـن فمـه.. بصاقـه يغسـلني.. يرفـع قدمـه ليهبـط بهـا علـى قلبـي.. يمسكه رجلان ويبعدانـه.. يأخـذني سـائق الوزيـر إلـى الداخـل.. نسـاء متشـحات بالسـواد.. الجميـع يبكـي.. أضحـك.. أرى أمـي قادمـة نحـوي.. أمـي.. أفتـح يـدي.. أركـض نحوهـا وخطـاي تبعثِّـرني.. تصفعني.. تبكـي.. تصفعنـي.. تضربنـي علـى وجهـي.. تبكـي.. علـى صـدري.. علـى كتفـي.. تبكـي.. أُبَلِّـمُ في وجههـا قليـلا.. يتسـاقط دمعـي.. أضحـك.. أضحـك.. أضحـك.

يأخـذني السـائق إلـى غرفتـه.. يغسـل وجهـي.. يغسـل شـعري.. سـهى تنظـر إلـي وترمقنـي بأسـى.. أضحـك وأشـير إليهـا، أكـور قبضتـي وأهزهـا وأضحـك.. يخرجنـي السـائق مـن بـاب متـواري.. أسير إلـى موقـف الباصـات.. أضحـك.. أصـل دمشـق.. أضحـك... أدخـل بيتـي.. أضحـك.. أضحـك.. أضحـك.. أبكـي.. أبكـي.. أسـقط على فراشي.

***

أفتـح عينـي.. أنتفـض جالسـًا علـى فراشـي.. يتسـلل نـور الصبـاح ببـطء إلـى غرفتـي كلـصٍ يريـد أن يسـرقَ سـوادي.. قمـت.. تتهلهـل روحـي في جسـدي كمـا يتهلهـل قميصـي الأصفـر.. مـا نظـرت إلـى

وجهـي.. مـا غسـل المـاء بؤسـي.. خرجـت.. جلسـت في حديقتنـا.. علـى كرسـينا الـذي حجـب عـن حبنـا أعيـن النـاس.. تسـقط ورقـة خريفيـة فـوق رأسـي.. تسـقط ورقـة أخـرى أكـبر بجانبـي.. التقطتهـا.. مسـحتها وأنمتهـا برفـق علـى فـراش راحتـي.. أسـجيتها فـوق منديـل أبيـض ولففـتُ عليهـا كفنهـا.. بكيـتُ وبكيـت حتـى بلـل الدمـع روحـي.. بكيـت وكأنني أحمـلُ نعـشَ ابنتـي التـي فارقـت الحيـاة بيـن يـدي.. أخبرتني قبـل أن تلفـظ آخـر حفيـفٍ لهـا.. أن الحياة إلـى زوال.. كل شـيء سـيموت كمـا أمـوت أنـا.. كل شـيء سـيضمحل.. سـينتهي.. سيتلاشـى.. حتـى الحـب.. حتـى الألـم.. حتـى نيفيـن.. حتـى أنـت... حتـى.. أبـي..

قبّلتهـا.. دفنـت فقيـدتي في جيبـي.. قمـت مُثقـلاً بسـنينِ همـي.. أسـير بخطـى شـيخ هـدّه الألـم..

أقـف أمـام محـل التسـجيلات.. أقـف أمـام البائـع الـذي يعلـق صـور كاظـم علـى واجهتـه الزجاجيـة.. يصـدح مـن داخـل المحـل صوتـه.

مستقيلٌ وبدمع العين أمضي

هذه اللحظة من عمري وأمضي

لـم يعد صدر الحبيب موطني

لا ولا أرض الهوى المذبوح أرضي

لم يعد يمكن أن أبقى هنا

فهنا يبكي على بعضي بعضي

أشتري الشريط الجديد وأبكي وأنا أنقد البائع الحائرُ بي ثمنه، أضعه في جيبي الآخر وأنا أدخل من بوابة الكلية.. كل العيون تنظرني.. أرى نيفين تجلس على كرسينا.. الكرسي الذي نقشتُ عليه أسمها واسمي.. الكرسي الذي سيحمل فوقه زوجين آخرين.. شاب وفتاة آخرون.. الكرسي الذي لم يعد لها.. ولم يعُد لي.. تنظر نحوي.. تتسعُ عيناها.. يرتعش جسدها.

دنانير ذهب.. بل بقع نور هاربة من براثن شجرة ضخمة.. تسللت حتى وصلت إلى خدها، تهف نسمة خريفية، يهتز شعرها الأسود الغجري مع كل هبة خريف، هذا الكرسي الحزين كان يشع فرحاً وسعادة لسنتين خلت، رمادي هو هذا الكرسي وباهت، أوراق الأشجار التي تتساقط بجانبها يبست وأصفر لونها كمريض مسلول سقط طريحاً على فراش الأرض في ذلك الفصل البائس، اسودت جفناها وكأن قطعة من الليل هربت من السماء ولجأت إليهما، تأنُّ أظافرها تحت قضم أسنانها..

تسرد من عينيها كلمات لا يفهمها أحد سواي، كقصيدة رثاء لأم ثكلى.. تفرستُ في وجهها.. سرتُ نحوها أنظر إلى حذائي.. أمد قدما وأؤخر أخرى.. انقباض قلبي يجرني لأعود من حيث أتيت وبصيص أمل صغير يدفعني للأمام، خيبات الأمل التي نتوقعها تخيب آمالنا أكثر بعد حدوثها، أُبحلق في حذائي.. أستجديه أن يتوقف.. أن يبتلعني.. أن يخفيني من وجودي قبل أن أصل إليها وينتهي كل شيء.. وصلت.. جلستُ بجانبها ورفعت رأسي المثقل بالتعب.. نظرتُ إليها بابتسامة مرهقة.

اقتربت.. أردت أن أتكلم.. أن أسلم.. لم أستطع وكأن حبلاً غليظاً أخاط فمي.. بعد لغة الحب التي كنا نتكلم بها فلا يفهمها إلا أنا وهي وربما كل عاشقين، سرت بيننا لغة الصمت، لغةٌ مدادها الألم وأوراقها الأنين، أمسكتُ بيديها الناعمتين وضغطت عليهما بقوة.. تنظر إلي بغضب والدموع تموج بداخل عينيها كقطرات ماء تتكاثف بسرعة على جسد غيمتها.

نحدق ببعضنا.. تاه الكلام على شفتينا.. سقطت دمعة مشتعلة على خدها، يزداد لهبها ليحرق كل ما بداخلها ويعمي دخانه عيناي وعينيها.

تركـت يدهـا برفـق وانحنيـتُ دافنـاً وجهـي المتعـب بقـبر يـدي المرتجفتيـن وبكيـت.

أسـمعُ صـدى صرخـاتي داخـل قلبـي ورئتـاي وكل خلايـاي لكـن ليس شـفتي، يهتـز جسـدي وأشـعر بتمـزق روحـي.

غرقت بالدموع يـدي.. انهمرت على خـدي.. أسـمع نشيج نيفيـن يعتصرني.. انتحب رغمـاً عني، نشيّعُ أفراحـاً ذهبت في مهب الوجع وأحلامـاً طارت في عواصف اليأس.. شـلال من الحزن ينهمر فـوق رؤوسنا بعد أن قتل البؤس أملاً كنت أترقبه.. قتلت إشارتها برأسـها ومـض النـور الصغير الـذي كان يضـيء بداخلـي، ومـات هـذا الطفـل قبل أن يولـد بين يديهـا.

تمالكـتُ نفسـي.. لملمـتُ بقايـاي.. رفعـتُ رأسـي أنظـر إليهـا بعينيـن لا أكاد أرى بهما، نظرتُ إلى عينيها نظرةَ وداعٍ أخيرة ودموع ساخنة رسمت خطين لا ينقطعان على خديها، قبّلـتُ يديهـا الاثنتين، غاصت برفق يدي في ظلام شعرها الـذي بعثرتـه هبات السقوط.. قبلـتُ رأسـها.. نهضـت.. عدلـتُ قميصـي.. أخرجـت جثـة الورقـة ووضعتهـا في يمينهـا.. أخرجـت شـريط كاظـم ووضعتـه في شـمالها، نظـرَتْ إلـى يديهـا ثـم نظـرت إلـيَّ تسـتجديني، ابتسـمتْ ثـم تركتهـا وهممـتُ بالخـروج.

قطع الحزن أحرفها.. أرجفَ الهمُّ كلماتها، كنفس أخير يخرج من بقايا جسدها:

- لوين رايح؟

تنسكب الدموع من عيني.. تحرق وجنتي حممها، دعكت صدغاي بإصابعي علّها تقتل وجعي..

- خلص الحكي نيفين.. خلص الحكي
- شو يعني خلص الحكي، أنا لسا بدي احكي، بدي حل.

اتسعت عيناي، لم أكن قد سمعتُ صوتها يرتفع قبل ذلك.. صوتها الذي كان كزقزقةِ عصفورٍ ضئيل.. كهديل حمامة متعبة.. صوتها الذي صار كرعدِ غاضب.. كزئير لبوة.. أول مرة تنادي علي ولا أجيب.. أتركها وأمضي.

- عم الك تعا لهون، تعا يا حقير، تعا لا تتركني بها لمصيبة لحالي.

رشا ووفاء سمعتا صوتها.. هرولتا إليها.. واحدة تحتضنها والأخرى تمسك بيديها وكلتاهما تنظران إلي.. الكره يتقافز من

عينيهما كنمر جائع يكادُ يفقد فريسته.. اهتز جسدها.. ترتجف بعنف.. علا صوت نحيبها كأم ثكلى تمسك أشلاءً ملطخة بالألم:

- روح الله لا يردك، الله لا يوفقك، روح الله ينتقم منك، الله يلعنك.

***

ليس هنا... ليس هناك...

طنين.. طنين..

طنينٌ يحيط بي.. يغلف عالمي.. يأتي من مكان بعيدٍ بعيدْ.. يقتربُ ويعلو حتى يفتك برأسي.. يختفي وأسبح في الفراغ.. يعود يتهادى إلى أذني.. طنين.. طنين.. يقترب رويداً رويداً.. يمُرْ.. كصوت قطار مسرع يمُرْ.. ثم يتلاشى في الفضاء..

رائحة الكلور وأشياء أخرى تتسلل إلى أنفي.. طنين.. طنين.. أصواتٌ أخرى حولي.. كرُكَّابِ محطة هبطوا سويًا، كبائعي سوقٍ شعبي في يوم الجمعة.. لمساتٌ على رسغي.. نورٌ يتوهج داخل عيني اليمنى.. اليسرى.. طنين.

كخطفة بصر أفتحُ عيني.. أرى.. كأول مرة أرى.. كأن غشاوة كانت على عيني منذ خلقت.. أشعرُ بي معلقًا بطرف أنامل جسدي كورقة خريف تتشبثُ بغصنها الرقيق أمام عاصفة هوجاء.. أحومُ في سقف غرفة بيضاء.. أغطيتي بيضاء.. جسدي أبيض.. وجهي أبيض.. سريري أبيض.. حولي رجال ونساء يرتدون الأبيض.. الوقت أبيض.. صوتُ اللا شيء أبيض.

يتحلقـون حـول جسـدي.. يحمـلُ أحدهـم شـيئين بيـده.. يبتعـدون جميعهـم دفعـة واحـدة إلا هـذا.. يضـعُ شـيئيهِ علـى صـدري.. ينتفـض جسـدي المسـجى أسـفل منـي.. تهتـز صـورتي أمامـي وكأني فقـدت إشـارة بـثّ حيـاتي.. يقفـز صـدري ويهبـط.. يضعـه علـى صـدري.. ينتفـض جسـدي.. يقفـز صـدري.. يهبـط.. طنيـن.. طنيـن.. يخفـت شـيئًا فشـيئًا ثـم أسبحُ في الظـلام.

***

شـهقتُ.. كمـن كان محبوسـًا تحـت المـاء ملاييـن السـنين شـهقت.. فتحـت عينـي علـى اتسـاعها.. كـروح تُنفـخ لأول مـرة في جسـدٍ ميـت.. كآدم حيـنَ وهبـت لـه حيـاة.

تقـوم لينـا مـن كرسـيها فزعـًا.. تقـترب منـي.. .. وجههـا ينضـحُ حبـًا.. ألمـًا.. عيناهـا كجمرتيـن اتقدتـا علـى موقـد حـزن.. يهتـز جسـدها.. تضـع يدهـا علـى فمهـا وتبكـي.. أبتسـم بضعـف.. أرفـع يـدي بضعـف.. تمسـكها.. يسـري بهـا دفء يـد لينـا وحزنهـا.. تنظـرُ إلـي نظـرة مفـارق.. تضمحـل صورتهـا.. تتضـح.. تضمحـل.. تتضـح.. تضمحـل وفي هـذه المـرة أرى أبـي واقفـًا بجانبهـا عنـد رأسـي ويمسـح

على شعري.. يقرأ كما كان يقرأ على حمزة يوم موته لكنه لم يكن يبكي بل كان وجههُ مستبشراً بي.. تظهرُ نيفين فجأة بجانبي.. يا أجمل أجمل أشيائي.. تبتسم لي.. يتساقط الحب من عينيها.. أتكلم.. تقتربان مني.. تتزاحمُ أذنيهما على فمي..

أخبري من عن هوانا سائلٌ

أنَّ هذا القلب محتاجٌ لنبضِ

أنا إن غادرت دنيا حبنا

فالهوى عهدٌ سيبقى دون نبضِ

يرفعان رأسيهما وتنشجُ لينا.. تغرقُ وجنتيها ويتعالى صوت نحيبها.. يُشرِقُ وجهُ نيفين بابتسامتها التي لا زالت تبْعَثُني.. تعتلي سريري.. تعتليني.. يتناثرُ شعرها الغجري حولي.. .. وجهها يضيء وجهي.. كبدرٍ شقَّ ضوءه عتمة ليلي.. يحجب عني سمائي وأرضي.. تتدلى بجعتها من جيدها وتتأرجح كبندولٍ تتابعه عيناي كمن يتابع منارةً أضاءت أركان الظلام.. أتكلم دون أن تتحرك شفاهي.. تردد نيفين معي:

انثري شعرك حولي انثريه

ومعـًا آخرَ ليلِ العمرِ نمضي

هكذا يُصْبِحُ موتي مدهشـًا

عانقيني..

قَبِّلي عينيَّ... وأمضي

- تمّت -